روبرت موزيل

الحياة المضطربة للفتى تورلس

مكتبة ياسمين

الألمانية

أحمد الزناتي

الحياة المضطربة للفتى تورلس

هذه أولى روايات الكاتب النمساوي الكبير روبرت موزيل، الذي يُعد واحدًا من أبرز كتّاب الأدب المكتوب بالألمانية في القرن العشرين.

يحلو لمؤرّخي الأدب وضع موزيل في مرتبة واحدة مع رواد الحداثة الأدبية في القرن المنصرم جنبًا إلى جنب مع جيمس جويس ومارسيل بروست.

لفتت رواية «الحياة المضطربة للفتى تورلس»، الصادرة للمرة الأولى سنة 1906 انتباه عدد كبير من كُتّاب العالم لما تحمله من تجديد أسلوبي وغموض فلسفي وجرأة من ناحية الأفكار، وضمّتها جريدة Zeit الألمانية الشهيرة إلى مكتبة أهم مئة عمل أدبي في القرن العشرين.

رواية موزيل من أولها إلى آخرها قطعة أدبية محكمة، ووثيقة تصف أطوار المواجهة بين رجل يتمتع بحساسية فائقة وذكاء متوقّد، وبين العصر الذي وُلد فيه، العصر الذي وإن أطلق عليه عصرًا مريرًا، لكنه بحق كان عصرًا ملعونًا.

مكتبة ياسمين

ISBN: 978-1-998800-19-3
9 781998 800193

منشورات حياة
HAYAT PUBLISHING

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

مكتبة ياسمين

معكم نكبر ونستمر بكل جديد

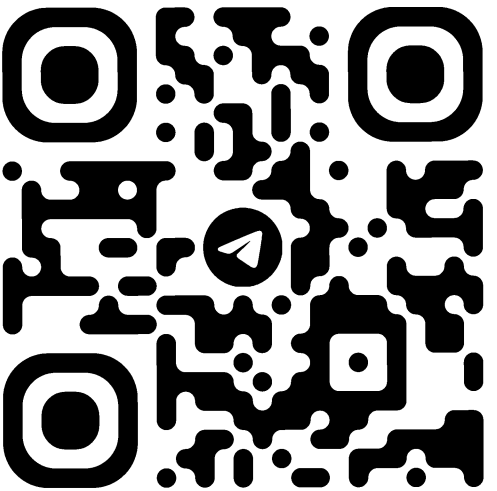

الحياة المضطربة

للفتى تورلس

الكتاب: الحياة المضطربة للفتى تورلس

المؤلف: روبرت موزيل

ترجمة عن الألمانية: أحمد الزناتي

تصميم الغلاف: عبدالفتاح بوشندوقة

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

telegram @
yasmeenbook

عدد الصفحات: 234

الترقيم الدولي: 978-1-998800-19-3

الطبعة الأولى: 2024

جميع الحقوق محفوظة

منشورات حيـــــاة

البريد الإلكتروني: hayatpublishing1@gmail.com

يمكنكم طلب كتبنا من المتجر الإلكتروني:

hayatbookstore.com

الحياة المضطربة للفتى تورلس

روبرت موزيل

telegram @
yasmeenbook

ترجمة

أحمد الزناتي

على سبيل التقديم

هذه أولى روايات الكاتب النمساوي الكبير روبرت موزيل (1880 - 1942)، الذي يُعد واحدًا من أبرز كُتَّاب الأدب المكتوب بالألمانية في القرن العشرين.

يحلو لمؤرِّخي الأدب وضع موزيل في مرتبة واحدة مع رُوَّاد الحداثة الأدبية في القرن المنصرم جنبًا إلى جنب مع جيمس جويس ومارسيل بروست.

لفتت رواية «الحياة المضطربة للفتى تورلس»، الصادرة للمرة الأولى سنة 1906 انتباهَ عدد كبير من كُتَّاب العالم؛ لما تحمله من أسلوب مُجدد وغموض فلسفي وجرأة من ناحية الأفكار، وضمَّتها جريدة Zeit الألمانية الشهيرة إلى مكتبة أهم مئة عمل أدبي في القرن العشرين.

يذهب النقاد إلى أن موزيل استمدَّ أحداث روايته من الفترة التي قضاها في إحدى المدارس الداخلية في منطقة «ميريش فايسكيرشِن» في النمسا، وإن كان موزيل قد نفى ذلك لاحقًا حسَبَما يقول أديب نوبل الجنوب إفريقي ج.م. كوتسي، الذي كتَب مقالة مطوَّلة في كتابه Inner Workings، وهي المقالة التي صُدِّرت بها الترجمة الإنجليزية للرواية، حيث تناول أديبُ نوبل حياة روبرت موزيل، وألقى الضوء على هذه الرواية. سننقل للقارئ لمحة سريعة من مقالة كوتسي عن الرواية؛ إذ يقول: «وسط عالم توارَت فيه القوانين الإلهية، وأُنيط بالفيلسوف/الفنان مهمة الأخذ بزمام المبادرة، هل ينبغي للفنان وهو يكشف عن الغوامض،

أن يصوِّر دوافعه الباطنية الملتبسة، وأن يسير وراءها ليرى إلى أين ستقوده؟ هل يتفوَّق الفن دائمًا على الأخلاق؟ يطرح هذا العمل المبكر لروبرت موزيل هذه الإشكالية، لكنه يقدِّم إجابةً أبعد ما تكون عن الحسم. لم يتبرَّأ موزيل من رواية «تورلس» قَطُّ، بل على العكس واصل تأمُّلها بمزيد من الدهشة، ناظرًا إلى الإنجاز الذي استطاع تحقيقه، حتى على الصعيد الفني، في سنٍّ مبكرة».

وفي فقرة أخرى يقول كوتسي: «وبرغم غياب الأخلاق الذي جعل من الفتى تورلس نِتاج عصره، تُواصِل الأسئلة الأخلاقية التي تقاربها الرواية طرح نفسها. فالتلميذ باينيبيرج، الأكثر ميلًا إليه فكريًّا من بين أقران تورلس، يقدم تبريرًا نيتشويًّا فاشيًّا همجيًّا للعقاب الذي يُوقِعونه على التلميذ بازيني، وهو تبرير مَفاده أنَّ الثلاثة ينتمون إلى جيل جديد لم تعُد تسري عليه المبادئ الأخلاقية القديمة؛ إذ يقول باينيبيرج في الرواية: «... *تغيَّرت طبيعة الرُّوح*»، أما مشاعر الشفقة فهي من المشاعر الخسيسة الممقوتة، التي ينبغي تجاوزها.

رواية موزيل من أولها إلى آخرها قطعة أدبية واحدة؛ وثيقة تصف أطوار المواجهة بين رجل يتمتع بحساسية فائقة وذكاء متوقِّد وبين العصر الذي وُلد فيه، العصر الذي وإن أطلق عليه عصرًا مريرًا، لكنه بحق كان عصرًا ملعونًا».

«ما أعجب أن تفقد الكلمات قيمتها حالما تغادر أفواهنا

نظنُّ أننا هبطنا لنبلغ أعماق البحر، وحينما نعود إلى السطح، نكتشف أنَّ قطرة الماء العالقة بأطراف أناملنا الشاحبة صارت بعيدة الشبه عن البحر الذي أتت منه.

*في البداية نتوهَّم أننا وقعنا على كنوز دفينة آسرة، وحين نتأمَّلها على ضوء الشمس سرعان ما نكتشف أننا لم نجلب من الأعماق سوى حجارة رخيصة وشظايا زجاج مهشَّم؛ برغم ذلك لا يتوقَّف الكنز الذي جلبناه عن البريق في عتمة الظلام».**

المترجم

telegram @
yasmeenbook

* الاقتباس من وضع المؤلف نقلًا عن كتاب ميترلينك كنز البسطاء (المترجم).

(1)

محطة صغيرة على خط السكك الحديدية المؤدي إلى روسيا.

امتد في الاتجاهين كليهما أربعة قضبان حديدية امتدادًا متوازيًا لا نهائيًا على طول الطريق العريض المفروش بالحصباء الصفراء، وعلى الأرض، إلى جوار كل قضيب حديدي رقدت بقايا خلقتها أبخرة العادم مثل ظل ملطَّخ بالقذارة.

وراء مبنى المحطة منخفض الارتفاع، المطليّ بالزيت، طريق واسع متعرِّج يُفضي إلى رصيف القطارات. طُمِسَت ملامح الطريق تمامًا بفعل دهس الأقدام الرائحة والغادية، ولم يكن يميِّز هذا الطريق سوى صفَّين من أشجار الأكاسيا الحزينة، التي اختنقت أوراقها العطشى تحت كثافة طبقات الغبار والسُّخام. ربما كان سبب حزن الأشجار تلك الألوان الكئيبة الطاغية، وربما كان سببه الضوء الواهن المنبعث من شمس منتصف الظهيرة؛ إذ يناضل لاختراق طبقات الضباب الكثيف. تكدَّرت كل الموجودات من بشر وحجر بغلالة كئيبة من اللامبالاة والانطفاء والرتابة، وكأنها صورة تمثيلية مأخوذة من مسرح للعرائس.

يخرج مدير المحطة من مكتبه على فترات منتظمة، لينظر بانحناءة رأس واحدة لا تتغيَّر صوب مسار القطارات الطويل، مُلقيًا نظرة على صندوق إشارات السكك الحديد، الذي لم تخرج منه علامة واحدة تنبئ باقتراب وصول قطار الركاب السريع، بعد أن تأخَّر على الحدود أكثر من اللازم. وبحركة ذراع ثابتة يُخرج ساعة جيبه، ويَهُزُّ رأسه، ثم يعود مجددًا

من حيث أتى، مثله كمثل الشخصيات التي تخرج وتدخل من ساعات الأبراج القديمة، عندما تدقُّ الساعة.

وسط بقعة عريضة فوق الطريق الفاصل بين خطِّ السكة الحديد ومبنى المحطة مجموعة من الشبان الضاجّين بالمرح. كانوا يحيطون زوجين متقدِّمَيْن في السن من ناحية اليمين والشمال. كان الزوجان بؤرة أحاديث الشباب الصاخبة.

لكن بدا أنَّ مشاعر فرحة الشبَّان مفتعَلة زائفة؛ إذ سرعان ما خَفَت هديرُ ضحكاتهم بعد خطوات قليلة، كما لو أنَّ فرحتهم قد سقطت فوق الأرض بعد ارتطامها بحائط صدٍّ عنيد لا مرئي.

كانت السيدة تورلس، زوجة المستشار، وهي امرأة في الأربعينيات تقريبًا، تُخفي عينيها الحزينتين، المُحمَرَّتين قليلًا من أثر البكاء، وراء حجاب ثخين بعد أن حانت ساعة الوداع.

لشَدَّ ما آلمها أن تترك طفلها الوحيد ليعيش وسط الغرباء لمدة طويلة، بينما هي عاجزة عن رعاية فلذة كبِدها بنفسها. كانت المدينة الصغيرة واقعة في الجزء الشرقي من الإمبراطورية*، بعيدًا عن العاصمة، وتحديدًا في منطقة زراعية نائية مأهولة بعدد قليل من الناس.

وأما السبب الذي دفع السيدة تورلس إلى تحمُّل إرسال ابنها إلى هذه البقعة النائية القاسية، فكان وجود مدرسة داخلية شهيرة، شُيِّدتْ في القرن المنصرِم على أرض مملوكة لمؤسسة دينية محافظة، أملًا في حماية الناشئة من التأثيرات المفسِدة للعاصمة الكبيرة.

---

* المقصود الإمبراطورية النمساوية المَجرية وعاصمتها فيينا، التي حُلَّت سنة 1918 بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى (المترجم).

كانت المدرسة قِبلة صفوة العائلات الكبرى لتعليم أبنائها، ليلتحقوا بعد تخرُّجهم بالجامعة أو بالخدمة العسكرية أو لينخرطوا بعدها في سلك الخدمة المدنية أو التعامل مع دوائر المجتمع الراقي، وأيًّا ما كان اختيارهم كان يُوصَى بشكل خاص بالتحاق التلميذ بمدرسة «ڤي».

قبل أربع سنوات قرَّر السيد والسيدة تورلس النزول على رغبة ابنهم الطموحة وإلحاقه بتلك المدرسة، لكن قرارهما أورثهما دموعًا غزيرة فيما بعدُ، فحالما غُلِّقتْ أبوابُ المدرسة وحُسِم الأمر، استبدَّتْ بالصغير تورلس آلام الحنين القاسية إلى وطنه.

لم تُفلح الدروس ولا اللعب فوق المروج الباذخة في متنزَّه المدرسة ولا غير ذلك من وسائل التسلية الأخرى في شَغل انتباهه؛ بل إنه نادرًا ما كان ما يشارك فيها. فرأى كل شيء من وراء حجاب، في ساعات النهار يجد صعوبة في مُغالَبة دموعه، وفي ساعات الليل يسقط في النوم من حرقة البكاء.

وهكذا دأب على كتابة الخطابات إلى والديه كل يوم تقريبًا، فصارت الخطابات بؤرة حياته، وكل ما عداها لم يكن إلا أحداثًا مُبهَمة تافهة، محطات لا تستحق الذكر على صفحة الحياة مثلها كمثل أرقام محفورة على ساعة الحائط.

أما لحظة الكتابة فيغزوه شعور استثنائي فريد، وكأنَّ جزيرة زاهية الألوان، مشرقة الشموس طفتْ على صفحة رُوحه الغارقة في بحر من المشاعر الكئيبة التي ما فَتِئت تحاصره ليل نهار، وتشيع في نفسه البرودة واللامبالاة.

في ساعات النهار، وساعات الدرس وساعات اللهو، عندما يُرسل فكره إلى الخطاب الذي سيكتبه إلى والديه ليلًا، يشعُر أنه يحمل مفتاحًا ذهبيًّا معلَّقًا في سلسلة لا مرئية حول رقبته، يتيح له الولوج إلى أرض العجائب، بينما يكون الجميع منشغلًا في أمور أخرى.

لكن الغريب أنَّ هذا الاشتياق المفاجئ الغامر لوالديه كان مقرونًا بشعور جديد ومتفرِّد. لم يدُر بخَلَده أن يجتاحه هذه الاشتياق القوي، فقد ذهب إلى المدرسة طوعًا وبمحض إرادته، بل إنه ضحك من أمِّه لما فاضت عيناها بالدموع لحظة وداعه.

لم تنفجر في نفسه مشاعر الاشتياق إلا بعدها ببضعة أيام، بعد أن خلا بنفسه وأحسَّ بشيء من الراحة. حدَّثه قلبه بأن مشاعره لم تعُد حنينًا إلى الوطن واشتياقًا إلى أبويه، بقدر ما كانت أمرًا أكثر غموضًا وتعقيدًا. فمسألة الاشتياق إلى ذكرى والديه ذهبت إلى غير رجعة.

إنما أقصِدُ هنا الذكرى الحسِّيَّة الملموسة، لا الذكرى المحفوظة في عقولنا فقط، تلك الذكرى المادية المتجسدة لشخص عزيز على القلب، الذكرى التي تخاطب حواسَّنا كلها، وتحفظها حواسُّنا كلها، بحيث نشعر في كل فعل نفعله وكل حركة نجترحها بوجود صامت غير مرئي لهذا العزيز الغائب. لكنها سرعان ما تتبخَّر سريعًا مثل رنين جرس ارتعش لوهلة قصيرة ثم اختفى.

لم يعُد تورلس على سبيل المثال قادرًا على استحضار صورة «والديه العزيزين الحبيبين» كما كان يردِّد بينه وبين نفسه. وكلما حاول استحضار صورتهما، تقاسمته الهموم، وغزاه ألمٌ مُمِضٌّ، ألم يعذِّبه لكنه يشدُّ من أَزْره في الوقت ذاته؛ لأن لهيب الاشتياق الحار لأبويه كان يغمره بالمتعة مثلما يغمره بالعذاب.

ونتيجة لذلك، لم يعُد التفكير في أبويه إلا ذريعة وظيفتها خلق المعاناة الطافحة بحب الذات داخل نفسه، المعاناة التي كانت تحبسه في سجن كبريائه الحِسّي. كان الأمر أشبه بوجوده وسط كنيسة صغيرة، محاصرًا بمئات الشموع وبنظرات القديسين، فيُنفَخ في البخور المقدس ليشعلَ من ألم جلد الذات. وحالما بدأ شعور «الحنين إلى الوطن» يخِفُّ حِدَّته ويختفي شيئًا فشيئًا، انعكس أثر ذلك في نفسه انعكاسًا واضحًا، لكن هذا الاختفاء لم يخلق في نفسه شعورًا بالارتياح النهائي، بل خلَّف ورائه فراغًا كبيرًا في رُوح الصبي تورلس.

وكان هذا الفراغ، هذا الغياب هو ما جعله يدرك أنَّ ما افتقده لم يكن مجرد شعور بالاشتياق، بل كان طاقة إيجابية، طاقة رُوحية تزدهر في أعماقه تحت زعم المعاناة والألم. أما الآن فقد صار ذلك من الماضي، ولم يُحِسَّ تورلس بنبع السعادة إلا بعد أن نضب معينها.

في هذه الفترة زالت عن خطاباته كل آثار العواطف الجياشة، وحلَّت محلَّها تفاصيل حياته اليومية المعتادة في المدرسة وأحوال زملائه الجُدد. إلا أن تورلس أحسَّ بمشاعر الفقر والحرمان كمثل شجيرة تعيش أول شتاء لها بعد أن جُرِّدت من أوراقها.

أما والداه فكانا سعيدَيْن؛ كانا يُحبّانه حبًّا جَمًّا، حبًّا جامحًا لا يعرف حدودًا. وفي كل مرة يغادر فيها الصبي، عائدًا إلى المدرسة بعد انتهاء الإجازة، لم تكن السيدة تورلس ترى منزلها سوى مكانًا مهجورًا مُقفِرًا، وبعد مرور أيام قلائل من زيارته تطوف غرف المنزل والدموع تفيض من عينيها، تعانق شيئًا هناك أو غرضًا هناك سبق وأن وقعت عليه عينا الصبي أو لامسته كفَّاه. كاد قلب الوالدين يتفطَّر حزنًا على مفارقة الصبي.

كانت الانفعالات الهوجاء والأسى العاطفي الجامح الذي تنضَح به خطاباته في أول الأمر وراء إصابة والديه بألم حادٍ وإرهاق أعصاب بالغ، لكن خِفَّة العقل المغموسة برُوح المرح والرضا، التي فاحت من خطاباته فيما بعدُ أثلجتْ صدرَيهما، حيث أحسَّا أن ابنهما قد تخطَّى أزمته النفسية بهذه الطريقة، فبذلا قصارى جُهدَيهما لتشجيعه.

لم يستشعر أحدهما أو كلاهما في الأمر عَرَضًا من أعراض التطوُّر الرُّوحي، بل وجَدا أنَّ حالة المعاناة، ثم حالة الشفاء التي تلَتها، ثمرة متوقعة للظروف التي مرَّ بها. ولم يطُف ببالهما قَطُّ أنَّ ما مرَّ به كان محاولته الأولى والفاشلة أيضًا ليتمكَّن من إطلاق العِنان لقواه الداخلية.

في تلك الأثناء كان الصبي تورلس ساخطًا على الحياة أَشَدَّ ما يكون السُّخط، وراح يخبط هنا وهناك خَبطَ عشواءَ، باحثًا عن نقطة ارتكاز رُوحي جديد يتَّكئ عليها. إلا أن هذه الفترة كانت لحظة فارقة في التهيئة للتطوُّر اللاحق الذي سيطرأ على حياته.

في أحد الأيام الْتحق بالمدرسة الأمير (هـ)، سليل واحدة من كبريات العائلات النبيلة، وأكثرها نفوذًا، وأكرمها أصلًا، وأشدِّها تمسُّكًا بالتقاليد المحافظة في تاريخ الإمبراطورية النمساوية.

كان بقية الأولاد قد رَأَوْا في عيني الولد الناعستَيْن شيئًا من السخافة والنعومة المُفتَعَلة، وكانت طريقته في هَزِّ خصرَه وهو واقف، وطريقة تحريك أصابعه وهو يتكلَّم، تخلق انطباعًا بأنه مخنَّث، فتثير ضَحِكهم.

لكن أشدَّ ما أثار سخريتهم هو أن الولد لم يأتِ إلى المدرسة في صُحبة والديه، بل في صحبة مُعلِّمه السابق، الذي كان حاصلًا على الدكتوراه في اللاهوت وعضوًا في طائفة دينية. لكن ذلك لم يمنع أنَّ هذا الولد قد ترك انطباعًا قويًّا في نفس تورلس.

ربما سبب ذلك أنه كان أميرًا من أمراء البلاط الملكي؛ لكنه، على أية حال، كان صنفًا جديدًا من صنوف البشر الذين يراهم في المدرسة. ويبدو أن الأمير كان ما يزال واقعًا في قبضة الصمت المَهيب الذي يلفُّ القلاع الريفية القديمة والصلوات الرُّوحية التي تُمارَس بانتظام.

كانت طريقته في المشي ناعمة رشيقة، مَشوبَة بالخجل، كما لو أنه يحاول الانكماش والتضاؤل، وهي عادة مكتسبة من اعتياد المشي في الغرف الواسعة الخاوية، حيث يبدو سكان القصور وكأنهم يتفادَوْن الاصطدام بعقبات غير مرئية إذ يمشُون.

وهكذا تحوَّلت معرفة تورلس بالأمير إلى مصدر من مصادر المتعة النفسية، فأخذتْ هذه الصداقة بيده إلى فَهم طبائع البشر، حيث يتعلَّم المرء كيف يتعرَّف إلى الآخر مِن طبقة صوته، وطريقة الْتقاط يده للأشياء، وجرس صمته، وكيفية شَغْل جسده للمكان، باختصار كيف نتعرف إلى طبيعة الآخرين عبر تلك الطريقة المراوغة العَصِية على الإمساك والمُميِّزة لسلوكهم في آنٍ واحد، تلك الطبيعة البشرية/الرُّوحية التي تكسو المادي والمنطوق مثلما يكسو اللَّحمُ العظامَ، فنقدر على استبطان الجوهر عبر فهم المظهر.

في هذه الفترة عاش تورلس كمن يعيش في عالم مثالي.

لم ينزعج من تديُّن صديقه الجديد، برغم أن تديُّن الأخير كان يمثِّل لتورلس، وهو المنحدر من أسرة برجوازية متحرِّرة الأفكار، شيئًا غريبًا تمامًا، على العكس تقبَّل تديُّنَ صديقه على حاله، ووجد في هذا التديُّن ميزة جديدة تُضاف إلى مزاياه، بل زاد من قيمة صديقه في عينيه، الذي رآه مختلفًا عنه كل الاختلاف، خارجًا عن نطاق أية مقارنة.

في صحبة الأمير الصغير كان يُحسُّ كما لو أنه قد ضلَّ طريقه إلى كنيسة صغيرة بعيدة قليلًا عن الطريق الذي اعتاد السير فيه. لكن فكرة عدم انتمائه إلى عالم الكنيسة تلاشت في غمرة المتعة الحسية التي تنتابه وهو يرى ضوء النهار متسللًا عبر نوافذ تلك الكنيسة، وعيناه تتابعان الزخارف الذهبية المتراكمة في رُوح هذا الإنسان، لدرجة أنه لم يعُد يرى إلا صورة مشوَّشة لها، كما لو أنَّ إصبعه كانت تتلمَّس، دون وعي، مسار نقوش الأرابيسك البديعة، التي كانت تشابكاتها مرسومة وفق أشدِّ القواعد الفنية غرابة.

واستمرّ الأمر هكذا حتى جاء اليوم الذي حدث فيه شرخ في العَلاقة بين الصديقين، وتحديدًا من تحت رأس سبب أحمق كما اعترف تورلس لنفسه لاحقًا.

كان السبب هو احتدام الجدل بين الاثنين حول المسائل الدينية، وكانت هذه اللحظة هي منشأ الخلاف. كما لو أن عقل تورلس، بمعزِل عن إرادته، قد شَنَّ هجومًا ضاريًا ضد الأمير الرقيق، فأمطر أفكاره الدينية بوابل من السخرية اللاذعة، مُقوِّضًا بوحشية الصَّرحَ الديني المزخرَف الذي كان المأوى الرُّوحي لصديقه. فافترق الصديقان ونفس كل واحد مملوءةً غضبًا من صاحبه، ومن حينها لم يتبادلا كلمة واحدة.

كان تورلس واعيًا في قرارة نفسه بأنه اقترف حماقة لا طائل من ورائها، وحدَّثه قلبه حديثًا غامضًا أن هذا المعيار العقلاني الفَجَّ الذي انتهجه قد دمَّر شيئًا رائعًا وعذبًا في غير أوانه. لكن الأمر كان خارجًا عن يده، كانت نفسه ما تزال مسكونة بشيء من الحنين إلى الماضي، لكنه يبدو أنه انغمس في تيار فكري آخر راح يحمله بعيدًا أكثر فأكثر.

وبعد فترة من الوقت غادر الأميرُ المدرسة بعدما أحسَّ بعدم راحة في المكان برُمَّته.

***

طوَّق الفراغُ والملَلُ حياة تورلس.

كان قد كبر قليلًا في تلك الأثناء، وبدأت علامات البلوغ الجسدي تظهر عليه ظهورًا تدريجيًّا خافِتَ الملامح. فشرع في عقد صداقات جديدة تتناغم مع نُموِّه الجسدي، كانت ذات أهمية قصوى فيما بعدُ، من بين الأصدقاء الذين تعرَّف عليهم على سبيل المثال: باينيبيرج ورايتينج وموتِي وهوفماير، وهي المجموعة التي صاحبت والديه إلى محطة القطارات.

الغريب أنَّ هؤلاء كانوا أسوأ تلامبذ الصفِّ الدراسي؛ صحيح أنهم كانوا يتمتعون بالذكاء الحاد وينحدرون من أصل كريم بطبيعة الحال، لكنهم كانوا أصحاب طباع همجية شرسة مشاكسة إلى حدِّ الفظاظة. وأغلب الظن أن انجذاب تورلس إلى هذه المجموعة راجع في الأساس إلى افتقاره إلى شخصية مستقلة، وهي السِّمَة التي كانت نقمة على حياته بعد قطع صداقته بالأمير.

بل الأرجح أن نعدَّ هذا الانجذاب امتدادًا للانعطافة التي طرأتْ على مسار حياته، لأنها كانت تعكس خجله من حساسيته العاطفية المسرفة في مقابل طبيعة رفاقه المتَّسِمَة بالقوَّة والصلابة والقدرة على مواجهة الحياة. ومن ثَمَّ أسلمَ تورلس قِيادَه تمامًا لتأثير هؤلاء الشباب.

أما تطوُّره الفكري فكان كالآتي: في تلك السنِّ دأب التلاميذ في المدرسة على قراءة نصوص «جوته» و«شيللر» و«شكسبير»، وربما طائفة من الكُتَّاب المعاصرين. فيُعاد اجترار هذه الأعمال، وهي نصف مهضومة، في شكل محاولات ساذَجة للكتابة أشبه بالمآسي الرومانية أو

القصائد مفرطة العاطفية، فتخرج على هيئة علامات ترقيم طويلة أشبه بقماش الدانتيل المخرَّم، وهي نصوص وإن بدت في حد ذاتها سخيفة، لكنها ذات قيمة لا تُقدَّر بثمن لو وضعنا في حسباننا مسار تطوُّر الشخصية.

حيث تساعد الأفكارُ المستلهَمة من نصوص الآخرين والمشاعرُ المستعارة من أعمالهم الشبابَ على الوصول إلى برِّ الأمان في تلك المرحلة الحرجة الشائكة من حياتهم، وتحديدًا عندما يتُوق الشاب إلى إثبات ذاته من دون أن يكون مُهيأً لذلك.

ولا فرق إن استمرَّ تأثير هذه الأفكار على الشاب أم تبدَّد أثره، ففي آخر الأمر يتصالح كل واحد مع ذاته في وقت لاحق من حياته، فمربط الفرس هو الفترة الانتقالية الحرجة في حياة كل إنسان.

لأننا لو وضعنا أمام عيني أي شاب مرآة ليرى تفاهة شخصيته، لمادَتْ الأرض من تحت قدميه ولانهار مثل مَن يسير نائمًا، ويستيقظ بَغتة ليرى أمامه هُوَّة شاسعة.

برغم ذلك كانت المدرسة مفتقرة إلى مهارة خَلق هذا الوهم، أو لنَقُل هذه الحيلة اللازمة لحَثِّ الشخصية الفردية على النمو والتطور. صحيح أن أرفُف مكتبة المدرسة كانت عامرة بالأعمال الكلاسيكية، لكنها كانت أعمالًا باعثة على الملل؛ مجلدات من الروايات العاطفية وقصص المحاربين الهَزْلية السمِجة.

انغمس تورلس في قراءة هذه الأعمال بعد أن مسَّه شغف عارم بعالم الكتب، في بعض الأحيان كان يقع على فكرة تافهة في رواية هنا أو هناك فتشغل باله لبرهة من الوقت، لكنها لا تؤثِّر تأثيرًا حقيقيًّا في شخصيته، فأحسَّ أنه لا يتمتع بشخصية مستقلَّة من الأساس.

وتحت تأثير هذه القراءات بدأ تورلس يرسل قلمَه، محاولًا كتابة قصة قصيرة أو ملحمة شعرية رومانسية. وفي غمرة تأثُّره بلواعج الغرام التي يقع فيها أبطاله، كانت وجنتاه تتورَّدان، ودقات قلبه تتسارع، وعيناه تسطعان بلمعة قوية.

لكن كل هذا كان ينتهي حالما يضع قلمه جانبًا، بمعنى أنَّ عقله لم يكن يتوقَّد إلا عندما يكون قيد الحركة. وهذا هو السبب في أنه كان قادرًا على كتابة قصة أو نظم قصيدة حال طُلِب منه ذلك، وهو ما كان يزعجه، إلا أنه لم يحمل الكتابة على محمل الجِد، ولم يجد طائلًا في شغل نفسه بالأمر.

لم ينعكس شيء من كتابة تورلس على شخصيته، والعكس صحيح، لم ينعكس شيء من شخصيته على محاولاته في الكتابة، ولم يكن قادرًا على تجاوز مشاعر اللامبالاة والخمود إلى إدراك مشاعر حقيقية إلا في اللحظة التي يتعرَّض فيها لتأثير ظروف خارجة عن إرادته، شأنه شأن الممثِّل المَنوط به لعب دور ما.

وكانت هذه مجرد ردود أفعال مصدرها الدماغ وحده. فكل ما يراه المرء من جوانب شخصية إنسان، أو رُوحه، أو ملَمَح أو نبرة صوته، هي أشياء تبدو غير مهمة وعَرَضية مقارَنَةً بالأفكار والقرارات والأفعال، كل هذه الأشياء حَمَلت تورلس على الشعور بالارتباط بصديقه الأمير، بمعزلٍ عن أية اعتبارات عقلانية، وبدتْ بالنسبة إليه كشيء ضاع من يده إلى غير رجعة.

أما بالنسبة لأقرانه الجُدد، فكانوا يجدون سعادتهم في الرياضة والمُتَع الحِسّية، التي كانت تغنيهم عن الحاجة إلى العواطف التي يوفِّرها الأدب.

بحُكم تكوينه الذهني كان تورلس شغوفًا بعالم الأدب.

وقد جعلته طبيعة الحياة في المدرسة، التي لا تخلو في أغلب الأحيان من المشاحنات وتبادل اللكمات لو لزم الأمر، مُفرِط الحساسية إزاء السخرية المتوقَّعة من عواطفه الانفعالية المُستَلهمة من عوالم الكتب والأدب. وهكذا وجد نفسه مسكونة بشيء من البلبلة والاضطراب، شيء من العجز الداخلي الذي وقف حجر عَثْرة في طريق العثور على ذاته، فانضمَّ إلى صفوف أصدقائه الجدد بسبب انبهاره بشراستهم.

وبسبب طبيعة شخصيته الطموحة حاول تورلس من حين إلى آخر التفوُّقَ على أقرانه من حيث الجُموح والشراسة، لكنه كان يقف في كل مرة في منتصف الطريق ولا يواصل، فصار مَثار سخريتهم واستهزائهم، فحزَّ ذلك في نفسه.

لم تكُن هذه الفترة الحرِجة من حياته إلا جُهدًا دَءوبًا لمحاكاة أقرانه الخشِنين الفائرين بفحولة الشباب، بينما بقي تورلس في دخيلة نفسه غير مبالٍ بهذه المسائل.

وكلما قَدِم والداه لزيارته وجدَاه شارد الذهن، غارقًا في الخجل، متملِّصًا من كل معانقة حانية من أمِّه بذريعة مختلفة. واقع الأمر أنه كان يريد الارتماء في أحضانها، لكن الخَجل كان يمنعه كما لو أن أنظار أقرانه مصوَّبة عليه، فتَقبَّل والداه الأمر على اعتبار أنَّه الخجل المعهود في الصبيان في طور المراهقة.

بعد الظهر ظهرت العصابة الصاخبة. لعِبوا الورق وأكلوا وشربوا وتبادلوا النِّكات الساخرة عن المدرسين، ثم دخنوا السجائر التي جلَبها المستشار في زيارته من عاصمة الإمبراطورية، وكانت هذه الرُّوح المرِحة تُشيع السعادة والهدوء في قلب الوالدين، اللذين لم يكونا على معرفة بأنَّ تورلس كان يمرُّ بظروف مختلفة تمامًا، وعلى الأخص في الفترة

الأخيرة حيث تفاقمت معاناته. كانت تمُرُّ عليه لحظات يستولي عليه فيها شعور بعدم الاكتراث بالمدرسة وزملائه، انحلَّتْ رمانة الميزان الرابطة بين اهتماماته اليومية، وتشظَّتْ ساعات حياته بلا رابط يربطها.

وفي أحيان كثيرة كان يجلس لساعات طويلة منطويًا على نفسه، مستغرقًا في أفكار كئيبة.

***

مثل المرات السابقة لم تستمرَّ زيارة والديه هذه المرة إلا يومين.

أكلوا، دخَّنوا، خرجوا في نزهة خلوية، ثم حان موعد انطلاق القطار السريع الذي سيُقِلُّ الأبوين عائدًا إلى العاصمة. أعلن صرير خفيف لقضبان السكة الحديدية عن دُنُوِّ القطار، ودوَّى رنين أجراس محطة القطارات حتى بدا في أذني السيدة تورلس وكأنه لا يريد أن ينقطع.

- «حسنًا... عزيزي باينيبِيرج، هلَّا وعدتني بألا يغيب ابني عن بصرِك؟»

قال المستشار تورلس، الذي لجأ إلى الصبي، البارون باينيبِيرج، وهو زميل دراسة طويل القامة، ذو عظام وجه ناتئة، وأذنان بارزتان، وعينان مُعبِّرتان ثاقبتان.

- «على أي حال...»

تابع السيد تورلس كلامه مخاطبًا بقية الأولاد الواقفين: «على أي حال، من فضلكم أطْلعوني على الفور لو وقع أي مكروه لابني».

امتقع وجه الفتى تورلس حين سمع بهذه الوصاية المفروضة عليه، بينما حانت من باينيبيرج ابتسامة خبيثة لا تخلو من شماتة. أثارت هذه الكلمة حَنَقًا لا حدَّ له في نفسه، فبادرَ والدَه بالكلام قائلًا: «بابا... ولكن أي مكروه يمكن أي يقع لي؟».

قالها برغم اعتياده على كلمات الرعاية المُفرِطة في كل مرة يودّع فيها والديه. في تلك الأثناء دقَّ التلامذة الآخرون على كعوبهم، حاملين سيوفهم الأنيقة إلى جانبهم بحزم، ثم أضاف المستشار: «لا أحد يعرف أبدًا ما الذي قد يحدث، وفكرة إخباري فورًا بأي شيء يقع هي مَبعث طمأنينة كبيرة؛ فقد لا تكون في وضع يسمح لك بأن تكتبَ إليَّ وتخبرني».

تهيَّأ القطار للانطلاق. عانق المستشار تورلس ابنه، بينما ضغطت السيدة تورلس الحجاب الذي تضعه فوق وجهها لإخفاء دموعها، وتناوب الرفاق كلماتِ الشكر، ثم أغلقَ المحصِّل باب عربة القطار.

مرة أخرى راح الزوجان ينظران إلى الواجهة الخلفية الشاهقة الكئيبة لمبنى المدرسة الرئيسي والسور الطويل المَهيب، الذي يطوِّق المتنزَّه. على اليمين واليسار لم تكن هناك سوى بضعة حقول رمادية بنية وبعض أشجار الفاكهة.

***

في غضون ذلك كان الشباب قد غادروا المحطة، فمشَوْا على جانبي الطريق في صفين، الواحد تلو الآخر لتجنُّب ذرَّات الغبار الكثيفة المتماسكة، ثم شقُّوا طريقهم باتجاه المدينة دون أن يتبادلوا كلمة تقريبًا. كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة وجوُّ الحقول يزداد برودة وقتامة، وكأنه نذير بدخول الليل.

عندها اغتمَّ تورلس.

ربما كان سبب غمِّه رحيل والديه، وربما كان سببه جو الكآبة المنفِّرة الباردة، التي تخنق الطبيعة المحيطة وتطمس ملامح الأشياء الواقعة على مرمى حجر منه، لتصبغها بصبغة كالحة ثقيلة. كان جوُّ اللامبالاة المُقبِض الذي غمر أرجاء المكان في فترة ما بعد الظهيرة، يزحف عبر السهول،

ومن ورائه يزحف الضباب مثل أثرِ سائل دبِق، ليغشى الحقول المحروثة حديثًا وحقول البنجر الرمادية. استطاع تورلس الإحساس بكل هذا من دون أن ينظر يمينًا ولا شمالًا. اقتفى تورلس أثر أقدام زميله المطبوعة فوق الغبار خطوة بخطوة، وكانت خطواته ترجمة أمينة لشعوره، كما لو أن قيدًا حديديًّا يعتصره ويُحكم خناقه على حياته كلها ويُجبره على المُضِي قُدُمًا فوق هذا الخط المستقيم، وفوق هذا الشريط الضيق المرسوم فوق الغبار.

توقَّف الأولاد عند مفترق طرق، حينما ظهر طريقٌ آخر متفرِّع من بقعة دائرية صغيرة من الأرض، ولاحتْ أمامهم لافتة خشبية مهترِئة على وشك السقوط، فبدا الخطُّ المستقيم الذي كان يمشي فوقه تورلس، مثل صرخة يائسة تمزِّق ضلوعه.

تابع الأولاد مسيرهم. فكَّر تورلس في والديه، في معارفه وفي الحياة.

كان هذا هو وقت ارتداء الملابس للخروج مع رفاق، أو وقت الذهاب إلى المسرح، ثم الانطلاق إلى مطعم والاستماع إلى عزف الفرقة الموسيقية، أو وقت التردُّد إلى المقاهي، أو تكوين صداقة جديدة، أو الانغماس في مغامرة عاطفية تحيي آمال المرء حتى مطلع الفجر.

تدور عجلة الدنيا دورة مذهلة لتُريكَ على الدوام أشياء جديدة لم تكن لتخطُر لك على بال.

زفَر تورلس زفرة حارة وهو يتأمَّل تلك الأفكار. وكلما اقترب خُطوة من المدرسة انقبض قلبه، بل بدا له وكأنَّ قَرْع أجراس المدرسة يصافح أذنيه، ولم يكن هناك شيء في الدنيا يفزعه أكثر من قرع جرس المدرسة، وهي تعلن انتهاء اليوم الدراسي، وكأنها سِكين مسنونة متوحشة ماضية إليه.

ها هو لم يجرّب شيئًا جديدًا، وها هي حياته تمضي في حلقة مفرغة من الرتابة واللامبالاة، لكن قرع جرس المدرسة كان يضفي نكهة السخرية إلى مذاق اللامبالاة، ويُذكي في نفسه مشاعر السُّخط الأعمى على نفسه وعلى قَدَره وعلى يوم آخر من حياته دُفن في الثرى.

من الآن فصاعدًا لن تستطيع تجربة شيء... في خلال الاثنتي عشرة ساعة لن ترى شيئًا جديدًا، في خلال الاثنتي عشرة ساعة التالية أنتَ كالأموات.

كانت الكلمات السابقة هي رسالة جرس المدرسة.

***

لم تغادر هذه الأفكار الكئيبة رأسَ تورلس إلا عندما شارَف رفاقه على أول المنازل المأهولة في هذه البقعة النائية، وكانت عبارة عن بنايات منخفضة الأسقف كالأكواخ.

تملّكه الفضول فجأة فرفع رأسه إلى الأعلى، متطلعًا باهتمام إلى الغرف المغمورة بالدخان وسط المباني الصغيرة القذرة، ورفاقه يمرُّون إلى جوارها. أمام أغلب البيوت رأى نساء يقفْنَ وهنَّ يرتدينَ مَرَايل وقمصانًا خشِنة، بأقدام قذرة مفلطحة وأذرع سمراء عارية. وكانت النساء الأصغر سنًّا والأشدَّ امتلاءً بالأنوثة يطلقن النِّكات البذيئة بلهجة سلافية واضحة.

رحن يتغامزنَ ويسخرنَ من «الفتيان أولاد العائلات الراقية»، فتطلق إحداهنَّ آهة قوية وقِحة وهي تفرك ثدييها عند مرورهم، أو تصفع فخِذها ردًّا على كلمة سباب بذيئة أُطلِقت على سبيل السخرية. بينما اكتفَت الأخريات بالتحديق بجِدّية مشوبة بالغضب إلى الشباب المهرولين، بمجرد أن ظهر فلاح بمحض المصادفة، وابتسم ابتسامة خَجلى، نصفها مضطرب ونصفها الثاني حسَن النيَّة.

لكن تورلس لم يشاطر أصدقائه سلوكهم الصارخ بفَورة البلوغ الجنسي. ولا شكَّ أن سبب ذلك يعود، جزئيًّا، إلى خجله من الكلام في هذه الأمور على عادة أغلب الصبيان تقريبًا، لكن السبب الجوهري راجع إلى طبيعته المتفردة في الإحساس بالمسائل الحسِّية، كانت طبيعة أكثر ميلًا إلى الخفاء وأشدَّ إغراقًا في القوة والغموض من طبيعة أقرانه، وأصعب في الكشف عن نفسها.

كان الآخرون يعاملون النساء معاملة فاحشة لا تعرف الحياء، وكان سلوكهم نابعًا من الحذلقة وحب الظهور بمظهر الرجال، وليس نابعًا من إلحاح رغبة حقيقية، بينما كانت رُوح الفتى تورلس قليل الكلام، رُوحًا مضطربة، تشعل فيها رغبة حقيقية في ممارسة الفُحش على أصوله.

كان ينظر بعينين فضوليتيْن إلى البيوت عبر النوافذ الصغيرة والمداخل الضيقة المتعرِّجة، وكان يشعر كما لو أن شبكة من النيران المضطرمة تتراقص أمام عينيه، فيرى أطفالًا شبه عراة يتمرَّغون في الوحل الذي يغطِّي الأفنية، ويلمح انحسار تنورة امرأة عاملة، كاشفةً عن بطن ركبتيها، أو يرى نهدًا عامرًا رَجراجًا ضاغطًا بقوة على ثنايا القماش. بدا له وكأنَّ هذه المشاهد كلها تجري في بيئة مغايرة تمامًا، بيئة شَبَقية ثقيلة الوطأة، وكأن الهواء المنبَعِث من أروقة البيوت ثقيل وخامل، فيستنشقه تورلس بشوق قوي.

راح يفكِّر في اللوحات القديمة التي كان يراها في المتاحف، ولم يكن يفهم مغزاها. كان ينتظرُ شيئًا مما رآه مثلما كان ينتظر شيئًا من اللوحات التي رآها آنذاك. لكن ذلك لم يحدث.

ولكنْ شيء مثل ماذا؟

كان ينتظر شيئًا مباغتًا لم يسبق أن رأته عيناه قط، شيئًا ماجنًا لم يدر بخلده أن يراه، شيئًا تفوح منه نار الشهوانية البهيمية. شيء يُمسك تورلس بمخالبه ويقتلع عينيه؛ تجرِبة ينبغي أن تكون لها عَلاقة بالثياب القذرة لأولئك النسوة، تجرِبة مرتبطة بأيديهن الخشنة وغُرَفهنَّ الفقيرة، مع... مع التمرُّغ في الوحل الذي يغطي أفنية البيوت.

لا... لا؛ ها هو شعوره بالشبكة النارية المتَّقِدة أمام عينيه يزداد الآن، شبكة تعجز الكلمات عن التعبير عنها، بل إن الكلمات كانت تفسد هذه المشاعر.

كانت مشاعره في تلك اللحظة مكتومة، مغشيَّة بالصمت؛ غُصَّة في الحلق، فكرة عابرة لا تتبلور إلا عندما تُصاغ بالكلمات، بل حتى صوغها في كلمات لم يكن يصفها حق وصفها، كما هو الحال عندما تتسع الرؤية فلا يعود المرء قادرًا على مشاهدة التفاصيل مشاهدةً أوضح وحسب، بل يرى كذلك الأشياء المخفيَّة، التي تبقى أشياء يُخجَل منها.

- «ما الأمر؟ هل يعاني طفلُنا من مشاعر الحنين إلى الوطن؟»

باغَتَه فون رايتينج بسؤال ساخر، بعد أن لاحظَ إغراق صاحبه في صمت طويل وبانت على ملامحه الكآبة. كان رايتينج فتى يافعًا، طويل القامة، يكبر تورلس بسنتيْن، فابتسمَ تورلس ابتسامة صفراء مرتبكة، وأحسَّ وكأنَّ صديقه الخبيث فون رايتينج يسترِق السمع إلى ما يجيش في صدره، لكنه لزمَ الصمت ولم يُجب.

في تلك الأثناء كان الفِتيان قد وصلوا إلى ساحة الكنيسة في البلدة الصغيرة، التي كانت مربعة الشكل، ومرصوفة بالحجارة العريضة، وعندها افترقوا. لم يشأ تورلس ولا باينيبِرج الرجوع في التو إلى المدرسة، بينما لم يحصل بقية الرفاق على إذن بالتأخُّر عن المواعيد الرسمية، فعادوا.

(2)

قصد الاثنان متجرًا لبيع المخبوزات.

جلسا إلى طاولة صغيرة بيضوية السطح، إلى جوار نافذة مُطلَّة على الحديقة، وفوق رأسيهما مصباح غازي تئزُّ شعلته بهدوء داخل جدران زجاجية حليبية اللون.

استسلما للراحة، وراحا يُعيدان مَلء كؤوس الشراب وتدخين السجائر، بينما يتناولان شيئًا من المخبوزات، مستمتعَيْن بلذَّة كونهما رواد المكان الوحيدَيْن. خلا المكان من الزبائن، اللهم إلا رجلًا يجلس منعزلًا في طرف قصي وأمامه كأس من النبيذ.

كان الصمت يلفُّ مدخل المتجر، بل حتى الخبَّازة العجوز البدينة بدت خلف طاولة على وشك الإغفاء. بذهن شارد ألقى تورلس نظرة عبر نافذة المتجر إلى الحديقة الخاوية، حيث الظلام يُسدل خيوطه على المكان تدريجيًّا. بينما راح باينيبيرج يتحدث كعادته عن الهند، حيث عمل والده، الجنرال بالجيش، في صفوف الجيش الملكي البريطاني عندما كان ضابطًا شابًّا.

حكى عن والده الذي لم يكتف –جريًا على عادة أغلب الأوروبيين– بجلب المنحوتات الخشبية والأقمشة والتماثيل الصغيرة، بل أدرك شيئًا من الأطياف العجائبية الغامضة لرُوحانية العقيدة البوذية وتَشرَّب منها، فنقل الأبُ كل ما عرَفه وكل ما اكتسبه من قراءاته اللاحقة إلى ابنه، برغم حداثة سنِّ ابنه وقتها. كانت عادة القراءة عنده ذات طابع مميَّز.

كان الأب ضابطًا في سلاح الفرسان، ولم يكن من طينة الرجال الذين تستهويهم الكتب على وجه العموم، فكان يزدري الروايات والأعمال الفلسفية سواء بسواء. ولو حدث وقرأ، فلم يكن يريد إرهاق رأسه بالتفكير في الآراء والمسائل الخلافية، بل الانغماس، بمجرد فتح صفحات الكتاب، في أسرار العلوم الباطنية المبثوثة في الكتب، مثل مَن يجتاز بوابة سرية. كان يتحتَّم على الكتب التي يقرؤها أن تكون إشارة إلى الانضمام إلى طائفة دينية سرية، وضمانًا لوقوع وحي مُفارِق للطبيعة. ولم يجد ضالته إلا في كتب الحكمة الهندية، التي لم يرها مجرد كتب عادية، بل بالأحرى وحْيًا سماويًّا، شيئًا حقيقيًّا مثله كمثل أمهات كتب الخيمياء والسحر في القرون الوسطى.

دأب هذا الرجل المفعم بالنشاط والحيوية، والمحافظ على النهوض بواجباته بعناية، والمواظب على امتطاء صهوة جياده الثلاثة كل يوم تقريبًا، دأب على الاختلاء بنفسه في صحبة هذه الكتب عندما يحلُّ المساء. فكان يختار فقرة كيفما اتفق ويتدبَّر معانيها، مؤمِّلًا أن تكشف له هذا اليوم عن مغزاها الدفين. ولم يشعر بخيبة الأمل قَطُّ مهما اضْطُرَّ لأن يدركَ المرة تلو الأخرى، أنه ما يزال على عتبة المعبد، وأنه لم يدخل إلى قُدس أقداسه بعدُ.

وهكذا لم تتوقَّف الأسرار الغامضة عن مداعبة رأس هذا الرجل العاشق للطبيعة، الذي لوَّحت الشمس بشَرتَه. وكان اقتناعه أنَّه على أعتاب كشف أسرارٍ كبرى مساءَ كلِّ ليلة، يمنحه شعورًا بالتفوق المشوب بالحذر من عواقب الأمور.

كانت نظراته رزينة راسخة، أبعد ما تكون عن النظرات الحالمة، وقد شكَّلتْ هذه النظرات عاداته في قراءة الكتب التي كان مستحيلًا فيها تحريك الكلمات عن مواضعها من دون الإخلال بالمعنى الباطني لها، تلك الكتب التي تستلزم التدبُّر الدقيق المنضبط لكل جملة ومعناها الظاهر والباطن. إلا أن ذلك لم يمنع أن خواطره كانت تنزلق من حين لآخر إلى الوقوع في شيء من الكآبة الخفيفة.

وكان ذلك يحدث عندما تنصرف أفكاره إلى العبادات السرية المقترنة بأصول النصوص التي بين يديه، وإلى المعجزات التي خرجت منها، وإلى آلاف البشر الذين مسَّتهم المعجزات، وكان يشعر بأُخُوَّة حقيقية تربطه بهم برغم بُعد الشُّقَّة، بينما كان يُضمِر الازدراء لدائرة البشر المحيطين به، الذين رأى كل تفصيلة من تفاصيل حياتهم، فكان يتملَّكه الشعور بالإحباط في تلك اللحظات، فتتوتَّر أعصابه كلما فكَّر أن حياته محكوم عليها بأن تظلَّ بعيدة عن منابع هذه القوى الرُّوحانية المقدَّسة، وأن جهوده ستبوء بالفشل وهي تواجه الظروف المعاكسة.

برغم ذلك، كان حالَمَا يجلس لبرهة من الوقت أمام هذه الكتب وقد ركِبه الهم والغمَّ، يشعر بتغيُّر فريد يطرأ على مزاجه. لم تكن وطأة اكتئابه تخفُّ حدتها، بل العكس كان حُزنه يزداد، لكنه لم يعد يُسرِف في إرهاق أعصابه. انتابته مشاعر الهجران وضلال الطريق كما لم يشعر من قبلُ، لكن هذه الكآبة لم تكُن تخلو من متعة خافتة، ومن زهوٍ بفعل شيء مغاير؛ عبادة إله أُسِيء فَهمه. بعدها وللحظة خاطفة كانت عيناه تسطعان ببريق لا يختلف عن بريق من مسَّته النشوة الدينية.

***

تحدَّث باينيبيرج بنبرة مُجهَدة. كان الولدُ على شاكلة أبيه؛ صورة مُكبَّرة ومشوَّهة من والده غريب الأطوار، الذي ورِثَ عنه كل خصاله. فتحوَّل ما كان عند أبيه مجرد رغبة مكتومة، إلى أمل يحلِّق في سماوات الخيال عند باينيبيرج الابن.

تحوَّلتْ خصوصية أبيه –التي ربما كانت تعني للأب في الأساس الملاذَ الآمن الذي تختبئ فيه فردية الإنسان، وهو الملاذ الذي يجدر بكل إنسان أن يخلقه لنفسه، حتى ولو كان اختيار نوع الملابس بغية تمييزه عن غيره– إلى إيمان راسخ بالقدرة على إحكام السيطرة على الأمور باستخدام قُوى رُوحانية خوارقية.

لم تكن هذه الأفكار غريبة عن تورلس، لكنه كان يمرُّ عليها مرور الكرام، من دون أن تترك أثرًا في نفسه. تحوَّل بصرُ تورلس قليلًا عن النافذة ليراقب باينيبيرج وهو يلفُّ سيجارته، فداهمه مجددًا شعور النفور من رفيقه، وهو الشعور الذي كان يساوره من وقت إلى آخر.

اليدان الناحلتان الداكنتان اللتان كانتا تلفَّان ورق التبغ بمهارة لم تخلُوَا من جمال واضح، الأصابع الرقيقة والأظافر المُقلَّمة بشكل بيضوي توحي بمظهر متميِّز، وهو المظهر الذي كان يَصدُق على العينين البُنِّيَّتين الداكنتَيْن مثلما يَصدُق على جسده الضامر كله. يضاف إلى ذلك بالطبع أذناه البارزتان بقوَّة، والوجه الصغير الطافح بملامح غير متناسقة، كانت الهيئة العامة لرأسه تُذكِّر برأس الخفاش. برغم ذلك فقد شَعَر تورلس شعورًا قويًّا وهو يقارن بين هذه الملامح الفردية كافة، بأنَّ ما أزعجه بوجه خاص ملامح صديقه الفريدة، لا المنفِّرة.

فلم يلفتْ نظرَ تورلس هزالُ جسد رفيقه، برغم أنَّ باينيبيرج نفسه اعتاد أن يمدح رشاقة سيقان عدَّاء هوميروس* باعتبارها المثل الأعلى في العَدْو. حتى ذلك الحين لم يخطر لتورلس قط أن يستفسر من صديقه عن كلامه، ولم يجُلْ بخاطره عقد أية مقارنة بين هذا وذاك!

كان يَوَدُّ أن يحدِّق في عينَيْ صديقه بثبات، لكنه لو فعل ذلك، فلا بدَّ أن صاحبه سيلاحظ وسيخوض في حديث غيره. وبينما كان نصف ذهنه مستغرقًا في تأمُّل صديقه، ونصفه الآخر مستغرقًا في إكمال الصورة من خياله، وقع في خاطره الاختلاف!

ولو أنَّه حاول تخيُّل هذا الجسم الناحل مجرَّدًا من الملابس، لانتفَتْ عنه سمات حسن القامة والرشاقة وحلَّتْ محلها اضطراب الحركات وتشوُّه الأطراف وتقوُّس العمود الفِقَري مثل التصاوير العتيقة لشهداء الإيمان أو الرسوم الجروتيسكية التي يمكننا رؤيتها في معارض الفنانين. حتى يدا باينيبيرج اللتين يفترض أن تجترحا حركات أنيقة منضبطة على خلفية تربيته الرفيعة، لم يستطع تورلس تخيُّلها إلا مجرد يديْن تتحركان بعصبية واضطراب.

وهكذا تحولت أجمل سمات باينيبيرج إلى مثار اشمئزاز تورلس ونفوره.

كانت يدا الأول تفيضان بشيء من الفُحش والبذاءة، نعم كان هذا هو التشبيه الملائم، وكانت هذه البذاءة تَصدُق أيضًا على حركات جسده الملتوية. وبدا لتورلس أنَّ هذه البذاءة متركِّزة في يديه، وأحسَّ كأنهما تُطلِقان إشارة تحذير من أي تلامُس جسدي بينهما؛ إشارة اقشعرَّ لها

---

* الإشارة إلى ملحمة الإلياذة، والعدَّاء المعروف أرسيللوب أيدومين الذي لم يكن يُباريه في سرعة عَدْوه أحد (المترجم).

جلد تورلس قرفًا واشمئزازًا. أثارت هذه الفكرة في نفسه شيئًا من الدهشة والذعر، وكان سبب هذا الشعور هو أن فكرةً حِسِّيَّة مثيرة داهمت عقله للمرة الثانية في هذا اليوم، ومن دون رابط وجيه.

الْتقط باينيبيرج جريدة من فوق الطاولة، فانتهز تورلس الفرصة ليدقِّقَ النظر في ملامح صاحبه، لكنه إذ فعل ذلك لم يجد ما يسوِّغ مرور هذه الأفكار المنفِّرة برأسه. وبرغم افتقار مخاوفه إلى أي مبرِّر معقول تنامى شعوره بالانقباض.

لم يكُن قد مضى على جلوسهما معًا أكثر من عشر دقائق، لكن نفوره من باينيبيرج بلغ ذروته، فتبلورت للمرة الأولى ملامح الحالة المزاجية وطبيعة العَلاقة بين الاثنين، وبدا أن شعور انعدام الثقة هو الحاكم لعَلاقتهما. بلغ التوتُّر أشُدَّه، على طرف لسان تورلس احتشدتْ كلمات السِّباب التي أراد أن يكيلها له، ولم يجد الكلمات الملائمة، انزعج وشعر بالخجل كما لو أنَّ أمرًا وقع بالفعل بين الاثنين، وبدأت أصابعه تنقُر باضطراب فوق سطح الطاولة.

***

أخيرًا، ولأجل الإفلات من قبضة هذه الحالة الغريبة أطلَّ برأسه من النافذة مجددًا. عندها رفع ياينيبيرج رأسه من الجريدة، وعاد ليدفنها مجددًا ويقرأ بضعة أسطر، ثم وضع الجريدة جانبًا وتثاءب. ولما كُسر حاجز الصمت بينهما خفَّتْ حدة التوتر الذي كان ضاغطًا على تورلس. خرجت بعض الكلمات العشوائية لمحو أثر هذه اللحظة الخانقة.

كانت صحوة مفاجئة، سرعان ما أعقبتها مشاعر اللامبالاة القديمة.

- «كم تبقَّى لدينا من الوقت؟» سأل تورلس.

- «ساعتان ونصف».

رفع تورلس كتفيه وارتعد، إذ أحسَّ بانقباض يشلُّ أطرافه بسبب اقتراب اليوم الدراسي ومخالطة زملائه، فتلاشى من قلبه شعوره النفور من باينيبيرج.

- «ماذا سنأكل اليوم على العشاء؟»
- «لا أعرف».
- «وماذا عن حصص الغد؟»
- «رياضيات».
- «هل عندنا أشياء يجب الاستعداد لها؟»
- «بعض النظريات الجديدة في علم المثلثات، لكنك لن تواجه أية مشكلة، ليست معقدة».
- «وبعدها؟»
- «تربية دينية».
- «تربية دينية؟ أوه، سيكون هذا شائقًا! أتعرف: لو كنتُ في مزاج معتدل لكان من السهل عليَّ إثبات أنَّ فرضية اثنين زائد اثنين تساوي خمسة أيسر من إثباث فرضية وجود الله».

رمقَه باينيبيرج بنظرة متهكمة وقال: «أنتَ غريب الأطوار، عندي انطباع أن حصة التربية الدينية تروق لك، على الأقل فيما ألحظه في عينيك من فضول».

- «ولِمَ لا؟ أليس الأمر مبهرًا؟»
- «ثمة نقطة نصل إليها فلا يعود المرء يعرف هل ما يُقال محض كذب أم أن الحكايات المختلَقة أشدُّ صدقًا منه هو شخصيًّا».
- «وكيف ذلك؟».

telegram @
yasmeenbook

- «لا تأخذ كلامي حرفيًّا. صحيح أن من أمامنا لا يفلح دائمًا في خداعنا، ولكن ذلك لا يمنع أن أقوال المخادع لا تخلو من صدق في بعض الأحيان، فلا نملك إلا أن نقف مشدوهين أمام كلامه، كنا لو أننا وقعنا في أسر أفكاره».
- «حسنًا، ولكن ما الشائق في الأمر؟».
- «هذا الشعور تحديدًا، الأمر مثله كمثل هِزَّة تعصف برأسك، دَوَار ورِعدة»
- «بحقك، هذا عبث وشعوذة»
- «لم أقل خلاف ذلك، وهذا تحديدًا ما يثير اهتمامي».
- «نوع من الرياضة لتدريب الذهن، لكن بلا فائدة حقيقية».
- «لا».

قالها تورلس، وهو ينظر إلى الحديقة. من وراء ظهره، وعلى مسافة بعيدة تردَّد أزيز ألسنة لهب المصابيح الغازية.

كان تورلس يلاحق شعورًا مقبِضًا يتصاعد في أعماقه مثل تصاعد الضباب.

- «أقول نعم ليس له فائدة. أوافقكَ الرأي، ولكن يتحتم ألا نخبر أنفسنا بذلك، بالمناسبة قل لي: وأي شيء ذو فائدة من بين ما نفعله في المدرسة من الصباح حتى المساء؟ ما الذي نجنيه من وراء كل ذلك؟ أقصد شيئًا ذا قيمة بالنسبة إليك. أتفهم قصدي؟ عندما يحل المساء تعرف أن يومًا آخر قد انقضى، وأنك تعلَّمتَ الكثير، وأنك وفَّيتَ متطلبات المنهج الدراسي، لكنك تخرج من كل ذلك خالي الوفاض، أعنى على المستوى الرُّوحي، تشعر أنَّك ما تزال على لحم بطنك، لو جاز لي التعبير...»

تمتم باينيبيرج ببعض الكلمات حول الاستعداد الذهني أو التمارين والرياضات الرُّوحية، التي لم يحِن أوانُ البَدء فيها بعدُ، ربما لاحقًا.

- «استعدادات؟ تمارين؟ لأجل ماذا؟ هل لديك معرفة يقينية بأي شيء؟ ربما يحدوك أملٌ في شيء ما، لكنه أمل مُعلَّق في الهواء. الأمر كالآتي: أنتَ في انتظار أَبَدي لوقوع شيء لا تعلم إلا أنه ينبغي انتظاره وحسبُ، هذا ممل للغاية»
- «نعم مملٌّ»

كررها باينيبيرج بعد أن مطَّ حروف الكلمة وأومأ برأسه.

واصل تورلس النظر إلى الحديقة، وأحسَّ أن في مقدوره الاستماع إلى صوت حفيف أوراق الأشجار الميتة والرياح تذروها. ثمَّ رانت لحظة سكون مطبق، تلك اللحظة التي تسبق حلول الظلام الدامس. لثوانٍ معدودات بدأت ملامح الأشكال الهائمة المندمجة في غسق الليل تنطمس، وبدأت ألوانها تتلاشي، وشعر تورلس كما لو أنَّ كل هذه الأشياء تحبس أنفاسها، فقال من دون الالتفات إلى صاحبه: «أتعرف يا باينيبيرج، لا تخلو ساعة الغسق من لحظات مميَّزة. في كل مرة أتأمَّل تلك الساعة تعاودني الذكرى نفسها. في يوم من أيام طفولتي المبكِّرة كنت ألعب في الغابة في مثل هذا التوقيت، ابتعدتُ عن المربِيَة ولم ألحظ غيابها، فظننتُ أنها قريبة مني. دفعني شيء ما للنظر إلى الأعلى، فشعرتُ أنني بمفردي. لفَّ المكان بغتة سكون مطبق. وعندما بدأت أجول ببصري في المكان شعرتُ أنَّ الأشجار تقف حولي في دائرة تراقبني، فأجهشتُ بالبكاء، شعرت أن الكبار تركوني وحيدًا في مَعِية مخلوقات هامدة لا رُوح فيها، أي نوع من الشعور كان هذا؟ ما برح هذا الشعور ينتابني حتى اليوم. وأي نوع من الصمت المباغت الذي كان أشبه بلغة لا نفقهها؟»

- «لا أعرف ما الذي تقصده، ولكن ما الذي يمنع أن تكون للأشياء لغتها الخاصة؟ هل في مقدور أحد الزعم بثقة أنَّ الأشياء ليس لها رُوح».

لم ينبس تورلس بكلمة، ولم تُرِحْ قلبه فكرة صديقه التأمُّلية.

بعد برهة قصيرة أضاف صديقه: «ولكن أخبرني لماذا تُحدِّق عبر النافذة هكذا باستمرار؟ ما الذي يأسِر انتباهك؟».

- «وأنا أيضًا أتساءل عمَّ يكون هذا الشيء».

واقع الأمر أن أفكاره قد طارت لتحطَّ رحالها على فكرة لم يجد في نفسه القدرة على الاعتراف بها. لم يُطِق تحمُّل أكثر من دقيقة من الأعصاب المشدودة وإصغاء السمع لمعرفة سِرّ ثقيل الوطأة واكتشاف جوانب خفية من الحياة. انتابته مشاعر الوحدة والوحشة، وهي المشاعر التي طالما راودته حين يُحمِّل نفسه فوق طاقتها. أدرك ألا قِبَل له بهذه التجربة، لذا هرعتْ أفكاره إلى البحث عن ملاذٍ آخر، ولئن كان هذا الملاذُ جزءًا من التجربة ذاتِها، لكنه قابع في الغرفة الخلفية، في حالة تربُّص وكُمون؛ كان هذا الملاذ اسمه العزلة.

في الحديقة المهجورة تراقصت ورقة شجر أمام النافذة المضاءة، ولمع على ظهرها خطٌّ شاحب في ظلام الليل، وبدا كما لو أنَّ ورقة الشجر تنسحب وترجع القهقرى كي تقفز قفزة واحدة إلى الأمام لتقف ساكنة بلا حراك أمام النافذة مثل حائط سدّ.

كان عالمًا قائمًا برأسه؛ جحافل الظلام التي داهمت الأرض مثل كتيبة من الأعداء السود، فأخذت تقتل الناس أو تطردهم أو تفعل أي فعل من شأنه محو كل أثر لهم من الوجود.

ويبدو أن تورلس اغتبط لهذه الخاطر، ففي مثل هذه اللحظة يغمُرُه شعور ببغضِ البشر، الكِبار والبالغين منهم. كان يبغضهم ساعة هبوط الظلام، اعتاد أن يطرد فكرة البشر عن ذهنه عندما يحين هذا الوقت. بدا له العالم حينها مثل بيت مُعتِم غير مأهول، وانقبض صدره حين فكَّر في حتمية الانتقال من غرفة إلى أخرى؛ غرف معتمة الإضاءة لا يدري ما تخفيه زواياها، فيمشي على أطراف أصابعه وهو يطأ عتباتها، غرف لا ينبغي أن تطأها أقدام شخص آخر سواه، ويظل متنقلًا بين غرفة وأخرى حتى يصل إلى غرفة بعينها، فيُغلَق عليه بابُها بغتة، ويجد نفسه وجهًا لوجه أمام قائدة كتيبة الأعداء السود.

في هذه اللحظة ستسقط أقفال الأبواب التي اجتازها، وستقف فوق الجدران أشباح الظلام مؤديةً دور الحراسة مثل الخِصيان، مُبقيةً الناس بعيدين عنه.

كان هذا هو نفس شعور الوحدة الذي ساوره يوم أن تركوه بمفرده مخذولًا في الغابة وأغرق في البكاء. كانت هذه الوحدة موسومة بطابع الجاذبية الأنثوية والوحشية اللاإنسانية في آنٍ واحد. تراءت له الوحدة على هيئة امرأة: أنفاسها كابوسٌ جاثم على صدره، ووجهها طامس لكل وجوه البشر، وحركات يديها قشعريرةٌ حادة تمزق أوصاله.

فَزِع لهذه الخيالات لعلمه بما تنطوي عليه من انحرافات خفية، وازداد فزعه حين فكَّر في عجزه عن الإفلات من قبضة هذه الخيالات. كانت هذه الخيالات تتحيَّن فرصة غرقه في التفكير الجادِّ الواضح لتستحوذ عليه. ربما يمكن القول إنها كانت ردَّ فعل تورلس على اللحظات التي تنتابه فيها أفكار عاطفية، وهي وإن كانت تتخمَّر في أعماق رُوحه، إلا أنها لم تكن مناسبة لمرحلته العُمرية الراهنة.

ينطوي كل طور من أطوار نموّ القوى الأخلاقية على نقطة معينة تضعف عندها الرُّوح عندما تمرُّ بتجربةٍ ستغدو فيما بعدُ أشدَّ تجاربها جرأة، وكأنَّ رُوح الإنسان تنشد الغوص أولًا لتضرب بجذورها عميقًا في التربة التي ستحملها لاحقًا، وهذا هو السبب في أن الشباب أصحاب المستقبل الواعد، سبق وأن مرُّوا بماضٍ طافح بالإذلال والإهانة.

كان إيثار تورلس لحالات مزاجية بعينها أول مؤشر ينبئ عن تطوُّره الرُّوحي، وهو ما تجلَّى لاحقًا فيما ظهَرَ عليه من القدرة على الدهشة. وفي وقت لاحق صار يتحلَّى بقدرة عجيبة؛ أحسَّ برَحِم ماسَّة تربطه ربطًا غير مفهوم ولا مبرر ولا قابل للتفسير بكل الأحداثِ والأشخاص والأشياء الواقعة في نطاق خبرته.

كانت هذه الرابطة تبدو مفهومة في عينيه، لكنها عَصِيَّة على الترجمة ترجمةً كاملة إلى ألفاظ وأفكار، إذ كان هناك على الدوام خط فاصل بين ما يقع له من أحداث وبين نفسه، بل كان ثمة خط فاصل بين أحاسيسه الداخلية وبين ذاته التائقة إلى فَهم هذه الأحاسيس. كان هذا الخط مثله كمثل أفق رغباتٍ يبتعد عنه كلما دنا تورلس منه.

وكلما اقتربتْ أفكاره من فَهم مشاعره وهضمها على نحو أفضل، وكلما اتضحت في عينيه، بدت له تلك المشاعر أشدَّ غرابة وتعذُّرًا على الفهم.

فأحسَّ أنَّها لم تعُد تبعد عنه، بل أنه هو الذي يبعُد عنها، برغم عجزه عن تبديد الوهم الذي كان يقول له إنه يدنو منها.

كان هذا التناقض العجيب، العصيُّ على الإمساك، عنصرًا جوهريًّا من عناصر تطوُّره الفكري، وبدا أنه يكاد يمزِّق رُوحه، وأنه سيبقى طويلًا المعضلةَ الأخطر التي تهدد حياته.

في الوقت الراهن لم تكن صراعاته الداخلية تتجلَّى إلا في هيئة نوبات متكررة من الإرهاق المفاجئ الذي يحلُّ بجسده، فتُصيبه بالذعر، مثلما انتابه هاجس محذِّر غامض المصدر مثلما جرى قبل بضع دقائق مع رفيقه.

كان يشعر حينها بأنه عاجز مكتوف الأيدي مثلُه كمثل رجل محبوس في سجن أو إنسان هَجَره البشر، وكان يحسُّ ببُعد الهُوَّة الفاصلة بينه وبين نفسه، وبينه وبين الآخرين، وودَّ لو صرخ صرخة مِلؤُها القُنوط والشعور بالخواء، لكنه كان ينأى بجانبه عن هذا الإنسان الجادِّ، المُترَع بالأمل، المُعذَّب، المُرهق القابع بداخله –مذعورًا من مشاعر الهِجران ومفتونًا في اللحظة ذاتها بدفء أنفاسها– ليرهف السمع إلى الأصوات الهامسة التي تمجِّد العزلة.

اقترح تورلس دفع الحساب من دون مقدمات، فأومأتْ عينا باينيبيرج بالموافقة، وكان تورلس يعرف طَبع رفيقه القديم. لم ترُقْ له موافقة باينيبيرج على دفع الفاتورة، فتضاعف بداخله شعور البغض ناحية رفيقه، وأحسَّ أن أقل رابطة تربطه بهذا الفتى تدنِّسه.

لكن شعوره الأخير لم يكن ليختلف عن بقية مشاعره، فالدَّنَس ما هو إلا شكل آخر من أشكال العزلة وجدار آخر من جدران العتمة.

سلك كلاهما طريقًا واحدًا من دون أن يتبادلا كلمة واحدة.

(3)

لا بد أن الدقائق الماضية قد شهِدت هطول أمطار خفيفة، حيث كان الهواء رَطبًا ثقيلًا، والضباب الملوَّن يرتعش حول فوانيس الإضاءة، والأرصفة تلمع في بعض الأماكن.

رفع تورلس السيف الذي كان يُصدِر قرقعة من أثر احتكاكه بالرصيف، مقرِّبًا إياه من جسمه، لكن صوت طقطقة كعب حذائه كان يبعث قشعريرة في جسده. لم يمض وقت طويل حتى صارت الأرض أكثر نعومة تحت أقدامهما. تركا وراءهما وسط المدينة، وشقَّا طريقهما عبر شوارع القرية الواسعة باتجاه النهر. كانت مياه النهر السوداء تتدفق ببطء، باعثة أصوات جَلَبة عميقة؛ إذ تنساب تحت الجسر الخشبي. لم يكن هناك سوى مصباح واحد مهشَّم مُغبر. وكان ضوء المصباح المتهدِّج بفعل هبوب الرياح يسقط بين الفينة والفينة على موجة من أمواج النهر الدافقة، وينكسر على ظهرها.

توقف باينيبيرج.

كانت الضفة المقابلة محفوفة بأشجار كثيفة، وانعطف الطريق بزاوية قائمة فوق الجسر، فبدت الضفة الأخرى مثل سور مجلَّل بالسواد عَصِي على الاختراق.

وبعد بحث دقيق عُثَر على طريق ضيِّق مدفون يقود إلى الأمام مباشرة. أخذا يمشيان، وكلما لامست ثيابهما شجيرات الغابة الكثيفة، تساقطت عليهما قطرات المطر.

وبعد برهة اضْطُرَّا إلى التوقُّف مجددًا وإشعال عود ثقاب. كان الصمت يلفُّ المكان، ولم يُسمع حتى خرير ماء النهر، ثم تناهى إلى سمعهما فجأةً صوت غامض متقطّع قادم من بعيد، أو شيء أشبه بصراخ مخلوق غير معروف الهُوِيَّة اخترق الأدغال مثلهما تمامًا. سارا ناحية مصدر الصوت، ثم توقَّفا، ثم تابعا المسير. مضت نحو ربع ساعة قبل أن يتنفسا الصُّعَداء بعد أن استطاعا التمييز بين صوت الضوضاء وأنغام آلة الأكورديون.

خفَّت كثافة الأشجار. مَشَيا بضع خطوات حتى وجدا نفسيهما واقفيْن على حافَة حفرة واسعة، ينتصب في وسطها مبنى ضخم مكوَّن من طابقيْن. كان مبنى الحمامات العمومية القديم. وكان سُكان البلدة والمزارعون المحليون يقصدونه للاستشفاء، لكنه بات مهجورًا منذ سنوات طويلة. أما الطابق الأرضي فقد تحوَّل إلى نُزل سيئ السمعة.

وقف الاثنان لحظة وأرهفا السمع.

كان تورلس يَهِمُّ الخروج من وسط أجَمة الأشجار عندما طرق سمعه وقع أحذية ثقيلة فوق الأرض، ثم بَرَز رجل مخمور يدبُّ بخطوات مضطربة. من ورائه، وفي غمرة الظلال التي تغطّي الأرض، ظهرت امرأة، سُمع صوتها بسهولة وهي تهمسُ إلى الرجل الواقف بنبرة حانقة متعجِّلة وكأنها تلحّ عليه في السؤال بشيء.

أطلق الرجلُ ضحكة وهزَّ ساقيه. ثمَّ بدا وكأن المرأة ترجوه، لكنها كانت ترطن بكلام غير مفهوم، لم تبِنْ سوى نبرة صوتها المُداهِنة التي تحاول إقناعه بشيء ما.

بعدها تقدَّمتْ خطوة، ووضعت كفها فوق كتفه، فبانت ملامحها على نور القمر، وظهرت ملابسها الداخلية ومعطفها وابتسامتها المتوَسِّلة. أما الرجل فقد شَخَص ببصره إلى الأمام، وهزَّ رأسه، واضعًا يديه في جيبه،

ثم بصقَ ودفع المرأة بعيدًا عنه. ربما قيل شيء ما، تعالى صوتاهما فصار بالإمكان سماع شيء منه.

- «معنى هذا أنكَ لا تريد أن تدفع شيئًا، اسمع يا أنتَ...»

- «لماذا لا تعودين من حيث أتيتِ أيتها الداعرة؟».

- «ماذا تقول؟ آه أيها الفلاح الجلف!».

للردِّ عليها الْتقط المخمور حجرًا من الأرض بحركة متثاقلة وقال: «إن لم تغرُبي عن وجهي الآن، أيتها الحمقاء، فسأدُقُّ عنقكِ».

خوَّفها بالحجر. سمع تورلس وقْع خطوات المرأة وهي تغادر صاعدةً الدَّرَج بعد كلمة السباب الأخيرة.

لبرهة من الوقت، وقف الرجل مترددًا لا يحرك ساكنًا، مُمسكًا بالحجر في يده. أطلق ضحكة ورفع بصره إلى السماء، حيث يسبح القمر الأصفر بين الغيوم السود، ثم راح يحملق في السياج المُظلم الذي يُطوِّق أجمة الأشجار، فأعطى انطباعًا بأنه يَوَدُّ الذهاب إلى هناك. خطا تورلس خطوة حذِرة إلى الوراء، وأحسَّ بدقات قلبه المتسارعة وكأنه سيقفز من بين ضلوعه. في النهاية بدا وكأن الرجل المخمور قد ثاب إلى رشده، فأفلتَتْ يده الحجر، ثم جأرَ بضحكة منتصرة فظَّة وهو يرمق نافذة الطابق الأرضي من مبنى الحمامات، ليختفي بعدها عند زاوية المبنى. كان الاثنان واقفين بلا حراك. همس باينيبيرج: «هل تعرَّفتَ عليها؟ إنها بوزينا».

لم ينبس تورلس بكلمة. كان يصغي السمع ليتأكَّد من أنَّ المخمور لن يعود مجددًا. ثم وجد أنَّ زميله باينيبيرج يدفعه من الخلف. وبخطوات سريعة حذِرة، وعلى أثر الضوء المنبعث من نوافذ الطابق الأرضي على شكل مسامير مدبَّبة، وصلا إلى الردهة المظلمة.

ثمة دَرَج خشبي ضيق ذو سلالم لولبية يفضي إلى الطابق الأول. لا بد أن خطوات أقدامهما قد أصدرت صريرًا مسموعًا من أثر احتكاكها بدرجات السُلم، أو من جرَّاء احتكاك السيفيْن بالأرض، إذ سرعان ما فُتح باب الحانة وخرج رجل ليستكشف الغرباء المتطفلين. عندها سكت صوت عزف الأوكورديون بغتة، وغطَّى السكونُ على جَلَبة الأصوات المتعالية لوهلة.

استولى الذعر على تورلس، الذي تراجع، ملصِقًا ظهره بالحائط، لكنه كان مرئيًّا برغم العتمة التي تلفُّ المكان، وبينما كان باب الحانة يُغلَق مجددًا، سمع نبرة النادلة الممزوجة بالسخرية تقول شيئًا أثار عاصفة من الضحك. كان الظلام الحالك يلفُّ الطابق الأول، فلم يجرؤ تورلس ولا باينيبيرج على التقدُّم خُطوة واحدة خشية الاصطدام دون قصد بشيء وإحداث جلبة. راحا يبحثان بأصابع لاهثة عن مقبض الباب، وقد تملَّكهما الاضطراب.

***

كانت بوزينا قد نزحت إلى المدينة الكبيرة فلاحةً من أبناء الريف، والْتحقت بالعمل كخادمة. في أول أمرها سارت الأحوال على ما يُرام، وكانت طريقتها الريفية البسيطة، وخطواتها السريعة، وطريقةِ مشيها الحازمة أسبابًا لأن تحوز ثقة سيِّداتها، اللواتي أحببنَ فيها هذه الطبيعة البِكر المفعمة برائحة الريف والأبقار، ناهيك بحبِّ سادتها، الذين وجدوا في هذه الطبيعة البِكر أريجًا ذكيًّا.

لكنها تخلت عن هذه الحياة المريحة، ربما بدافع نزوة، وربما بسبب سخطها على عيشتها وتوقها المكتوم إلى الشهوة، فعملت كنادلة، وبعد مرضها عثرَت على عمل في أحد بيوت الهوى الراقية، وبانغماسها

التدريجي في طريق الفجور الذي استنزف حياتها، انحدر بها الحال لتسكن إحدى المناطق الإقليمية النائية.

ثم انتهى بها الأمر لأن تعيش السنوات القليلة الماضية في هذه البقعة القريبة من مسقط رأسها، فكانت تُعاون أصحابها في إدارة شئون الحانة نهارًا، وتمضي أمسياتها ما بين التدخين وقراءة الروايات الرخيصة واستقبال الرجال بين الحين والآخر. صحيح أنَّها لم تكن دميمة، لكن ملامح وجهها كانت مفتقرة إلى الجاذبية افتقارًا واضحًا، فبذلت جهدها للبروز على الساحة عبر شخصيتها.

كانت مغرَمة بأن تذيع على الملأ بأنها ذاقت وجرَّبت أُبَّهة العالم الراقي وصخبه، لكنها دأبت على القول إنها مترفِّعة عن هذه الأمور. ولم تكن تفوِّت فرصة إلا وتخبر الناس أنها لا تُعِير انتباهًا لهذه الأمور، ولا تُعِير انتباهًا لمظهرها، بل ولا لأي شيء.

وبرغم إهمالها لمظهرها تمتعت بمنزلة مُعتبرة في أوساط الفلاحين في المنطقة المجاورة. صحيح أنَّهم كانوا يبصقون كلما ذُكِر اسمها، فضلًا عن شعورهم بضرورة معاملتها بشيء من الغلظة والجفاء خلافًا لبقية الفتيات الأخريات، إلا أنهم كانوا فخورين بهذا «المخلوق الملعون» الذي خرج من بين ظهرانِيهم، الإنسان الذي كان ينظر إلى العالم من تحت طبقة من الأصباغ. كانوا لا يتوقفون عن معاودة زيارتها للحديث إليها، وإنْ فعلوا ذلك في الخفاء، وكل بمفرده. وبهذه الطريقة استطاعت بوزينا أن تكتسب ولو نزرًا يسيرًا من الزهو والاعتراف بالذات. إلا أنَّ تعاملها مع تلاميذ المدرسة الشبان أكسبها قدرًا أكبر من مشاعر الرِّضَى. وكانت تتعمَّد إظهار أخبث صفاتها وأشدِّها غِلظَة أمامهم، لأنهم –كما اعتادت أن تقول– كانوا يعاودون زيارتها المرة تلو الأخرى.

عندما دخل عليها الصديقان، كانت مستلقية على سريرها كالعادة، تدخن وتقرأ. ملأ تورلس عينيه الفضوليتين من جسدها، بينما كان ما يزال واقفًا عند مدخل الباب.

- «أوه يا إلهي! أيُّ ولدين حُلوين أتيا لزيارتي؟»

قالتها بنبرة ساخرة عندما دلفا إلى الحجرة، ورمقتهما بنظرة لا تخلو من ازدراء واضح.

- «وأنت أيها البارون، ماذا ستقول لماما إذن؟».

كانت هذه عبارتها الافتتاحية المعتادة.

- «ثانية واحدة!»

قالها باينيبيرج متذمرًا، ثم جلس على طرف السرير المجاور لها. بينما جلس تورلس بعيدًا بعد أن استاء لتجاهلها إياه وكأنها لا تعرفه.

ازداد حَنَقه بعد أن تحوَّلت زياراته إلى هذه «المرأة» في الآونة الأخيرة إلى مصدر السعادة الوحيد الذي يخفيه عن الجميع. كان القلق ينتابه عندما تقترب نهاية الأسبوع، ولا يطيق صبرًا حتى مجيء يوم الأحد، حيث يتسلَّل إلى شقتها بعد هبوط الظلام.

كانت عادة التسلُّل إليها خُفية أكثر ما يشغَل باله. كان ذهنه مشغولًا على سبيل المثال ماذا لو فكَّر الرجال المخمورون المنتشرون في هذه البقعة النائية في اقتفاء أثره؟ لا لشيء إلا لتلقين هذا الفتى المنفلِت درسًا لا ينساه؟ لم يكن جبانًا، لكنه كان واعيًا بأنه هنا مجرد فتى أعزل. أما عن سيفه الصغير فكان يبدو شيئًا سخيفًا مقارنةً بقبضات أيديهم الخشنة الثقيلة.

زِدْ على ذلك الفضيحة التي ستلاحقه والعقوبة التي ستنزل عليه، ساعتها لن يكون أمامه إلا الفرار من المدرسة أو اللجوء إلى التسوُّل. أو أنْ يدعَ بوزينا تحميه، فارتعد من هذه الفكرة.

لكن هذا هو الأمر، هذا فقط. ولا شيء سواه. الشعور بالخوف، الشعور بالاستسلام هو الذي يغريه كل مرَّة من جديد. الانحدار من علية القوم إلى أراذلهم، ليكون بينهم، بل أحطَّ منهم منزلةً.

لم يكن تورلس ولدًا داعرًا. فعندما كانت الأمور تصل إلى لحظة الفعل، يجتاحه على الفور نفور من البَدء في الممارسة، وينتابه ذعر هائل من مآلات الأمور. كانت مُخيِّلته تشتعل؛ إذ تداعب عقله هذه المغويات، على الأخص عندما كانت أيام الأسبوع تثقُل على كاهله كثِقَل الرصاص.

تطوَّرتْ ذكريات تردُّده إلى هذا المكان لتصير لونًا فريدًا من ألوان الإغواء. حيث بدت بوزينا في نظره مخلوقًا بشعًا يجسِّد الحقارة في أخسِّ صورها، ورأى في عَلاقته بها، ومشاعره ناحيتها طقسًا بشعًا من طقوس التضحية بالنفس.

أغوته فكرة كسر قضبان سجن حياته، وخلع قيود منزلته الاجتماعية الرفيعة، وتحدي الأفكار والمشاعر التي كانت تُحشَر في رأسه حشرًا، باختصار أغوته فكرة الإفلات من قبضة كل ما يمسك بخناقه ولا يقدِّم إليه شيئًا في المقابل. أغوته فكرة الركض بأقصى سرعة ناحية هذه المرأة، عاريًا، مُجردًا من كل ما يملك.

إلا أنه كان مختلفًا عن أقرانه عند هذه النقطة. فلو كانت بوزينا امرأة طاهرة الذيل، بارعة الجمال لكان في مقدوره أن يحبَّها، وأن يذهب إليها ليعضَّ جسدها، ويزيد من لهيب شهوتها وشهوته إلى حدِّ الألم.

إن أول عاطفة تنتاب الشاب في مقتبل حياته هي عاطفة الكُره، لا الحب، إذ يراوده شعور بأنَّ العالم يسيء فهمه، بينما هو عاجز عن فَهم هذا العالم. صحيح أنَّ قلب الشاب يجد في هذه العواطف المضطربة ملاذًا، لكنه ملاذٌ يضاعف من وحدته. نادرًا ما تدوم عواطفنا الأولى طويلًا، وإن ذهبت فهي لا تورث الإنسان إلا المرارة.

العواطف الأولى ما هي إلا غلطة وخيبة أمل؛ في غمرة الحب الأول نفقد القدرة على فَهم بعضنا البعض، وعندما ينتهي الأمر لا نعود نعرف على مَن نلقي باللوم.

وسبب ذلك أنَّ أبطال قصص الحب الدرامية هاتِه لا يقابلون بعضهم بعضًا إلا بمحض المصادفة في أغلب الأحوال؛ بمعنى أنَّ لقائهم يكون وليد الصدفة وهم يهربون من مشاعرهم. وبعدما تستقرُّ الأمور لا يعود أحدهم يعرف صاحبه، ولا ترصد عيناه إلا تناقضات رفيقه، بعد أن أغضى الطرف عما يجمعهما من قواسم مشتركة.

كان الأمر مختلفًا في حالة تورلس بسبب وحدته، فلم تستطع تلك العاهرة العجوز الشمطاء استنهاض القوى الراقدة في أعماقه. لكنها كانت تمتلك من الأنوثة ما مكَّنها من شحذ بعض غرائره الداخلية وتسليط الضوء عليها، مثلها كمثل بذور تنتظر لحظة الإخصاب.

كانت هذه، إذن، هواجس تورلس الغريبة وألوان الغواية التي تداعب خياله. مرَّت عليه أوقات كثيرة كان يشعر بالرغبة في الارتماء على الأرض، ورفع عقيرته بالصراخ من فرط اليأس.

***

واصلت بوزينا تجاهل وجود تورلس بدافع النِكاية، لا لشيء إلا لإثارة غيظه. قاطعتْ بغتة مسار الحديث قائلة: «أعطني بعض المال، أريد شراء شاي وزجاجة خمر».

أعطاها تورلس قطعة فضية من القطع التي أخذها من والدته بعد ظهر هذا اليوم. مِن فوق عتبة النافذة سحبت موقدًا كحوليًّا وأشعلته ثم هبطت درجات السُّلم.

لكزَه باينيبيرج قائلًا: «ما بك واجمٌ هكذا؟ ستظنُّ المرأة أنك عديم الثقة بنفسكَ».

أجاب تورلِس: «لستُ طرفًا في هذه الحكاية، كما أنني لست معتدل المزاج. تحدثْ إليها بمفردك. بالمناسبة أخبرني لماذا تذكر بوزينا والدتكَ باستمرار؟».

- «منذ أن عرفَت اسم عائلتي وهي تزعم أنها عملت ذات مرة عند خالتي، وأنها تعرف أمي معرفة وثيقة. لا يخلو كلامها من الصحة، لكنها تختلق بعض الأكاذيب بدافع التسلية، برغم أني لا أفهم أية متعة تجنيها من وراء ذلك».

علَتْ وجه تورلس حُمرة الخجل إذ انتابته فكرة غريبة. لكن بوزينا سرعان ما رجعت حاملة زجاجة الخمر في يدها، وجلست على السرير إلى جوار باينيبيرج، مستأنفةً حديثها السابق من حيث توقفت.

- «حسنًا، كانت «ماما» فتاة بارعة الجمال، برغم أنكَ لا تشبهها على الإطلاق بتينك الأذنين البارزتيْن. كما أنها كانت تحب المرح، أراهن أنها أدارت رؤوس حفنة رجال، حقُّها!»

توقفت لوهلة وكأنها تذكرتْ شيئًا طريفًا لتحكيه.

- «هل تذكر عمك، الضابط بسلاح الفرسان؟ أظن أن اسمه كارل، كان ابن عم والدتك، وحاول أن يخطب ودَّها في تلك الأثناء، لكنه اعتاد في أيام الآحاد، حيث تذهب السيدات إلى الكنيسة، أن يلاحقني كظِلّي، فكان يطلب مني كل بضع دقائق أن أجلب شيئًا لحجرته، كان رجلًا لمَّاحًا، لكن دعْني أخبرك أنه كان مكشوف الوجه».

قالت الجملة السابقة مصحوبة بضحكة ذات مغزى دفين، ثم أسهبت في الكلام حول هذه المسألة، التي يبدو أنها كانت تشعرها بمتعة خاصة.

برغم أنَّ كلماتها كانت في ظاهرها عادية، لكنها كانت تصوغها صياغة خبيثة من شأنها تلطيخ سُمعة كل مَن ورد ذكره.

- «أقصد أنَّ والدتكَ راق لها الأمر. آه لو علمتْ بالحكاية، لطردتنا خالتكَ من البيت شرَّ طردة، هو وأنا، لكن هذه عادة السيدات الراقيات، لا سيما عندما يفتقدن وجود رجل في حياتهنَّ. عزيزتي بوزينا افعلي هذا... عزيزتي بوزينا افعلي ذلك... هكذا كانت تمضي الأمور طَوال النهار. وعندما كانت الطاهية تتدخل في شئون العائلة تبدأ المشكلة، أنا على يقين أنهم يظنون أن أمثالنا لا يغسلون أقدامهم إلا مرة واحدة في السنة*، لم يخبروا الطاهية شيئًا، لكني سمعتهم يتحدَّثون عنها وأنا أنظف الغرفة المجاورة، كانت أمك تعرف كل ما يجري، لكنها غضت الطرف، وبالطبع لم تمض مدة طويلة حتى صارت بطنُ خالتكَ شبرين أمامها»**.

---

* الإشارة هنا غامضة الدلالة، حتى في الترجمة الإنجليزية التي رجعنا إليها من باب الاستشارة، وربما يشير المؤلف إلى طقس غسل الأقدام في العقيدة المسيحية، حيث يحثُّ الطقس على فضيلة التواضع والتطهُّر من الذنوب (المترجم).

** استخدم المؤلف في الحوار السابق بعبارات اصطلاحية idioms من العامية النمساوية للتعبيرعن طبيعة/لغة الشخصية المتحدّثة (المترجم).

بينما كانت بوزينا تواصل كلامها، أحسَّ تورلس بالنفور من تلميحاتها البذيئة، وكأن ما كانت تحكيه قد تجسَّد واضحًا أمام عينيه، فصارت أمُّ زميله باينيبيرج هي أمَّه.

عاد به كلامُ بوزينا إلى الغرف ساطعة الإضاءة في بيت والديه، وإلى الوجوه الناضرة، الناعمة المصقولة، المترفِّعة، التي كانت تثير في نفسه شعورًا بالرهبة في وقت تناول العشاء.

تذكَّر الأيدي الناعمة الباردة التي كانت تترفَّع عن الامتداد لأي شيء، حتى لو كان الأكل. دارت بخَلَده طائفة من هذه التفاصيل الصغيرة، وغزاه شعور قوي بالعار لجلوسه في حجرة حقيرة قذرة كهاتِهِ، ولاضطراره لسماع الكلمات المهينة لهذه المرأة المنحرفة، فارتعد جسمه.

كان وقع ذكرياته عن سلوكيات المجتمع الراقي، الذي لم ينسَه قط، أشدَّ أثرًا من أية اعتبارات أخلاقية أخرى، ثم أحسَّ بمدى سخافة هذا النبش الذي تنبشه عواطفه الدفينة.

ومع اشتداد وطأة هذه الذكرى رأى يدها تجترح إيماءة باردة زاجرة، ورأى ثَغرها يكشف عن ابتسامة صادمة مثل مَن يزجر حيوانًا صغيرًا قذرًا. برغم ذلك لبث تورلس قاعدًا فوق الكرسي كما لو كان مقيَّدًا بالسلاسل. وإلى جانب مشاعر الخزي التي استولت عليه، كانت كل ذكرى صغيرة تنبعث في ذهنه، تثير في نفسه موجة من الأفكار البغيضة، اتقدتْ شرارتها الأولى لما بدأ باينيبيرج يشرح لزميله تورلس مغزى كلام بوزينا.

حينذاك احمرَّ وجه تورلِس خجلًا، وجد نفسه بغتة يفكِّر في والدته تفكيرًا متواصلًا لا يستطيع الفكاك منه. بدأت الفكرة بملامسة سريعة لتخوم عقله الواعي؛ شيء مثل وميض البرق، شيء غائم، أشبه بطائر محلِّق في الأعالي، لا يَرقى حتى إلى أن يُطلَق عليه اسم فكرة.

ثم سرعان ما أعقبت هذه الفكرة سلسلة من الأسئلة من قَبيل: كيف أمكن لهذا المخلوق المدعو بوزينا أن تربِطَ وجودها الوضيع بوجود أمي؟ وكيف تجمعها بأمي فكرة واحدة من الأساس؟ ولِمَ لا تعفِّر جبينها بالتراب أولًا قبل أن تأتي على ذكر سيرة أمي الطاهرة*؟ لِمَ لا تُقال الحقيقة واضحة صريحة ألَّا شيء مشترك بينهما البتة؟ كيف جرى ذلك؟ هذه المرأة ليست في نظري إلا كتلة من الشهوات المستَعِرَة، في حين أن أمي مخلوق سابح في فلك حياتي على مسافة سديمية بعيدة، طاهرة، ما بقلبها على لسانها، مثلها كمثل كوكب دُرِّيّ نقي من كل رغبة دنسة.

واقع الأمر أن هذه الأسئلة لم تكن بيت القصيد، ولم تمسَّ شعرة من مشاعره الحقيقة، بل كانت أشياء ثانوية لم تطُف برأسه إلا في وقت لاحق، ولم تتضاعف إلا لأنها كانت أبعد ما يكون عن الحقيقة. كانت مجرد مراوغات ومحاولاتٍ غرضها إخفاء حقيقة أنه اختبر فجأة، وعلى نحو غريزي لا واعٍ، مجموعة من المشاعر التي أجابت إجابة خبيثة عن هذه الأسئلة قبل طَرحها من الأساس.

أشبع تورلس عينيه من جسد بوزينا، لكنه عقله بقي مشغولًا بالتفكير في أمِّه؛ وصار عقله موضع الْتقاء المرأتين في صلة واحدة. كانت هذه هي الحقيقة الوحيدة، وكل ما عداها لم يكُن إلا محاولة لفضِّ الاشتباك بين هذه الأفكار. ولما فشل في صرف هذه الأفكار عن ذهنه؛ إذ به يراها وقد اكتسبت معنى غامضًا مروِّعًا، بقي يرافق كل خطواته مثل ابتسامة مراوغة.

***

* ربما ينبغي تنبيه القارئ إلى أنَّ كلام بوزينا لم يكن عن أم تورلس، بل أم زميله باينيبيرج، لكن الأول استقبل الكلام كما لو كان موجَّهًا لأمِّه (المترجم).

ولأجل طرد هذه الأفكار عن ذهنه راح تورلس يُجيل بصره في أرجاء الغرفة، لكن أفكاره لوَّنت كل شيء أمامه بلونها: الموقد الحديدي الصغير الذي يتخلَّل الصدأ سطحَه، السرير ذو الأعمدة المتهالكة، وقوائمه المطليَّة بطلاء مقشَّر في مواضع متفرقة، وغطاء السرير المُرقَّع برُقَع واسعة تُرى عبرها شراشف السرير المهترئة القذرة.

انعكست أفكاره على بوزينا نفسها التي انسدل قميصها من فوق إحدى كتفيها، وبانت تنورتها الداخلية ذات اللون الأحمر الفاقع الرخيص، وعلى ضحكتها الرقيعة، وأخيرًا على هيئة باينيبيرج، الذي ذكَّره سلوكه، قياسًا بما عهده منه، بسلوك كاهن بذيء معتوه، فراح يهذي بكلمات غير مفهومة اتخذت شكل صلاة مفعمة بالخشوع.

وكان كل ذلك يمضي في اتجاه واحد، ويحاصره باستمرار، مُجبِرًا أفكاره على السير في الطريق نفسه. ولم تجِد عيناه الزاغتان المنتقلتان بخوف من موضع لآخر راحتهما إلا في موضع واحد؛ كان هذا الموضع هو الطاقة التي تعلو ستارة النافذة، حيث يرى عبرها الغيوم السابحة في السماء والقمر الساكت بلا حراك. عندها أحسَّ كما لو أنه خرج إلى هواء الليل المنعش الهادئ. لبرهة من الوقت سكنت كل الأفكار المضطربة في رأسه، وراودته ذكرى حُلوة؛ ذكرى المنزل الريفي الذي نزلوا فيه الصيف الماضي، والليالي التي أمضاها في المتنزَّه المسكون بالصمت، والسماء المخملية الداكنة المرصَّعة بالنجوم المتلألئة، وصوت أمِّه المنبعث من أعماق الحديقة حيث تتمشَّى مع أبيه فوق الممرات المرصوفة بالحصباء اللامعة، الأغاني التي كانت تدندن بها لنفسها بصوت خافت.

عندها، سرت في جسده قشعريرة باردة، وعاودت ذهنه تلك المقارنة المؤرِّقة. فكَّر كيف كانا يُحِسَّان بهذا الشعور؟ بهذا الحب؟ لم تطُف برأسه تلك الخاطرة من قبلُ.

لا، فالحب مسألة مختلفة تمام الاختلاف، مسألة لا تشغل بال الناضجين، ناهيكَ بوالديه.

الحب هو أن تجلس إلى جوار النافذة ليلًا، أن تشعر بأنك مهجور، مختلف عن الكبار، وأنَّ الآخرين يسيئون فَهمك مع كل ضحكة تخرج من فمك وكل نظرة ساخرة تُطلُّ من عينيك، أن تشعر بالعجز عن توضيح ما تقصده، أن تهفو نفسُك إلى شخص يفهمك؛ ولأجل أن تحبَّ يتحتم عليك أن تكون شابًّا ووحيدًا؛ لذلك لم يكن ما بين والديه حُبًّا، كان شيئًا آخر، شيئًا يتسم بالهدوء والرزانة.

ماما تغني مساءً في الحديقة وهي مبتهجة.

وكان هذا بالضبط ما لم يفهمه تورلس؛ لم يستطع يومًا فهم خُطط الكِبار، التي تربط الأيام بالشهور والسنين، ولم يفهم يومًا بَلادة مشاعرهم وهم يرَون تسرُّب أيام حياتهم أمام أعينهم.

اعتاد تورلس أن يعيش الحياة يومًا بيوم. كانت كل ليلة تمرَّ عليه تعني عدمًا يحاصره، وقبرًا يُدفن فيه، ومحوًا من سجلات الوجود. عَجز عن تعلُّم فضيلة الاستلقاء في فراشه كل ليلة ليموت بهدوء دون التفكير في الأمر.

لذلك فكَّر أنهم يُخفون عنه أمرًا. رأى في ساعات الليل بوابات سرية تقوده إلى مُتع ومَلَذَّات غامضة يُخفونها عنه عمدًا، فأمست حياته فارغة بائسة.

تذكَّر كيف لاحظَ أمَّه في إحدى الليالي وهي تضحك ضحكة غريبة إذ تضغط على ذراع زوجها وهي تمازحه. ها قد بانت الرؤية ولم يعُد ثمة مجال للشك. فلا بد من وجود بوابة خروج من هذا العالم المسكون بالمخلوقات الوقورة الهادئة. وفي اللحظة التي تنبَّه فيها إلى ذلك وفهِم الحكاية وما فيها، راح يفكِّر وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة تردُّ على الشكوك التي حاول تبديدها عبثًا.

***

وبينما غرق ذهن تورلس في هذه الأفكار لم تتوقف بوزينا عن مواصلة كلامها، وهو مُصغٍ إلى كلامها بنصف اهتمام، ثم ذكَرت شخصًا اعتاد التردُّد عليها كل يومٍ أحد تقريبًا.

- «لا أذكر ما اسمه؟ إنه في نفس صفِّك الدراسي...»
- «رايتينج؟».
- «لا».
- «ما شكله؟».
- «يبلغ طولُه طولَ هذا»، مشيرة بطرف إصبعها إلى تورلس، «إلا أن رأسه ضخم بعض الشيء».
- «آه، بازيني».
- «نعم، نعم، هكذا كان اسمه. صبي غريب الأطوار. أرستقراطي، لا يشرب إلا النبيذ، لكنه أخرق. يدفع مبلغًا طائلًا من المال، لكنه مدعٍ، كلام كثير ولا فعل. لا يتوقَّف عن التباهي بالعَلاقات الغرامية التي كان يعقدها في بيته. ولكن ما الذي كان يفعله بالضبط؟ لا أعرف! من تجربتي العريضة عرفت أنَّه لم يسبق وأن

عاشَرَ امرأة قط. أنتَ في مثل سنِّه أيضًا، لكنك صفيق، أما هو فأخرق مذعور، راح يحكي طويلًا كيف ينبغي للباحث عن المتعة -نعم هذا هو التعبير الذي استخدمه- أن يعامل النساء. قال إن النساء لا يصلحن لشيء آخر، قلتُ في نفسي: من أين علمت ذلك وأنت لم تفعل شيئًا؟»

أطلق باينيبيرج ضحكة ساخرة.

- «اضحك، اضحك كما تشاء».

صرخت بوزينا بدورها صرخة ضاحكة في وجهه واستأنفت حديثها:

- «سألته ذات مرة ألم يكن يخجل من أمِّه؟».

فقال: «أمي؟ أمي؟ ما معنى هذه الكلمة؟ هذه كلمة لا وجود لها في حياتي، تركتُها ورائي في المنزل قبل المجيء إليكِ».

فردَّت عليه بوزينا: «أرهف تينك الأذنين الكبيرتين: هذا هو حالكم أيها الصِّبية الظرفاء، أيها السادة المهذَّبون الشبان، أستطيع أن أشعر بأسف أمهاتكم على أحوالكم!».

عندما سمع تورلس هذه الكلمات عاودته الفكرة التي سبق وأن انتابته عن نفسه، وكيف ضرب صفحًا عن كل شيء وكشف النقاب عن صورته لوالديه، فرأى أنَّ ما فعله لم يكن شيئًا مذمومًا، بل شيئًا عاديًّا تمامًا. ثم راوده شعور بالخجل، لكن الأفكار لم تغادر رأسه.

«**إنهما**» يفعلان الشيء نفسه، إنهما يخونانك أنت أيضًا. هناك تواطؤ من نوع سري. ربما يكون الأمر مختلفًا لديهما، برغم أنه يتحتم أن يكون الموضوع نفسه عندهما وعندك واحد: لون سري فظيع من ألوان المتعة. شيء لا تملك أمامه إلا أن تموت فيه غرقًا مع كل رتابة اليوم التي تمرُّ عليك، ربما يعرفان أكثر مما يعرف؟ يعرفان أشياء غير عادية؟ لأنهما

يكونان مطمئنَيْن في أوقات النهار... وماذا عن ضحكة أمه وهي تنتقل بخُطًى هادئة من غرفة إلى أخرى، لتغلق الأبواب كافة؟

***

في غمرة هذا الصراع الداخلي حانت لحظة لم يملك أمامها تورلس إلا الاستسلام، والارتماء في حضن العاصفة. في اللحظة نفسها نهضت بوزينا وتوجَّهت إليه.

- «لماذا لا يتحدث صغيرنا؟ هل هناك ما يسوءكَ؟».

همس باينيبيرج بشيء في أذنها، ثم ابتسم ابتسامة خبيثة.

- «ماذا؟ تؤرقك مشاعر الحنين إلى الوطن؟ هل سافرت «ماما» فلم يجد الولد العفريت أمامه سوى الركض لاجئًا إلى واحدة مثلي؟»

مرَّرتْ بوزينا أصابعها بحنان بين خصلات شعره.

- «آه! لا تكن سخيفًا. أعطني قبلة، أبناء العائلات الراقية ليسوا مصنوعين من البسكويت، لن ينكسروا من قُبلة».

ثم أمالت رأسه إلى الخلف. أراد تورلس أن يقول شيئًا، أراد أن يستجمع فصاحته ليجيبها بمزحة بذيئة أو كلمة نابية، انتابَه شعورٌ أنَّ حياته الآن معلَّقة بقول كلمة فاترة غير ذات صلة، لكنه لم يقوَ على أن ينطق بكلمة. حدَّق بابتسامة متحجِّرة إلى ذلك الوجه الجاف المتطلِّع إلى وجهه، وعندها بدأ العالم الخارجي في التقلُّص، في الانكماش أكثر وأكثر، ثم برقت في ذهنه صورة الفلاح الذي يحمل حجرًا في يده، وبدا له أن ذلك الفلاح يرفع الحجر في وجهه وكأنه يسخر منه... ثم غرق في الوَحدة.

(4)

- «اسمع يا صاحبي... لقد وقع الفأر في المصيدة».

همس رايتينج.

- «مَن تقصد؟»

- «لص الخزانة».

كان تورلس وباينيبيرج قد رجعا للمدرسة لتوّهما. في هذه اللحظة حان وقت العشاء وانصرف المشرف المناوب. حول الطاولات الخُضر تحلَّقت مجموعات من التلاميذ تتجاذب أطراف الحديث، فبدت القاعة مثل خلية نحل تضِجُّ بالنشاط والحركة. كانت هذه هي غرفة الدراسة المعتادة بحوائطها المطليَّة باللون الأبيض، بينما عُلِّقَ صليب أسود كبير وبورتريه للإمبراطور والإمبراطورة على جانبي السبورة.

إلى جانب الموقد الحديدي الكبير، الذي كان ما يزال مطفأً، جلس الشباب الذين رافقوا آل تورلس بعد ظهر ذلك اليوم، فتوزَّعوا ما بين جالسٍ فوق المنصة وجالس فوق كراسٍ مطوية. بخلاف رايتينج كان هناك هوفماير، وكان صبيًّا مديد القامة، بالإضافة إلى كونت بولندي صغير السنِّ، اسمه جوشوا. تسرَّب إلى نفس تورلس شيء من الفضول لما سمع الهمسات السابقة.

كانت الخزائن في الجزء الخلفي من الفصل، وهي مؤلَّفة من صناديق طويلة مقسَّمة إلى أدراج يحتفظ فيها التلاميذ بالكتب والرسائل والنقود وغيرها من أنواع المتعلقات الشخصية الصغيرة.

بدأ التلاميذ منذ فترة يشكُون من اختفاء مبالغ مالية بسيطة، من دون القدرة على طرح تخمينات بشأن ضلوع شخص بعينه في التسبُّب في اختفائها. وكان باينيبيرج أول من ادَّعى اختفاء مبلغ مالي كبير في الأسبوع قبل الماضي، لكن أحدًا لم يعلم شيئًا بالأمر باستثناء رايتينج وتورلس، وكانت شكوكهما تحوم حول طاقم الخَدم بالمدرسة.

- «لتحكِ إذن!»، سأله تورلس، إلا أنه أشار بيده على الفور: «ششش! ليس الآن».

- «هل هو واحد من طاقم الخَدم؟»، قال تورلس هامسًا.

- «لا».

- «أعطنا ولو لمحة!»

ابتعد رايتينج عن بقية التلاميذ وأخفضَ من صوته قائلًا: «إنه «ب»».

باستثناء تورلس لم يفهم أحد من أفراد الشلَّة شيئًا من هذه المحادثة التي أُحِيطت بالكتمان.

صعقَه الخبرُ.

«ب»؟

معنى هذا أن المقصود بازيني بلا شك.

قال في نفسه: لكن هذا محال، فبحسب علمه فأمه امرأة ميسورة الحال وولي أمره من الوجهاء. رفض عقل تورلس تصديق الأمر، وقفزت إلى ذهنه الحكاية التي روَتها بوزينا. لم يصبر على انصراف التلاميذ لتناول وجبة العشاء. تخلَّف رايتينج وباينيبيرج عن اللحاق بزملائهم بذريعة أنَّهما أفرطا في الطعام في فترة ما بعد الظهيرة. ثم اقترح رايتينج قبل الإقدام على أي خطوة، الذهاب إلى «الأعلى» أولًا.

قطعوا خطواتهم على الممر الطويل الممتد بلا نهاية أمام حجرة الدراسة. لم تُنِر مصابيح الغاز المتلألئة إلا جانبًا صغيرًا من الممر الطويل، وكان صدى خطواتهم يتردَّد في كل الأركان مهما حاولوا المحافظة على هدوء خطواتهم. ربما على بعد خمسين مترًا من الباب ثَمَّة دَرَج يقود إلى الطابق الثاني، حيث قِسم التاريخ الطبيعي، ومجموعة من الوسائل التعليمية المختلفة، فضلًا عن بعض الفصول الدراسية المهجورة. وبداية من هذا المكان تضيق درجات السُلَّم قليلًا، وتظهر درجات تتخذ زاوية قائمة حادة، تُفضي إلى العلِيَّة.

ولما كانت المباني القديمة مُشيَّدة تشييدًا مفتقِرًا إلى أي منطق في أغلب الأحيان، ناهيك عن كثرة الأركان المهدَرة ودرجات السُلَّم الزائدة، كانت درجات السلم مرتفعة ارتفاعًا حادًّا عن سطح الأرض، ولأجل الوصول إلى الباب الحديدي الثقيل المغلَق المؤدي إلى العلِيَّة، كان عليهم الهبوط مرة أخرى عبر عدد من السلالم الخشبية.

عندها وجدوا أنفسهم وسط صالة عتيقة منسيَّة يبلغ ارتفاعها عدة أمتار، منتهيةً بالعوارض الحاملة للمكان. وكان هذا المكان، الذي لم تطأه قدم قبل هذه اللحظة، هو مستودع لتخزين المناظر الطبيعية القديمة المُستخدمة في العروض المسرحية في العهود الغابرة.

كان ضوء النهار يختنق على درجات هذا السُلَّم لتشبُّعه بذرات الغبار القديمة حتى في أوقات الظهيرة المشمسة. وذلك نتيجة قلَّة تردُّد الأقدام عليه إلا فيما ندر، لوقوعه في جناح بعيد من مبنى المدرسة الضخم. ولما وصلوا إلى آخر درجة من درجات السُلَّم وثبَ باينيبيرج فوق الدرابزين، ويداه متشبثتان بالقضبان، لينزلق بجسده عبر الفتحات الفاصلة بين المناظر الطبيعية، ومن ورائه قفز رايتينج ثم تورلس. عندها استطاعوا العثور على

موطئ قدم فوق صندوق خشبي موضوع خصوصًا لهذا الغرض، ثم وثبوا من فوق الصندوق لتُلامس أقدامهم الأرض.

ولو أنَّ شخصًا واقفًا على السُّلَّم صوَّب بصره إلى هذا الاتجاه، مهما اعتاد بصره على هذا الظلام الدامس، لاستحال عليه تمييز أي شيء، اللهم إلا خليطًا عشوائيًّا من المناظر الخشبية مدبَّبة الحواف المتداخلة.

عندما أزاح باينيبيرج أحد هذه المناظر جانبًا، انفتح أمامه ممر ضيق أشبه بأنبوب. أخفى التلامذة الصندوقَ الذي ساعدهم عند النزول وشقوا طريقهم عبر المناظر الخشبية المرصوصة.

خيَّمَ الظلام الدامس على أرجاء المكان، واستلزم الطريق معرفة دقيقة بالمكان ليجوسوا في دهاليزه. وكانت الجدران المصنوعة من الكتان تُصدِر خشخشة من حين إلى آخر عندما تمسُّها يدٌ ما، وتخرُّ منها ذرات الغبار فوق الأرض كأسراب فئران مذعورة، مُخلِّفة بعد سقوطها، رائحة الصناديق القديمة العطِنة.

كان باينيبيرج ورايتينج على دراية بدهاليز المكان. وبسبب الظلام راح الجميع يتلمَّس طريقه بحذر خطوة بخطوة؛ خشية الاصطدام بالخيوط التي مدُّوها فوق مستوى الأرض لتكون ناقوس إنذار حال اقتراب غرباء، ولتكون لهم دليلًا مرشدًا. استغرق الأمر بعض الوقت حتى وصل الثلاثة إلى باب صغير على الجهة اليمنى إلى جوار الجدار الخارجي للعلية. عندما فتح باينيبيرج البابَ وجدوا أنفسهم في مكان ضيق أسفل الدرج الأخير. وعلى ضوء المصباح الزيتي الصغير الذي أشعله باينيبيرج اكتسى المكان بهيئة عجيبة.

أخذ سقف المكان شكلًا أفقيًّا في الجزء الواقع مباشرة أسفل الردهة حيث هبط الأصدقاء، وكان مرتفعًا بدرجة كافية لأن يقف المرء منتصب

القامة. ولكن، كلما رجع المرء إلى الوراء انحرف السقفُ بميلٍ يوازي ميل السُّلَّم، لينتهي بزاوية حادة.

كان الجانب المقابل من هذه الحجرة الصغيرة يلامس جدارًا رقيقًا فاصلًا بين العلِّيَّة وبئر السُّلَّم، وكانت الحجرة محدَّدة تحديدًا طبيعيًّا بفضل الجدران الحاملة للسُّلَّم.

أغلب الظن أنَّ الجدار الجانبي الثاني فقط، المثُبَّتَ فيه الباب، قد أُضيف بشكل خاص. ربما تدين هذه الغرفة الصغيرة في وجودها إلى خُطة إنشاء مخزن للأدوات في هذا المكان، وربما لا تعدو أن تكون مجرد نزوة هبطت على رأس المهندس المعماري عندما وقع بصره على هذه البقعة المظلمة، فراودته فكرة إنشاء قبو حصين على غرار أقبية القرون الوسطى.

أيًّا ما كان الأمر، وباستثناء الثلاثة، لم يكن ثمة مخلوق في المدرسة يعلم شيئًا بأمر هذه الغرفة، ناهيك عن التفكير في الغرض من وراء إنشائها؛ مما مكَّنَهم من تأثيث الغرفة وفق ذوقهم الجامح.

بُطِّنَتْ جدرانها برايات قانية الحُمرة، سرقها باينيبيرج ورايتينج من إحدى غُرف العلِّيَّة، وكُسِيت أرضيتها بطبقتين من البطانيات الصوف الثقيلة التي كانت تُستخدم غطاء إضافيًّا في عنابر النوم خلال فصل الشتاء. في الجزء الأمامي استقرت مجموعة من الصناديق المنخفضة المغطاة بالقماش، استُعمِلَت كمقاعد. أما البقعة الخلفية، حيث تتصل أرضية الغرفة بسقفها على هيئة زاوية حادة، فقد تحوَّلت إلى غرفة مخصصة للنوم. وكانت تتسع إلى ثلاثة أفراد أو أربعة، وضُربت عليه ستارة لتخفيف الإضاءة، ولفصل مكان النوم عن الجزء الأمامي من الغرفة. وفوق الحائط الملاصق للباب عُلِّق مسدس محشو بالرصاص.

لم يكن تورلس يحب هذه الغرفة. برغم أنَّ ضيق حجمها وشعور العزلة داخلها كانا يروقان له؛ كان الأمر أشبه بالعيش في حفرة عميقة مدفونة في حضن جبل، وكانت رائحة المناظر الخشبية العتيقة المغمورة بالتراب تثير في نفسه خليطًا من المشاعر الغامضة.

ثم بدَت له سخافة فكرة المخبأ السري والأسلاك المنصوبة للإنذار من الغرباء والمسدس، وهي الأشياء التي من المفترض أنْ تُذكِي شعور التحدي والتمرُّد المتوهِّميْن. الأمر أشبه بمحاولة إقناع نفسك بأنك تعيش حياة اللصوص. واقع الأمر أن تورلس لم يرتَسِم خطوات صاحبيه إلا رغبة في الشعور بالنِّدِّيَّة والوقوف على قدم المساواة معهما. أما باينيبيرج ورايتينج فقد أخذا المسألة على مأخذ الجِد.

كان تورلس على معرفة جيدة بذلك، وكان واعيًا إلى أنَّ في حوزة باينيبيرج نسخًا مقلدة من مفاتيح الغرف الملحقة بقبو المدرسة والعلِّيَّة، كما كان يعرف أن الأخير غالبًا ما اعتاد أن يتغيَّب عدة ساعات عن الفصل ليجلس في مكان ما، فإما أن يرتقي العوارض الخشبية في العلِّيَّة، وإما أن يذهب إلى أحد الأقبية العديدة المتشعِّبة المتصدِّعة تحت الأرض، فيجلس مستضيئًا بالضوء الخافت الذي يبعثه المصباح الصغير الذي يحمله معه على الدوام، فيعكف على قراءة قصص المغامرات، أو يرسل أفكاره لتغرق في تأمُّل ظواهر ما بعد الطبيعة.

كما كان يعرف أشياء مماثلة عن رايتينج، الذي كان يحتفظ بركن يخفي فيها دفاتره السرية التي تغصُّ بخُططه المستقبلية، فضلًا عن مذكرات تشرح بالتفصيل أسباب سلسلة المكائد والمشاحنات التي كان يشعل نارها بين أقرانه في الفصل، وكيفية إدارتها.

لم يكن هناك أحب إلى رايتينج من المشي بين التلاميذ بالنميمة وزرع الأحقاد بينهم، واستغلال هذا للطعن في ذاك، والتلذُّذ بكلمات الإطراء وصنائع المعروف الزائفة التي يُسدونها إليه، وهي الكلمات التي كان يحسُّ من وراء حجابها بمشاعر الكُره والبغضاء.

- «أنا أتدرَّب فقط».

كانت هذه الكلمة هي ذريعته الوحيدة، وكان ينطقها بضحكة ساخرة. ولأجل هذا «التدريب» دأب يقصد مكانًا نائيًا كل يوم تقريبًا، ليتدرب على الملاكمة، سواء أمام حائط، أو أمام شجرة، أو فوق سطح طاولة لتقوية ذراعه و تخشين كفَّيه.

ولم يكن ذلك كله خافيًا على تورلس، لكنَّ فهمه للأمور كان يصل إلى نقطة محددة لا يتجاوزها. مرات قليلة هي التي كان يحذو فيها حذو رايتينج وباينيبيرج، وكانت تعجبه غرابة أطوار مسلكهما. كان يستمتع بالعودة في وضح النهار بعدها لينخرطَ وسط زملاء الدراسة، مبتهجًا بفرحة الوجود بينهم، بينما أعماقه وعيناه وأذناه مأسورة بمشاعر العزلة وهلوسة العُتمة التي رآها في الغرفة السرية. برغم ذلك لم يكن عقل تورلس يفهم كلمة واحدة عندما ينتهز كل من باينيبيرج أو رايتينج مثل هذه المناسبات للحديث إلى شخص آخر، لعرض أفكارهما وشرح دوافعهما.

كان يرى في رايتينج فتى عُصابيًّا بعض الشيء، لا سيما بعد إشاعة الأخير أنَّ والده كان رجلًا مضطرب العقل، غريب الأطوار، اختفى ذات يوم من دون أن يترك ورائه أثرًا، وأنَّ اسمه لم يكن إلا قناعًا وهميًّا للتستُّر على نبالة دمائه. وكان يظنُّ أن أمه ستأخذ بيده لاسترداد حقِّه في تلك الأصول النبيلة، واضعًا في حسبانه مستقبلًا حافلًا بالانقلابات السياسية والأحداث الكبرى، فهيَّأ نفسه ليكون ضابطًا. وبدا لتورلس أن خطط

رايتينج لا يمكن أن تُحمل على محمل الجِد أبدًا، وأن عصر الثورات قد مضى إلى غير رجعة، بينما كان صاحبه يأخذ هذه الخُطط مأخذ الجِد، وإن اقتصرتْ على نطاق ضيق في هذه المرحلة.

كان رايتينج طاغية لا يرحم معارضيه، وكان أنصاره يتبدَّلون من يوم إلى آخر، لكن أغلب التلاميذ كانوا يقفون إلى صفِّه. وكانت هذه هي براعته الحقيقية. فقبل سنة أو اثنتين شنَّ حربًا ضروسًا ضد باينيبيرج، انتهت بهزيمة الأخير هزيمة نكراء.

في آخر الأمر وجد باينيبيرج نفسه وحيدًا معزولًا، برغم أنه لم يكن يَقِل مهارة عن صاحبه في القدرة على تقييم البشر، ورباطة الجأش والدهاء في إذكاء العداوة بين خصومه، لكنه كان يفتقر إلى الحضور والقدرة على استمالة الآخرين للوقوف إلى صفِّه.

وكان صفاء باله ومشربه الفلسفي كفيلَيْن بإثارة ريبة الجميع تقريبًا. ولم يستبعد التلاميذ أن باينيبيرج، في قرارة نفسه، لم يكن ليتورَّع عن ارتكاب أفظع التجاوزات، برغم ذلك فقد تسبَّب في مشكلات عديدة لِرايتينج، ولم يكن انتصار الأخير إلا ضربة حظ عشوائية، ومنذ ذلك الحين توحَّدتْ كلمتهما من منطلق المصالح المشتركة.

على أي حال لم يكن تورلس يُلقي بالًا إلى كل هذه الأمور لافتقاره إلى المهارة على فعل ما يفعلان. مع ذلك كان ما يزال سجينًا في هذا العالم، وكان في مقدوره أن يرى بأم عينيه كل يوم ما يعنيه أن يكون التلميذ صاحب كلمة نافذة في إمبراطورية المدرسة، ففي مدرسة من هذا النوع يُمسي كل فصل دراسي إمبراطورية مُصغَّرة قائمة برأسها. لهذا السبب كان تورلس يُظهر احترامًا مشوبًا بالحذر لزميليه، وكانت كل الأفكار التي تراوده لتقليدهما، لا تعدو أن تكون مجرد محاولات هواة.

ولما كان تورلس أصغرهما سنًّا اتخذت العَلاقة معهما شكل علاقة تلميذ بأستاذ أو تابع بمتبوع. فتمتَّع بالحماية في كنفهما، وكانت نصائحه موضع ترحيب منهما، فعقله هو الأكثر توقُّدًا. فحالما يُوضع على المسار السليم يتفتق ذهنه عن ابتكار أذكى الحيل والألاعيب. كما تمتع بمهارة لا تُبارَى في التنبؤ بدقة باحتمالات ردود أفعال شخص وُضِع تحت ظروف بعينها. ولكن عندما يصل الأمر إلى مرحلة اتخاذ القرار والمجازفة والتصرُّف وفق أحد الاحتمالات، كان يجفل ويتراجع ويفقد الاهتمام والحماسة.

كان يحلو له الاستمتاع بلعب دور رئيس أركان حرب في الظل، وفعل ذلك لأنَّ هذا الدور هو الوحيد الذي يُلقي حجرًا في بِرْكة ضجره الداخلي الساكنة.

ومع ذلك مرَّت عليه أوقات انتبه فيها إلى آفة ارتباطه النفسي بالآخرين، وشعر أن كل ما فعَلَه لم يكن إلا عبثًا وعاملًا محفزًا لتجاوز طور «اليرقات» في فترة حياته بالمدرسة.

وكان هذا الشعور بعيد الصلة عن جوهر طبيعته الحقيقية، ذلك الجوهر الذي لن يتبلور الآن، بل في وقتٍ ما غير محدَّد من المستقبل. وكلما رأى صديقيه يأخذان هذه الأمور مأخذ الجِد، ينكر عليه عقلُه ذلك أشدَّ ما يكون الإنكار. ودَّ لو استهزأ بهما، لكنه خشي أن تنطوي أخيلتهما على حقائق مستورة عنه ولا يراها.

بشكل أو بآخر أحس بأنه ممزَّق بين عالمَيْن؛ الأول عالم الطبقة البرجوازية راسخ الأركان، الذي يرى فيه كل شيء مُنظَّمًا ومنطقيًّا كما اعتاد أن يراه في بيت والديه، والثاني عالم مفعم بروح المغامرة، مُجلَّل بالظلام، مسكون بالأسرار، مشحون بالدم والمفاجآت غير المحسوبة. وهما عالمان على طرفي نقيض، يُقصي كل واحد منهما الآخر، عالمان

متقاطعان؛ الأول عالم الابتسامة الساخرة التي يوَدُّ إبقاءها على شفتيه، والثاني عالم الرعشة السارية في أوصالِه.

ثم ومضَت الأفكار في ذهنه...

كان يتوق إلى الإحساس باليقين في أعماق نفسه، وإلى الإمساك بعلامات طريق محدَّدة تساعده على التمييز بين الخير والشر، وبين النافع والضار؛ أشياء تأخذ بيده إلى اتخاذ القرار، حتى لو كان قد جانَبَه الصواب في اختياره؛ فأيًّا ما كان اختياره فسيكون أفضل من حالة الحساسية المفرطة التي تجبره على قبول كل شيء.

وبينما كان يسير في الغرفة الصغيرة، مزَّقه ذلك الانقسام الداخلي مرة أخرى، كما يحدث معه دائمًا عندما يأتي إلى هنا. في هذه الأثناء، بدأ رايتينج يخبرهم بأصل الحكاية.

كان بازيني يدين له بالمال، ويماطل في موعد الردِّ من يوم إلى آخر، قاطعًا على نفسه في كل مرة كلمة شرف. قال رايتينج: «لكن الأمر لا يزعجني البتة، فكلما طال أمَد الدَّين، صار بازيني كالخاتم في إصبعي. لكنه ليس بالأمر الهين عندي أن يحنَث بكلمة الشرف ثلاث مرات أو أربع. ثم جاء وقت احتجتُ فيه إلى نقودي، ونبَّهتُه إلى ذلك، فراح يُقسِم بأغلظ الأيمان بردِّها، لكنه لم يفِ بعهده بالطبع، فأخبرته بوضوح أني سأُبلِغُ إدارة المدرسة عنه. استمهلني يومين إضافيين لأنه كان ينتظر إرسال مال من الوصي على التركة. في تلك الأثناء رحت أتقصَّى أحواله، كنت أوَد معرفة ما إذا كان مدينًا لآخرين أيضًا، ينبغي للمرء الحاذق ألا يترك شيئًا للصدفة. لكني اكتشفت ما لا يسرُّ أحدًا، حيث عرَفت أنه مدين بالمال أيضًا لِجوشوا ولآخرين. كان قد ردَّ شيئًا من ديونه إليهم، بالطبع مما اقترضه مني. لم يمهلوه ثانية واحدة وهو ما أثار استيائي. هل كان

يراني أحمق؟ لم يرُق لي الأمر. لكني قلت في نفسي: صبرًا. ستسنح الفرصة وتُريه خطأه».

في أحد الأيام أخبرني من باب الطمأنة أن المبلغ الذي ينتظر وصوله أكبر مما يدين به إليَّ، لكني نبشتُ وراء الأمر حتى عرَفت أن المبلغ المتوقَّع وصوله أقل بكثير من جُملة ما يدين به إليَّ. «هكذا إذن»، قلت في نفسي: «ها هو يعاود المماطلة من جديد».

ثم جاءني ليتكلم معي على انفراد وسرية وطلب مني أن أمُدَّ مهلة الوفاء بالدين، لأن الآخرين يقِفون له بالمرصاد. لكني أدرت له ظهري هذه المرة وقلت له: «اذهب واستجدِ الآخرين، لست معتادًا أن أكون رقم اثنين في أية معادلة».

فواصل استجدائي بقوله: «لكني أعرِفُكَ معرفة أفضل، وأثق بكَ ثقة أكبر».

فأجبته: «قولًا واحدًا: إما أن تردَّ إليَّ المال غدًا وإما أن تدعني أفرض شروطي».

- «أية شروط؟»

يا سلام! يا ليتكم سمعتموه وهو يقولها. نطقها بنبرة المستعدِّ لبيع رُوحه.

- «الشروط؟ الشروط أن تصبح طَوْع أمري في كل ما آمركَ به».
- «أهذا كل ما في الأمر؟ بالتأكيد سأفعل، يسعدني أنِ أكون رهن إشارتك».
- «ليس المطلوب تنفيذ ما يسعدك فقط، بل كل ما أطلبه، شرطي هو الطاعة العمياء!»

حينها رمقَني بنظرة منزعجة وتعبير فم يجمع بين الابتسامة والحَرَج. لم يكن يعرف إلى أي حد ورَّط نفسه وَلا إلى أي حد كنتُ جادًّا في كلامي. ودَّ أن يعِدَني بتنفيذ كل ما قلتُه، لكن لا بد أنه خشِي من احتمالية أني أمتحنه وأجسُّ نبضه. قال في آخر الأمر بعد أن احمرَّ وجهه خجلًا: «حسنًا، سأجلب لك المال».

راقني الأمر، من بين الخمسين تلميذًا الآخرين كان بازيني نكرةً لا يلفت نظري، ولد حقير الشأن، لكنه اقترب مني فصرتُ قادرًا على سبر أغواره. تيقنتُ من أنه على استعداد لبيع رُوحه من دون جلَبة، ما دام أن الأمر سيظل طي الكتمان. كانت مفاجأة بحق، فلا شيء أجمل من أن يُخرج لكَ شخص ما في جَعبته هكذا عن طيب خاطر، أن تنكشف أمامكَ طبيعته الحقيقية التي لا يراها أحد، كمثل أن ترى الأنفاق الدقيقة التي تحفرها دودة الخشب عندما تنفلق قطعة الخشب أمامكَ...

في اليوم التالي وفى بعهده وجلبَ لي المال. بل إنه دعاني لتناوُل شراب معه في الكازينو. طلب النبيذ والكعك والسجائر، ورجاني أن أقبَلها كتعبيرٍ بسيط على «امتنانه» لصبري عليه.

الشيء الوحيد الذي أثار غيظي هو البراءة الشديدة التي كان يتصرف بها، كما لو أنَّه لم يجرِ بيننا شيء، لمَّحتُ إلى الأمر من بعيد، فصار أكثر ودًّا ولطفًا. وبدا كما لو أنه يحاول التملُّص من سطوتي وأن يخلق انطباعًا بأننا نِدَّان متكافئانَ. تظاهَرَ بأنه طوى صفحة الماضي، ولم يكن يفوِّت كلمة إلا وشدَّدَ فيها على متانة صداقتنا وعمقها، لكنَّ عينيه كانتا تثيران شعورًا أسَر انتباهي؛ شعور الخوف مِن تبخُّر هذا التظاهر المُتقَن عما قريب. وفي النهاية اشمأززتُ منه.

فكَّرتُ: هل ظنَّ أن هذا الكلام سينطلي عليَّ؟ رحت أقلب أفكاري كيف يمكنني تلقينه درسًا لا ينساه. كنت أفكِر في شيء يوجِعه حقًّا. ثم تذكَّرتُ أن باينيبيرج قد حكى في صباح اليوم نفسه أنَّ مبلغًا من المال سُرِق منه. طافت هذه الفكرة برأسي بشكل عارض، لكنها لم تغادرني. سال لعابي، وقلت في نفسي: «فرصة ذهبية لن تُعوَّض»، ثم سألته سؤالًا عابرًا كم تبقَّى لديه من المال. في ذهني حسبتُ المبلغ وصحَّ الحساب. سألته ضاحكًا: «ومَن المعتوه الذي ما يزال يُقرِضكَ مالًا، بعد كل ما اقترضتَه؟».

- «هوفماير».

طرب قلبي من السعادة، حيث جاءني هوفماير قبل ساعتين لاقتراض بعض المال، فتحوَّلتْ الفكرة التي كانت تدور في رأسي قبل بضع دقائق فجأة إلى حقيقة. تمامًا كما يحدث عندما تقول في نفسك على سبيل المزاح مثلًا: عسى أن يشتعل هذا المنزل الآن، فما تلبث أن ترتفع ألسنة اللهب في المنزل نفسه عدة أمتار في اللحظة التالية...

في لمح البصر أخذ ذهني يفكِر في الاحتمالات المختلفة. صحيح أنِّي لم أكن متيقنًا من شيء محدَّد، لكني مشيتُ وراء حدسي. مِلتُ برأسي إلى الأمام وقلت بنبرة شديدة التهذُّب، وكأنني أغرس عصا رفيعة مدببة في قلب دماغه: «اسمع يا عزيزي بازيني، لا أفهم لِمَ تكذب عليَّ».

وما إن قلت هذا الكلمة حتى بدأت عيناه المذعورتان تدوران في محجريهما، فتابعت كلامي قائلًا: «يمكن أن ينطلي كذبُكَ على أي شخص آخر إلا أنا، أنتَ تعلم جيدًا أن باينيبيرج قد...».

لم يمتقع لونه ولم يشحب، وبدا كما أنه في انتظار تسوية سوء الفهم الطارئ.

عندما قلت: «الحكاية باختصار شديد أنك سرقتَ النقود التي سدَّدتَ بها ديونك إليَّ، وتحديدًا من خزانة باينيبيرج ليلة البارحة». بعدها رجعتُ بظهري للوراء لأراقب ردَّ فعله. تضرَّج لونه بحُمرة تشبه حمرة الكَرز. أسالَتِ الكلمات المخنوقة في فمه اللُّعابَ على شدقيه، ثم انحلَّت أخيرًا عقدة لسانه وبدأ يتكلم.

أمطرني بسيل من الاتهامات من قَبيل: كيف واتتني الجرأة لترديد هذه المزاعم؟ هل في حوزتي دليل واحد لتأكيد هذه الادِّعاءات المُشينة؟ هل أريد افتعال شجار لأنه الطرف الأضعف الآن؟ قال هل أفعل ذلك بدافع الغيظ لأنه أفلَتَ من تحت قبضتي بعد تسوية ديونه؟ ثم راح يقول إنه سيخبر الفصل بأكمله، سيخبر الناظر ومدير المدرسة، والله شهيد على براءته من هذه التهمة... إلخ. في البداية اغتممتُ لأني ظلمته وآذيته بلا داعٍ، احمرَّتْ وجنتاه فبدت ملامحه جميلة... بدا مثل حيوان صغير معذَّب مغلوب على أمره. برغم ذلك لم أقوَ على الاستسلام بهذه السهولة، لذا بقيتُ مُنصِتًا إلى كلامه، ولم تغادر شفتيَّ ابتسامة ساخرة، بينما كنت في حقيقة الأمر تحت وطأة الإحراج البالغ. بين الحين والآخر كنت أهُزُّ رأسي، ثم قلت بهدوء: «نعم، أعرف ذلك». سكَنَ روعه بعد فترة من الوقت.

واصلتُ الابتسام وأحسستُ أن ابتسامتي وحدها قادرة على تحويله إلى لِصّ، حتى لو لم يقترف شيئًا. فكرتُ في نفسي: «سيكون هناك متَّسع من الوقت لاحقًا لتسوية الأمر».

مرَّت بضع لحظات كان يختلس فيها النظر إليَّ، ثم سرعان ما امتقع لونه مرة واحدة. طرأ تغيُّر حاد على أسارير وجهه، فتلاشت الوسامة البريئة التي زينت ملامحه مع امتقاع لونه، وتلوَّن وجهه بلون أخضر، وكساه الذبول والذهول.

لم يسبق وأن رأيت وجهًا بهذه الملامح إلا مرة واحدة، عندما رأيتهم ذات مرة في الشارع يلقون القبض على قاتل. وكان هذا القاتل أيضًا يتجوَّل بين الناس من دون أن يثير انتباه أحد، ولكن ما إن وَضَع الشرطي كفَّه على كتف القاتل، حتى صار بغتة رجلًا آخر، فتبدَّلت ملامحه وجحظتْ عيناه من الذعر، باحثتَيْن عن مخرج يخلِّصه من صورة حبل المشنقة. تذكرتُ هذه الصورة عندما رأيت التبدُّل الذي طرأ على ملامح بازيني.

كنت أعرف ما سيجري وكان عليَّ الانتظار. لكن انتظاري لم يدُم طويلًا، فبعد أن أنهك الصمتُ أعصابه، ومن دون أن أنطق بكلمةٍ أجهش في البكاء وبدأ يستدِرُّ الصفح. سرق النقود تحت وطأة الحاجة، كان ينوي رَدَّها في أقرب فرصة، وما كان لأحد أن ينتبه للواقعة لولا أني عرَفت بالأمر.

قال: لم يكن يجدر بي أن أقول إنه سرق النقود، بل الأحرى بي أن أقول إنه اقترضها سرًّا، لم يستطيع مواصلة الكلام وهو يغالب دموعه. ثم عاد إلى نغمة التوسُّل مجددًا. أخبرني أنه سيكون طوع إشارتي، منقادًا لأوامري، راجيًا إياي ألَّا أخبر أحدًا بما جرى. كان هذا هو الثمن، وكم اشمأززتُ لرؤية نظرة الخبث الممزوجة بالخوف المُطِلَّة من عينيه. وعدتُه بالنظر في أمره والردِّ عليه سريعًا فيما يمكن فعله، لكني قلت إن أهم شيء الآن هو موضوع نقود باينيبيرج: والآن ما رأيكم فيما نفعله معه؟

كان تورلس يستمع إلى كلام رايتينج بعينين مُغمضتيْن وفم مُطبق. من حين إلى آخر يشعر بقشعريرة باردة تسري في أطراف أصابعه، وبالأفكار الجامحة غير المنظَّمة التي تموج في رأسه مثل فقاعات تفور على سطح ماء يغلي.

يقولون إن هذا يحدث لمن يرى امرأة للمرة الأولى، ويكون قدره أن تجرُّه إلى شغفٍ مدمِّر؛ لحظة تمرُّ بين شخصين تنكفئ فيها الرُّوح على نفسها، فتستجمع قواها وتحبس أنفاسها، لحظة صمت خارجي، لكنها تُخفي حالة من التوتر الداخلي العنيف بين شخصين. تعجز الكلمات عن وصف ما يجري في هذه اللحظات، الأمر أشبه بظلٍ ممدود بأثر العاطفة. ظل طبيعي غير مصطنع؛ شيء مثل تخفيف حدَّة التوترات السابقة، إلا أنه في الوقت ذاته قيد جديد مباغت يضمُّ المستقبل بين طياته، شيء أشبه بفترة حضانة مركَّزة، وقْعُها وكأنه وخزة إبرة. وهو أيضًا، على صعيد آخر، شعور بالفراغ، شعور بليد وغامض، شعور بالضعف والخوف...

هكذا أحسَّ تورلس.

كان ذلك بالضبط شعوره وقتها. ولو سأله أحدٌ عن أهمية الواقعة التي جرت بين رايتينج وبازيني، لبدَتْ له مسألة تافهة. مجرد جُرْم أخرق وفعل خسيس اقترفه بازيني، قابلَه رايتينج بنزوة شريرة.

برغم ذلك داهمه هاجس مُقلِق أن المسألة قد نحَتْ منحًى سيمسُّه بسوء مباشر، وأن شيئًا في الأمر يهدِّده تهديدًا حاسمًا كرأس حربة مصوَّبة ناحيته. لم يستطع منع نفسه من تخيُّل بازيني في رفقة بوزينا، وراح يجول ببصره في أرجاء الغرفة. أحسَّ أن جدران الغرفة تتوعَّده، مُعتزِمةً الانقضاض عليه، وكأنها أيد ملطَّخة بالدماء تريد الإمساك بخناقه، وأحسَّ وكأن المسدس يتحرك في مكانه ذهابًا وإيابًا.

أحسَّ للمرة الأولى وكأن حجرًا ثقيلًا هَوَى في البئر المهجورة لأحلام يقظته؛ هوى الحجر وحسبُ، ولم يكن هناك ما يفعله حيال ذلك، كان ذلك حقيقة. إن حال بازيني بالأمس لا يختلف عن حال تورلس اليوم؛

فُتح باب المصيدة وسقط بازيني في الفخ؛ تمامًا كما وصفَ رايتينج في كلامه: تبدُّل مفاجئ يقلب حال الإنسان رأسًا على عقب...

مرة أخرى بدت هذه الفكرة مرتبطة، بشكل أو بآخر، ببوزينا. أغرقت أفكاره في الضلال، وانبعثت منها رائحة عفنة وحُلوة في الوقت نفسه شوشَّت على أفكاره.

جرَّب بازيني نفس شعور المهانة والخنوع والالْتحاف بأوراق العار الثقيلة الشاحبة السامَّة، التي كانت تطفو على صفحة أحلامه مثل صورة مرآوية أثيرية من بعيد.

ولكن أكان ذاك شيئًا ينبغي وضعه في الحسبان؟ أكان شيئًا ينبغي التحوُّط له تحسُّبًا لأن يقفز بغتة من مرآة الأفكار الساكنة؟ لو حدث ذلك لأصبح كل شيء ممكنًا، ولصارت حكاية رايتينج وبازيني قابلة للتصديق، ولصارت تلك الغرفة ممكنة، ولصار محتملًا أن ينفرجَ العالم اليومي المشرق بنور الشمس، وهو العالم الوحيد الذي لم يعرف سواه حتى الآن، عن بوابة تنقُّله إلى عالم آخر، عالم مُضجرٍ، مندفع، مملوء بالحماسة، عارٍ ومدمِّر.

الفاصل بين من تدور حياتهم في فلك المكتب والعائلة كالمحبوسين في بروج من زجاج وحديد، وبين الخائضين في الوحل، الضالّين في متاهات صاخبة، هو معبر ضيق ثم يحدث أن تتقاطع طرقهم على نحو سِرّي، ويصير كل طرف قادرًا على اجتياز الحدود، والانتقال من ناحية إلى أخرى في كل لحظة...

ويظل السؤال الوحيد قائمًا: كيف يغدو ذلك ممكنًا؟ وما الذي يحدث تحديدًا في هذه اللحظة؟ ما الذي ينطلق صراخه صادحًا في الأعالي وما الذي ينتهي أثره بغتة؟

نازعته تلك الأسئلة وتصاعدت في عقله تصاعدًا مُبهمًا بلا كلمة، وهي إذ تتصاعد، كان يحجبها شعور غامض، غير مؤكَّد، ربما كان ضعفًا أو خوفًا.

برغم ذلك اختلطت بعض هذه الأسئلة، التي بدتْ وكأنها قادمة من بعيد، بشيء من مشاعر التمزُّق والعزلة، فملأت نفسه بترقب ممزوج بالقلق.

حينها طرح رايتينج سؤالًا، فانحلَّت عقدة لسان تورلس وبدأ في الكلام على الفور، مستجيبًا بإذعان إلى دافع مباغِت؛ إلى نغزة وشعور بالفزع. وبدا له كما لو أنَّ حدثًا جَللًا على وشك الوقوع، وارتعد من هذه الفكرة، وأراد الفرار لكسب مزيد من الوقت. عندما شرع في الكلام أحسَّ أنه ليس لديه ما يقول، وأن كلماته ليست نابعة من أعماقه ولا تعكس حقيقة رأيه.

فقال: «بازيني لص».

التَذَّ تورلس بالنبرة القاطعة الشديدة لهذه الكلمة، فراح يكررها: «لص، وأمثاله ينالون عقابهم في كل مكان، في كل أرجاء الدنيا. يتحتم الإبلاغ عنه وطرده من المدرسة، لعل حاله ينصلح في الخارج، لم يعد واحدًا مِنا».

قال رايتينج بنبرة مستاءة: «لا، لِمَ نهوِّل الأمر هكذا؟».

- «ماذا؟ ظننتكَ سترى كلامي هو التصرف المنطقي الوحيد»
- «كلا، على الإطلاق. كلامكَ يشعِرُني أنَّ كارثة كبرى على أعتاب أبوابنا لتُهلِكنا جميعًا لو أبقينا بازيني وسطنا، برغم أن الأمر ليس كارثيًّا إلى هذه الدرجة»

- «كيف تقول ذلك؟! أتريد مواصلة الجلوس معه؟ أتريد مشاركة الطعام وعنبر النوم يوميًّا مع لص، قدَّم نفسه إليك خادمًا وعبدًا مطيعًا؟ أنا لا أفهم ذلك. لقد تربَّينا هنا معًا لأننا ننحدر من المجتمع نفسه. هل سِيَّان عندك لو حدث وأنْ خَدَم معك في الكتيبة نفسها؟ أو لو عِمل معك في الوزارة نفسها؟ أو لو أنَّه راح يخطب ودَّ أختك؟»

ضحك رايتينج قائلًا: «ألا ترى أنك تبالغ في الأمر؟ إنك تتصرف كما لو أنَّ أخوية المدرسة ستربطنا طَوال حياتنا. هل تظن أننا سنُدمغ دومًا بختم ممهور بكلمة: «خريج سابق في مدرسة «ڤي» ذو امتيازات ومهام خاصة؟ سيأتي يوم يمضي فيه كل واحد إلى حال سبيله، ويصير كل واحد ما قُدِّر له أن يصير، فلا يوجد مجتمع واحد فقط في هذا الدنيا؛ لذلك أرى أننا لسنا في حاجة إلى إرهاق أذهاننا بالتفكير في المستقبل. أما فيما يخص الحاضر فلم أقل إن علينا مصادقة بازيني، سنعثر على طريقة تُبقينا على مسافة منه. بازيني كالخاتم في إصبعي أقلِّبه كيفما أشاء، ولا مانع عندي لو أنك ذهبتَ إليه وبصقتَ في وجهه مرتين كل يوم، وطالما أنه راضٍ بما يحدث، فهو لا يقف على قدم المساواة معنا، ولو تمرَّد على أوامرنا يومًا فسنريه مَن له اليد العليا. الأجدر بك أن تتخلى عن فكرة أن ثَمَّة صلة تربطنا ببازيني، اللهم إلا الاستمتاع بإذلاله».

لم يقتنع تورلس بذريعة صاحبه وأخذته الحماسة وقال: «اسمع يا رايتينيج: لماذا تقف إلى صف بازيني هكذا؟».

- «أقف إلى صفِّه؟ لا أعرف، ليس عندي سبب محدد لذلك، ولا ألقي بالًا للأمر، أنا منزعج فقط لأنك تبالغ. ما الذي يدور بذهنك؟ أراه لونًا من ألوان المثالية. لون من الحماسة المقدَّسة للمدرسة أو لإحلال العدالة. إنك لا تدري مدى سخافة ومثالية ما تقول، أم

إنك –وهنا ضيَّق رايتينج حدقة عينيه ورمق تورلِس بنظرة خبيثة متشككة– تخفي عنا سببًا آخر لطرد بازيني خارج المدرسة، لكنك لا تريد كشف أوراقكَ أمام الجميع. شيء مثل ثأر قديم؟ قُلْها، ربما تكون هذه هي الفرصة المواتية».

تلفَّتَ تورلس جانبًا ناحية باينيبيرج الذي لاذ بالابتسام. وبينما كان صاحباه يتحدثان، راح يسحب أنفاسًا من غليون الجبق*، وساقاه متقاطعتان على الطريقة الشرقية. وبدت هيئته بأذنيه البارزتين على الضوء المهتزِّ مثل صنم مشوَّه.

قال: «افعلا ما بدا لكما. لا يهمُّني أمر المال المسروق ولا تحقيق العدالة. لو كان في الهند لمرَّروا عبر أمعائه عودًا من ساق البامبو. إنه شخص أحمق وجبان، لن يرثي لحاله أحد، مادمت أدرتُ وجهي عن هؤلاء الأشخاص، فهم في حد ذاتهم نكرة، ولا ندري ما الذي سيحلُّ بأرواحهم، ليشمل «الله»** قراركما برحمته!».

لم ينبس تورلس بكلمة. فبعدما ردَّ عليه رايتينج، وبعدما ألقى باينيبيرج الكرة في ملعب صاحبيه، انتهى الأمر. لم يعد تورلس قادرًا على المقاومة، ولم تعترِه رغبة في إيقاف ما هو آتٍ.

قُبِلَ اقتراح رايتينج، وتقرَّر وضع بازيني تحت الرقابة ليُمنح الفرصة للإصلاح والتهذيب. من الآن فصاعدًا سيُفحص دخلُه ونفقاته فحصًا دقيقًا، وستكون عَلاقاته بالآخرين مرهونة بموافقة الثلاثة. بدا هذا القرار صائبًا وملائمًا للغرض.

---

* أداة لتدخين التبغ ذات قصبة بالغة الطول، استُخدِمت في تركيا (المترجم).

** استخدم المؤلف كلمة Allah في النص الأصلي (المترجم).

«قرار سخيف بامتياز»، لكن هذه لم تكن كلمة رايتينيج هذه المرة. لأنه من دون اعتراف الثلاثة بهذه الحقيقة، لأحسَّ كل واحد منهم بحاله. صحيح أن رايتينيج كان مترددًا في ترك اللعبة، لأنها منحته شعورًا بالسعادة، لكنه، على صعيد آخر، لم يكن متأكدًا أي مَنحى ستنحو الأمور فيما بعد. أما تورلس فقد شُلَّت أطرافه من مجرد التفكير في أنه سيتعامل يوميًّا مع بازيني.

هدأ روع تورلس قليلًا عندما نُطِقَتْ بكلمة «لص» أمامه في المرة السابقة، كان الأمر أشبه بإخماد نار الأسئلة المضطرمة بداخله أو إبعادها عنه. لكن هذه الكلمة عجزت عن تقديم جواب شافٍ عن الأسئلة التي عاودت الطفو على صفحة روحه، وغدتْ أشدَّ وضوحًا وإلحاحًا من أن يتجنبها.

نقلَ بصره من رايتينيج إلى باينيبيرج، ثم أغمضَ عينيه، مكررًا القرار الذي اتُّخِذ، وعاودَ فتح عينيه...

لم يعد متأكدًا إذا ما كان خياله هو الذي وضع عدسة هائلة مشوِّهة بينه وبين كل هذه الأشياء، أم أن ما كان يتشكل أمامه بهذه الطريقة الغامضة كان حقيقيًّا.

ولكن هل كان باينيبيرج ورايتينج هما الوحيدين اللذين لا يدور بذهنيهما هذه الأسئلة؟ برغم أنهما لم يشعرا منذ البداية بغربة عن هذا العالم، ذلك العالم الذي يبدو له الآن، وللمرة الأولى مغرقًا في الغرابة؟

كان تورلس يخشى صاحبيه خشية المذعور من وحش عملاق معروف بعمائه وبطشه.

لكنَّ شيئًا واحدًا بقي مؤكدًا، وهو أن تورلس قطع في الربع ساعة الماضية شوطًا طويلًا، ولم يعد ثمة سبيل للتراجع. ها هو الآن قد صار في براثن قيدٍ ضد إرادته، فبدأ ينتابه الفضول فيما ستَؤول إليه الأمور لاحقًا. كان الغموض ما يزال يكتنف مشاعره، ومع ذلك راودته رغبة متزايدة في التحديق في هذا الظلام ورؤية أشكاله التي لم يرَها الآخرون.

امتزجت هذه الرغبة بقشعريرة لطيفة، كما لو أنَّ السماء الرمادية الملبَّدة بالغيوم ستُظلِّل حياته على الدوام؛ سماء مشحونة بغيوم ضخمة وأشكال هائلة دائمة التبدُّل، لم يتوقَّف السؤال الجديد عن الإلحاح: هل هذه وحوش أما أنها مجرد غيوم؟ وكان هذا السؤال مقصورًا عليه وحده، سرٌّ مكنون ومضنون به على الآخرين.

وهكذا، وللمرة الأولى، بدأ بازيني يكتسب أهمية في حياة تورلس.

في صباح اليوم التالي وُضِع بازيني تحت الوصاية. ولم تمرَّ المسألة من دون طقوس احتفالية. استُغِلَّت ساعة الصباح الباكر حيث تُجرى تمارين اللياقة البدنية في مرجٍ كبير في حديقة المدرسة، فألقى رايتينج خطبة مطوَّلة، مشيرًا إلى أن بازيني قد لطَّخ سمعته في الوحل، وكان يجدر الإبلاغ عنه لولا النعمة التي حلَّت عليه، فأُعْفي على أثرها مؤقتًا من عار دخول السجن.

ثم أُمْلِيت على بازيني الشروط الخاصة، وتولَّى رايتينج مسئولية مراقبة امتثال بازيني لهذه الشروط. طَوال هذا الطقس كان وجه بازيني شديد الشحوب، لم ينبس بكلمة واحدة، وبدا من المستحيل أن يقرأ أحد من ملامح وجهه ما الذي يدور بذهنه تحديدًا.

تراوح المشهد السابق في عين تورلس بين عدم الاكتراث والاهتمام الشديد، وفي تلك الأثناء بدأ باينيبيرج يولي برايتينج عين الاهتمام أكبر من بازيني.

(5)

فيما تلا ذلك من أيام بدا وكأن المسألة برمتها قد طواها النسيان.

لم يكن رايتينج يُرى تقريبًا إلا في قاعات الدرس أو صالة الطعام، بينما لزم باينيبيرج الصمت أكثر من ذي قبلُ، وظلَّ تورلس يرجئ التفكير في المسألة المرة تلو الأخرى. أما بازيني فقد تحرَّك بين أقرانه وكأن شيئًا لم يكن.

أما عن هيئة بازيني فقد كان أطول قليلًا من تورلس. كان ذا بنية ضعيفة، وحركات ناعمة بطيئة، وملامح وجه أنثوية. وبرغم طيش عقله وتأخُّره عن أقرانه في حصص المبارزة واللياقة البدنية، كان يتحلَّى بطبع ودود لا يخلو من غنج ودلال.

في إحدى المرات قصدَ شقة بوزينا لإثبات فحولته، ونظرًا لتأخُّر نموِّه كانت مسألة الرغبة الحسِّية الحقيقية أبعد ما تكون عن ذهنه. وأغلب الظن أنه اضطُرَّ إلى فعل ذلك من باب المواءمة أو أنه كان تحت ضغط إثبات أنه لا يفتقر إلى المغامرات العاطفية.

لحظاته الفضلى هي اللحظة التي يغادر فيها غرفة بوزينا، تاركًا كل شيء وراءه، فكل ما كان يعنيه هو الحصول على تذكار. ومرت عليه أوقات يكذب فيها، لا لشيء إلا بغرض التفاخر.

وبعد كل عطلة يعود إلى المدرسة، مُحمَّلًا بتذكارات مغامرته العاطفية: شرائط، خصلات من الشعر، رسائل غرامية. وفي إحدى المرات رجع، حاملًا في حقيبته رباط جوارب صغير ذا لون أزرق سماوي يفوح برائحة

عطِرة، ثم اتَّضحَ لاحقًا أنه يخصُّ شقيقته البالغة من العمر اثني عشر عامًا، فصار مثار تهكم الجميع واستهزائهم بسبب هذا التبجُّح السخيف.

كان سهل الانقياد لأهوائه، ويتفاجأ على الدوام بعواقب أفعاله. وسار افتقاره إلى الأخلاق جنبًا إلى جنب مع غباوة عقله. أشبه بالمرأة التي تدُسُّ لزوجها جرعات السمّ في الطعام، ثم تراها مذعورة من كلمات القاضي القاسية عندما ينطق بحقها حكم الإعدام!

تحاشى تورلس التعامل معه، ونتاج ذلك تلاشت تدريجيًّا الصدمة الداخلية العميقة التي عصفت به منذ الوهلة الأولى وهزَّت أفكاره.

استردَّت الأشياء من حول تورلس طابعها العقلاني مجددًا، وتبدَّد شعوره بالحيرة، وغدا هذا الشعور يومًا وراء يوم شيئًا غير واقعي، مثله مثل بقايا حُلم تبخَّر تحت تأثير حرارة شمس العالم المادي الواقعي.

ولطمأنة نفسه على بقاء الوضع على حاله، كتَبَ إلى والديه رسالة، مخبرًا إياهم بكل شيء، باستثناء ما كان شعر به. حينها كان قد خلصَ إلى وجهة نظر مؤداها أنه من المحبَّذ إقصاء بازيني من المدرسة في أقرب فرصة ممكنة.

لم يتخيَّل قط أن أبويه سيفكِّران تفكيرًا مختلفًا، توقَّع منهما أن يُدينا سلوك بازيني بأغلظ العبارات وأكثرها إثارة للاشمئزاز، أن يُديناه بالطريقة نفسها التي تتخلَّص بها أمٌّ من حشرة حقيرة لمنعها من الاقتراب من طفلها. غير أنه لم يَجِد شيئًا من هذا كله في الخطابات التي تلقَّاها. ومثل أي آباء عقلاء بذل الوالدان جُهدًا هائلًا للموازنة بين جميع الظروف بغرض تكوين صورة مكتملة الأركان من وسط المعلومات المبتَسَرة والثغرات التي تغصُّ بها رسالته المكتوبة على عَجَل. ومن ثمَّ فضَّلا الإجابة بالردِّ الأكثر تسامحًا ونأيًا عن المبالغة، لا سيما بسبب معرفتهما أن رواية ابنهما

ربما قد خالطها شيء من شطط الشباب الساخط، فوافقا على منح بازيني فرصة للتهذيب والإصلاح، ورَأَيَا ألا ينبغي هدم مستقبل إنسان بسبب زلّة صغيرة، وعلى الأخص -مُشدِّدَيْن على هذه النقطة تشديدًا خاصًّا- عندما يكون التعامل مع شخصيات غضَّة ما تزال في طَوْر التشكُّل، لا مع أفراد ناضجين. وطالباه بأي حال من الأحوال بضرورة أن يعامل بازيني معاملة جادة حازمة، لكنها لا تخلو من مودة وعطف، لتشجيعه على تهذيب سلوكه. ثم عزَّزا رأيهما بسلسلة من الأمثلة المعروفة جيدًا عند تورلس.

لم ينسَ ذكرياته عن سنواته الأولى في المدرسة، عندما كانت الإدارة لا تلين في مسألة تطبيق الإجراءات الحازمة وفرض القيود الصارمة على مصروف الجيب، وكان العديد من الأولاد الصغار، وهم مخلوقات شَرِهة، عاجزين عن مقاومة رغبتهم العارمة في استجداء قطعة من شطيرة لحم الخنزير أو ما شابه من زملائهم الأوفرين حظًّا. بل حتى هو نفسه لم يكن قادرًا عن صدِّ هذا الإغراء برغم حرصه على مداراة خجله عبر التذمُّر من خبث الإدارة وسوء نياتها. لم يتعلَّم تورلِس مواجهة نقاط ضعفه دونما خجل بفضل سنوات نضجه وحسب، وإنما بفضل مواعظ والدَيْه الجادَّة النافعة. لكن كل هذا لم يكن ليُجدي نفعًا الآن.

كان لا بدَّ له من الاعتراف بصحة آراء والديه في كثير من النقاط، برغم معرفته أنه من الصعوبة بمكان أن يُصدِرَا حكمًا صائبًا وهما بعيدان عن مسرح الأحداث، وبدا له أن رسالة والديه مفتقرة إلى نقطة مهمة، ألا وهي وعيهما بوقوع أمر لا سبيل إلى إصلاحه، أمر لا يجوز حدوثه بين أناس داخل دائرة معينة. كما افتقرت رسالتهما إلى الشعور بالذهول والمفاجأة. تحدَّثا كما لو أنَّ ما جرى أمرٌ عادي ينبغي التعامل معه بلباقة دون إثارة مزيد من الضجة. صحيح أنَّه خطأ لا يخلو من رذيلة وقبح، لكنه لا يمكن تجنبُّه مثله مثل نداء الطبيعة.

لم يعثر في خطاب والديه أثر لاهتمام أو قلق شخصي كما هو الحال عند رايتينج أو باينيبيرج. وكان في مقدور تورلس قراءة المكتوب وترك الأمر عند هذا الحد، لكنه عوضًا عن ذلك مزَّق الخطاب إلى قصاصات صغيرة وأشعل النار فيه. وكانت هذه هي المرة الأولى في حياته التي يُظهر فيها عدم الاحترام لكلام أبويه. حيث أثار هذا الخطاب في نفسه ردَّ فعل عكسيًّا لِما كان مرجوًّا. فعلى خلاف رأي والديه البسيط، ألحَّتْ على ذهن تورلس فجأة مجددًا الطبيعة الشائكة والمشبوهة لسلوك بازيني. هزَّ رأسه وقال لنفسه إنه يتعين عليه التفكير بتدبُّر في الأمر، ولم يعثر على سبب مقنع لذلك.

أغرب ما في الأمر أنَّ تورلس كان يحلُم أكثر من كونه يفكِّر. وإذ فعل ذلك بدت له صورة بازيني أشدَّ وضوحًا عما سبق، بدت صورته مرسومة بخطوط واضحة المعالم، بالضبط كما يراه والداه وأصدقاؤه؛ لكنه في اللحظة التالية ما لبث أن اختفت تلك الصورة، لتعاودَ الظهور، مرارًا وتكرارًا، في هيئة صغيرة، صغيرة للغاية، تُومِضُ وميضًا متقطعًا على خلفية ثاوية على غور عميق شديد العمق.

(6)

في ساعة متأخرة من إحدى الليالي، وبينما كان الجميع نائمًا، أحسَّ تورلس بغتة أن أحدًا يَهُزُّه.

كان باينيبيرج جالسًا على طرف السرير، ولمَّا كان هذا أمرًا غير مألوف، خمَّن تورلس على الفور أن ثمة أمرًا جللًا قد حدث.

- «استيقظ، ولا تُحدِث جَلَبة حتى لا نثير الانتباه. سنصعدُ إلى الطابق العلوي، عندي ما أخبركَ به».

ارتدى تورلس ملابسه على عجَل، ووضع على جسده المعطف، ثم دسَّ قدميه في حذائه المنزلي. وهناك في العلِّيَّة اهتمَّ باينيبيرج بحرص بإعادة الأمور التي أتلفوها في أثناء صعودهم إلى نصابها، وراح يُعِدُّ الشاي. كانت جوارح تورلس تغالب النوم، فترك سخونة المشروب الذهبي الأصفر ذي الرائحة الزكية تغزو أطرافه وهو مستمتع. انزوى في أحد الأركان، متكوِّرًا على نفسه ومستعدًّا لسماع المفاجأة.

في النهاية صاح باينيبيرج: «رايتينج يتلاعب بنا!».

لم يتفاجأ تورلس؛ كان يعتبر وقوع ذلك أمرًا بدهيًّا وأن المسألة لا بد وأن تنحو هذا المنحى، وكأنه توقع حدوثها، ثم ما لبث وأن هتف بشكل عفوي: «تمامًا، كما توقعت».

- «أهكذا؟ كما توقعتَ؟ ولكن في الأرجح لم تلاحظ شيئًا على أرض الواقع! هذا طبعكَ».

- «برغم ذلك، لم أعد أهتمُّ، ولم أعد أشغل نفسي بالأمر».
- «أما أنا فالأمر لم يَغِب عن بصري ثانية واحدة، لم أثق بِرايتينج منذ اليوم الأول، تعلم بالطبع أن بازيني قد ردَّ إليَّ أموالي. من أين تظنُّه جاء بالمال؟ من جيبه الشخصي؟ بالطبع لا».
- «هل تظن أن لِرايتينج يدًا في المسألة؟»
- «بالقطع».

أول ما فكَّر فيه تورلس أن رايتينج متورِّط في الموضوع مثل بازيني.

- «معنى هذا أنك تعتقد أن رايتينج مثل بازيني يـ...»
- «لا تكن سخيفًا. لقد دفع رايتينج من جيبه ما يكفي لأن يسدِّد بازيني ديونه إليَّ».
- «لكني لا أرى سببًا وجيهًا لافتراض ذلك».
- «لفترة طويلة بقيتُ أفكِّر مثلكَ. لا بد أنك تنبَّهتَ إلى وقوف رايتينج بقوة إلى صفِّ بازيني منذ البداية. كنتَ محقًّا لما قلتَ بضرورة طرده، كان الشيء البدهي هو الإلقاء به خارج أسوار المدرسة، لكني تعمَّدتُ ألا أصوِّت لصالح رأيكَ، إذ قلتُ في نفسي إني أرغب في وضع إصبعي على باطن الأمر. صحيح أنني لم أكن متأكدًا ما إذا كان رايتينج يضمر نوايا محدَّدة أم إنه أراد فقط الانتظار قليلًا ليتأكد من إحكام قبضته على بازيني، أما الآن ففهمتُ اللعبة».
- «ثمَّ؟»
- «تمهَّل، ليس هذا مما يُحكى في عجالة. أتذْكُرُ الحكاية التي جرت في المدرسة قبل بضع سنوات؟»

- «أية حكاية؟»

- «الحكاية إياها!»

- «نعم! مرَّ بسمعي كلام هنا وهناك. دار لغط حول فضيحة كبرى هزَّت المدرسة على خلفية بعض الممارسات المنحرفة، طُرِدَ على إثرها عدد كبير من الطلاب».

- «بالضبط هذا ما أقصده. في أثناء إحدى العطلات عرفتُ مزيدًا من التفاصيل عن الواقعة من أحد زملائي بالفصل، كان من بينهم صبي وسيم الهيئة، وقع كثير من الطلاب في غرامه! لا شكَّ أنك تفهم قصدي، هذا يحدث كل سنة، لكن الأمر هذه المرة تجاوز الخطوط الحمراء».

- «بأي شكل تقصد؟»

- «بأي شكل؟ يا رجل لا تتظاهر بالبلاهة! بالشكل الذي يفعله رايتينج مع بازيني!»

هنا أدرك تورلس حقيقة العَلاقة بين رايتينج وبازيني، فشعر بغُصَّة في حلقه كما لو أن حنجرته مملوءة بالرمل.

- «لم أتوقَّع ذلك من رايتينج».

عجز عن إيجاد كلمة أفضل من هاته الجُملة، بينما رفع باينيبيرج كتفيه.

- «يظن أنه في مقدوره خداعنا».

- «وهل يقف رايتينج في صفِّه؟»

- «مطلقًا. رايتينج ليس أحمق، كل ما في الأمر أنه يتَّخذ بازيني مادة للتسلية والإثارة الحسِّيَّة».

- «وماذا عن بازيني؟»
- «ماذا عنه؟ ألم تلاحظ كيف صار وقِحًا في الآونة الأخيرة؟ لم يعُدْ يعير انتباهًا لأية كلمة أقولها. لا يَعنيه إلا أن رايتينج قال كذا وعاد كذا، كما لو أن الأخير صار قِدّيسه الشفيع. أغلب الظن أنه صار يفضّل تحمُّل الأذى كله من شخص واحد، بدلًا من تحمُّله من كل واحد بمفرده. لا بد أن رايتينج وعَدَه بأن يشمله بأوجُه الدعم والحماية لو أطاع كل أوامره. لكنهما يرتكبان غلطة، سأستغل الفرصة لأتخلَّص من بازيني مرة واحدة».

مكتبة ياسمين
telegram @ yasmeenbook

- «ومن أين عرفتَ كل ذلك؟»
- «راقبتهما».
- «أين؟»
- «هناك بالطابق الأعلى. أعطيتُ رايتينج مفتاح المدخل الثاني للغرفة. ذهبتُ إلى هناك، وهيَّأتُ الحفرة لدخولي وتسللتُ إلى هناك لأتلصَّص عليهم».

وسط الجدار الرقيق الفاصل بين الحجرة والعلِّيَّة حُفِرَ ممر عريض يكفي لمرور شخص بغرض أن يكون مخرج طوارئ في حالة الضرورة، عادةً ما أغلق بقطع من الطوب. توقَّف الحديث لبرهة طويلة، ولم يكن يُسمع إلا صوت السجائر المشتعلة وهي ترسم خطوطًا في الهواء. لم يقوَ تورلِس على التفكير؛ رأى بغتة شيئًا... من وراء عينيه المغلقتيْن رأى بغتة دوامة عاصفة تموج بالأحداث... وبالبَشَر؛ بشر يسطع منهم نور باهر وأضواء لامعة، تحُفُّهم ظلال متحرِّكة محفورة بعمق؛ رأى وجوهًا، ثم رأى وجهًا، ابتسامة، أعينًا محدِّقة، جلودًا مقشعِرَّة. رأى البشرَ رؤية لم يسبق له أن رآها ولا أحسَّ بها من قبلُ. رأى الأشياء دون النظر إليها، دونما صورة

ذهنية أو مرئية، كما لو أنَّ رُوحَه فقط هي التي ترى بعين قلبه. بلغتْ هذه الأشكال درجة من الوضوح اخترقت جسده مثل ألف سهم، لكنه حالما كان يعثر على الكلمات الملائمة لوصفها وإحكام السيطرة عليها؛ إذ بهذه الأشكال توقفت عند عتبة لا تستطيع تخطيها، عائدة أدراجها.

سألَ بنبرة مختلجة: «و... هل رأيتَهما؟»

- «نعم».

- «وكيف كان بازيني؟»

لم ينبس باينيبيرج بكلمة، ولم يكن ثمَّ إلا صوت احتراق السجائر المشتعلة. ران الصمت عليهما حتى استأنفَ باينيبيرج كلامه.

- «قلَّبتُ المسألة على وجوهها مرارًا وتكرارًا، وكما تعلم فأنا أفكر في الأمور من زاوية مختلفة، فوجدتُ أن بازيني شخص غير مأسوف عليه على أي حال. سواء أأبلغنا عنه الآن أم أوسعناه ضربًا، أم عذَّبناه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة بغرض التسلية، لا أتخيَّل أنَّ مَن على شاكلته يمثِّلون أية قيمة داخل منظومة الكون البديعة. في اعتقادي هذا مخلوق مولود من رحِم المصادفة، وخارج إطار سُنن الطبيعة. لا بد وأنَّ ثمة عِلة لوجوده في الدنيا، لكنها عِلة غامضة، شيء مثل دودة في باطن الأرض أو حجر مُلقًى تصادفه في طريقك، فلا تدري أتمُرُّ إلى جواره مرور الكرام أم تدعسه بقدميكَ! بمعنى أنه شخص نكرة، لأن رُوح العالم لو شاءت المحافظة على عنصر من عناصرها، لأعربت عن ذلك بوضوح، فتقول كلمة لا، وتقاوم، فتحثُّنا على تجاوز الدودة، وتمنح الحجرَ صلابة هائلة تُعجِزُنا عن تحطيمه بدون استخدام أدوات. ولكن حتى قبل أن نذهب لجلبِ أداة لتحطيم الحجر، كانت رُوح العالم قد خُلِقتْ قبل فترة طويلة

مجموعة أخرى من العوائق قوامها شكوك وهواجس صغيرة لكنها لا تتزعزع، ولو نجحنا في تبديدها، فمعنى ذلك أن العائق كان ينطوي على معنى مختلف تمامًا منذ البداية.

أما روحُ العالم فتغرس هذه الصلابة في شخصية الإنسان، وفي وعيه بكونه إنسانًا، وفي شعوره بالمسئولية لكونه جزءًا من رُوح هذا العالم. ولو فقد هذا الوعي، لفقدَ نفسه. ولو فقد نفسه واستسلمَ، لفَقَدَ خصاله الجوهرية المميَّزة التي صنعت منه إنسانًا بحق. ولا يمكن للمرء أن يكون على يقين من هذه الحقيقة إلا عندما يوضع في مواجهة شيء نكرة حقير الشأن، أي أمام شكل خلو من المضمون، شيء أسقطته روحُ العالم من حساباتها منذ أمد بعيد».

لم يشعر تورلس برغبة في الردِّ على زميله، بل إنه حتى لم يكن يصغي إلى كلامه باهتمام؛ إذ لم تكن به حاجة إلى الانغماس في مناقشة هذه الاستطرادات الميتافيزيقية، ولم يفكِر قَطُّ كيف أن شخصًا بعقلية باينيبيرج في مقدوره فَهم مثل هذه الأشياء. لم تكن هذه المسائل يومًا مثار اهتمام عنده. ومن ثَمَّ لم يجشِّم نفسه مشقة فهم مغزى كلام باينيبيرج، فأخذ يستمع إليه بنصف اهتمام. لكنه لم يستطع أن يفهم كيف يمكن للمرء أن يستهلَّ كلامه بمقدمة طويلة مسهبة هكذا. ارتعش كل شيء في أعماقه. وبدت طريقة زميله الحذرة في عرض أفكاره –والله أعلم من أين أتى بها– سخيفة، غير ملائمة، فبدأ صبره ينفَد.

لكن باينيبِيرج تابع حديثه بهدوء: «إلا أن الأمر مع رايتينج مختلف تمامًا. صحيح أنه صار كالخاتم في إصبعي بفعلته تلك، لكني لا أضع مصيره في سلَّة واحدة مع مصير بازيني. أنت تعلم أن والدته ليست امرأة غنية، ولو طُرد من المدرسة فستُمنَى كل خُططه بالفشل. أما لو بقي هنا

ربما يمكنه تحقيق شيء، فيما عدا ذلك، فلا فرص كبيرة أمامه. كما أن رايتينج قلبه مملوء بالسواد ناحيتي... هل تفهمني؟ إنه يكرهني... وفي الماضي بذل قصارى جهده لإلحاق الأذى بي بأي طريقة ممكنة... حتى اليوم أعتقد أنه سيكون سعيدًا لو تخلَّص مني. ألا ترى الغنيمة الباردة التي وقعت تحت يدي بامتلاك هذا السر؟».

كاد الخوف يمزِّق ضلوع تورلس، خوفًا من نوع عجيب وكأن ما جرى لِرايتينج يمسُّه شخصيًّا، ثم رمقَ باينيبيرج بنظرة مِلؤها الذعر، إلا أن الأخير ضيَّق عينيه فلم يظهر منهما إلا ثقب صغير، فبدا مثل عنكبوت مرعب هائل الحجم، يجلس هادئًا في عُشِّه، متربصًا بفريسته. ثم تردَّد صدى كلماته الأخيرة في أُذُنَيْ تورلِس على نحو بارد وواضح مثل جُمل الإملاء.

لم يكن تورلس يتابع ما يحكيه زميله، وقال في نفسه ببساطة: «ها هو باينيبيرج يباشر الحديث عن أفكاره مرة أخرى، التي لا عَلاقة لها بالحقائق».

لذلك لم تكن لديه أدنى فكرة عن كيفية وصول الأمور إلى هذه النقطة. كانت الشبكة التي انعقدت خيوطها حسبما يتذكَّر في عالم مجرَّد بعيد قد انعقدت بسرعة هائلة، وبدَتْ له بغتة شبكة ملموسة، حقيقية، بداخلها رأس ملويَّة وعنق مقطوع.

لم يكن [تورلس] يحبُّ رايتينج، لكنه لم ينسَ يومًا طريقة الأخير العذبة، الوقِحة، اللامبالية وهو يتعامل مع المكائد التي تُحاك حوله، خلافًا لِباينيبيرج، الذي كان يثير اشمئزازه وهو ينسج بهدوء وابتسامة خبيثة، خيوط أفكاره ويغزل شبكته الرمادية، البغيضة، كثيرة الخيوط، لتطوِّق الجميع.

من دون ذرة تفكير انفجر تورلس قائلًا: «لا يحقُّ لكَ استغلال هذه الورقة ضدَّه».

وربما كانت كراهيته الدائمة المكتومة لباينيبيرج وراء هذه الكلمة.

بعد لحظة تفكير أجابه باينيبيرج: «ولماذا؟ ستكون فضيحة مدوية لو عُرِفت الحكاية، لكنه لم يعد يمثِّل لي أية خطورة اعتبارًا من هذه اللحظة، ولا يجدر تدمير مستقبله بسبب هذه الحماقة».

عند هذه النقطة جرت تسوية أحد جوانب المشكلة، لكن باينيبيرج واصل كلامه، محوِّلًا دفة الكلام ناحية مصير بازيني.

- «وما رأيك.. هل تظن أنه يتعيَّن علينا الإبلاغ عن بازيني؟»

لم يُجب تورلس، كان يريد مواصلة الإصغاء إلى كلمات باينيبيرج، التي راحت ترنُّ في رأسه وكأنها صدى لوقع خطوات أقدام تدِبُّ فوق أرض جوفاء، فأراد تذوُّق طعم اللحظة.

بعدها تابع باينيبيرج سرد أفكاره: «في الوقت الحالي أعتقد أنه ينبغي إبقاؤه هنا ومعاقبته بأنفسنا، تتحتَّم معاقبته، على الأقل بسبب وقاحته، أقصى إجراء ستتخذه المدرسة هو فصله وإرسال خطاب طويل إلى عمِّه، مؤكد أنكَ تعرف كيف تجري مثل هذه الأشياء هنا: «حضرة صاحب السعادة، لقد ارتكب ابن أخيكَ زلة صغيرة... ضلَّ طريقه، وها نحن نردُّه إليك، مع تمنياتنا أن تنجح مساعيك في تهذيب سلوكه، لكن من المستحيل في الوقت الحالي إبقاؤه بين بقية التلاميذ... إلخ». هل تمثِّل هذه الواقعة أي اهتمام أو قيمة بالنسبة إلى المدرسة؟».

- «وأية قيمة يُمثِّله هو بالنسبة إلينا؟»

- «أية قيمة؟ قد تغدو المسألة عديمة القيمة في نظرك، فربما تصبح ذا يوم مستشارًا أو شاعرًا، ومن ثَمَّ فلن تمثِّل أشياء من هذا القبيل

قيمة بالنسبة إليك، بل ربما تُثير الهلع في نفسك، أما أنا فعندي خُطط مختلفة في الحياة».

في هذه المرة أعاره تورلس أذنَه.

- «بالنسبة إليَّ فبازيني يمثِّل قيمة، بل بالأحرى قيمة كبيرة. أنت تريد طرده من المدرسة، بسبب يقينك الداخلي بأنه كان فاسدًا».

كتمَ تورلس ابتسامته.

- «فتنتهي القصة برُمَّتها في نظرك، سبب تفكيرك أنك لا تتحلى بالموهبة ولا يحرِّكك الاهتمام لاستخلاص دروس من الواقعة. أما أنا فيحدوني اهتمام بها. لأنك لو نويتَ أن تسلك طريقي في هذه الحياة، فسيتحتم عليك أن تنظر إلى البَشَر من زاوية مختلفة؛ لذلك أنوي الاحتفاظ بِبازيني هنا، لأتخذه مادة للتعلُّم».

- «وكيف تنوي معاقبته؟»

لم يجب باينيبيرج من فوره، بل تمهَّل في الردِّ وكأنه يُمعِن النظر في الأثر المتوقَّع لإجابته، ثم قال بنبرة حذِرَة مترددة: «ستكون مخطئًا لو ظننتَ أن العقوبة في حد ذاتها مهمَّة بالنسبة إليَّ، بالطبع يمكنك اعتبار ما أقترحه لونًا من ألوان العقاب... ولكن خلاصة القول لديَّ شيء آخر في ذهني، أريد أن... كيف نقولها... أريد أن أعذِّبه...»

حرص تورلس ألا ينبس بكلمة. وبرغم ضبابية الصورة، فقد أحسَّ أن الأحداث كانت تتكشَّف على المستوى الظاهري قبل أن تتكشَّف له على المستوى الباطني.

لم يكن باينيبيرج قادرًا على تخمين وقْع كلامه في نفس تورلس، فتابع قائلًا: «لا داعي للقلق، فالأمر ليس بالسوء الذي تظُنُّه. وكما شرحتُ لك سابقًا ليس علينا أن نضع بازيني في الاعتبار على أية حال، وقرار تعذيبه

أو العفو عنه مرهون في المقام الأول بحاجتنا الداخلية لفعل هذا السلوك أو ذاك، أعني مرهون بأسبابنا الداخلية. هل في نفسك حاجة إلى تعذيبه؟ أمَّا ما ثرثرتَ عنه سابقًا حول الأخلاق والمجتمع وما إلى ذلك فلا أقيم له وزنًا. عندي أمل ألا تكون قد آمنتَ بذلك. يغلب في ظني أنَّ هذه الأمور غير فارقة عندك. على أية حال لديك فرصة للانسحاب من المسألة برُمَّتِها لو كنتَ تخشى المجازفة. أما عندي فلا تراجع ولا انسحاب، سأمضي في طريقي قُدُمًا. لا مناص من ذلك. كما أن رايتينج لن يتراجع، إنه يعوّل دومًا على وجود شخص تحت سيطرته، يتدرَّب عليه، يستعمله وسيلةً. إنه ينشد السيطرة، ولو سنحتْ له الفرصة فستَلقى أنتَ على يديه ما لقِيَه بازيني. أما عندي فالأمر يتجاوز ذلك بكثير، الأمر أشبه بالتزام قطعته على نفسي. لا أعرف كيف أشرح لك الفرق بيني وبين رايتينيج؟ أنت تعلم أن رايتينج يُعَظِّم قدر «نابوليون»، أما أنا فمن أوقِره وأجِلُّه ينبغي أن يكون فيلسوفًا أو ناسكًا من الهند. سيضحّي رايتينج بحياة بازيني من باب الفضول لا أكثر. سيزهِق رُوحَه لاكتشاف الأسرار التي تنطوي عليها مسألة الرُّوح وما وراءها، وكما أخبرتك سابقًا، فالأمر سِيَّان عنده لو أجرى التجرِبة عليك أو عليَّ أو على بازيني، لا فرق. على صعيد مقابل، فأنا وأنت لدينا شعور مشترك بأن بازيني في آخر الأمر بَشَر من لحم ودَم. كما أن هذه القسوة البالغة تؤذي رُوحي. لكن هنا مربط الفرس؛ وجودٌ ضحية، ألا ترى أنني مشدود بين خيطين؛ الأول خيط غامض، يشُدُّني إلى الخمول السلبي المتناقض مع قناعاتي الراسخة، والثاني خيط منسجم مع ظمَئِي الرُّوحي، مع ولعي بالمعرفة الباطنية العميقة، ليربطني في نهاية المطاف الكون. كما سبق وأن أخبرتك فالأشخاص الذين على شاكلة بازيني مجرد نكرة، شكل خلو من المضمون، وُلِدوا من رحِم المصادفة. أما البشر الحقيقيون فهم القادرون على سبر أغوار أنفسهم، أولئك المتمتِّعون بخصال كونية،

القادرون على الدخول في علاقة مع سيرورة الكون العظيم. وهؤلاء في مقدورهم الإتيان بالمعجزات وأعينهم مغلقة، لأنهم قادرون على توظيف كل قوى العالم، الباطنية منها والخارجية. لكن دعني أقول لك إن كل مَن ساروا وراء الخيط الثاني، تَحتَّم عليهم تمزيق صلتهم بالخيط الأول أولًا. لقد قرأتُ عن طقوس التطهير المرعبة لدى الرهبان الهنود المستنيرين، وأظنكَ تعلم شيئًا عن وسائل النُّسَّاك الهنود أيضًا.

أما الأفعال البشعة القاسية التي تمُارَس في أثناء تلك الطقوس فهي تنشد قمع الشهوات والغرائز الدنيوية البائسة، أيًّا ما كان اسمها: شهوة الغرور أو الطعام أو الفرحة أو غريزة شفقة، لكنها الشهوات والغرائز التي لا همَّ لها إلا إطفاء نور الشعلة الباطنية التي يستطيع كل إنسان منا أن يوقدها داخل رُوحه. لكن رايتينج لا يعرف إلا الشهوات الحسِّية، أما أنا فأتبعُ الخيط الثاني. ربما يرى الجميع أن رايتينج يسبقني بخطوة، وهذا لأن طريقي أبطأ وأخطر، ولكن في مقدوري التقدُّم عليه بقفزة واحدة مثل الدودة.

يزعم الناس أنَّ العالمَ مُسيَّر وفق قوانين آلية صارمة يستحيل خرقها، وهذا عين الخطأ. لن تجد هذا الكلام مكتوبًا إلا في كتب المدرسة. لا أنكر أن العالم الخارجي صعب المراس، يتعذَّر التلاعب بقوانينه، لكن ثَمَّة مَن نجحوا في هذا الأمر، وهذا وارد في نصوص مقدَّسة خضعتْ لكثير من الفحص والتمحيص، لكن أكثر الناس لا يعلمون عنها شيئًا. في هذه النصوص قرأتُ عن رجال استطاعوا تحريك الحجارة والرياح والماء عبر قوة الإرادة وحدها، وأن صلواتهم بلغت من القوة والخشوع مبلغًا تعجِز أية قوة في الدنيا عن صدِّه. لكن كل ذلك أيضًا ليس إلا انتصارًا خارجيًّا للرُّوح، فمَن استطاع رؤية أعماق رُوحه سيقدر على الانسلاخ عن بدنه، فالبدن لا يتجاوز كونه صورةً لحياة مؤقتة؛ وفق هذه النصوص المقدَّسة ينتقل هؤلاء البشر مباشرة إلى مملكة رُوحانية في أعلى ذُرى السموِّ».

كان باينيبيرج يتكلم بنبرة جادة ومشاعر منضبطة، بينما أبقى تورلس عينيه مُغمَضَتَيْن طوال الوقت؛ مستشعرًا أنفاسَ صاحبه إذ تخترق أنفه، وهو يستنشقها كمخدِّر يشلُّ الحواس، في غضون ذلك وصل باينيبيرج إلى ختام كلامه قائلًا: «ها أنت ترى بيت القصيد عندي؛ إنَّ كل رأي يحاول إقناعي بترك بازيني وشأنه هو رأي وضيع وساقط. سِرْ في هذه الطريق لو شئتَ، أما أنا فأرى في إغضاء الطرف عنه فرضية مسبقة يجب التخلُّص منها مثلما يجب التخلُّص من كل شيء يصرف انتباهي عن الطريق إلى نفسي. لا أرى ضيرًا في تعذيب بازيني، وأقصد بتعذيبه أن أذيقه صنوف الإهانة وأن أعفِّر جبينه في التراب، فما من هدف نبيل يُبلغ من دون تضحية، وكل تضحية تنطوي على لون من ألوان التطهُّر. بفضل بازيني أتعلَّم يوميًّا أن كون المرء من بني البشر فقط لهُوَ أمر بلا قيمة، مظهر خارجي لا يختلف عن مظهر القردة».

لم يفهم تورلس كلَّ ما قيل. وتخيَّل أنَّ حبلًا غير مرئي انعقد بغتة، متحولًا إلى خيط مادي معقود بإحكام. كان صدى كلمة باينيبيرج الأخيرة ما يزال يتردَّد داخل رأسه: «**مظهر خارجي لا يختلف عن مظهر القردة**».

بدت هذه العبارة تعبيرًا صادقًا يصِف علاقته بِبازيني. ولكن ألم يكن السحر الغريب الذي مارسه عليه بازيني عائدًا إلى هذه الأقنعة؟ لأن تورلس ببساطة لم يستطع وضع نفسه مكان بازيني؛ ومن ثَمَّ كان يرى الأخير رؤية غائمة من وراء هذه الصور الضبابية؟

ألم يسبق لتورلس، عندما حاول في السابق رسم ملامح بازيني في ذهنه، أن رأى وجهًا آخر غائم الملامح متواريًا خلف وجه بازيني الأصلي؟ ألم يكن وجهًا شبيهًا بوجهه الأصلي، لكنه في الوقت نفسه، بعيد الشبه عنه؟

وبدلًا من التفكير في خُطط باينيبيرج الغريبة، وجدَ تورلس نفسه شبه غارق وسط هذه الأحاسيس الجديدة العجيبة، فأراد أن يصفي ذهنه، وأن يحشد تركيزه على تأمُّل الأمر عن كثب، مسترجعًا ظهيرة ذلك اليوم، أي قبل أن يعلم شيئًا عن جريمة بازيني، فاكتشف أن هذه الرؤى لم تبرَح تراوده أيضًا قبل معرفته بأمر بازيني، طالما أحسَّ بشيء لم تكن أفكاره قادرة على التعامل معه؛ شيء شديد البساطة وشديد الغرابة في آنٍ واحد.

رأى صورًا لم تكُن في الحقيقة صورًا. أمام تلك الأكواخ على جانب الطريق، عندما دلفَ هو وباينيبيرج إلى متجر المخبوزات. كانت هناك أوجه شَبَه وأوجه اختلاف متجاورة في آنٍ واحد، كانت هذه اللعبة. هذا المنظور الذاتي لرؤية الأشياء هو تحديدًا ما ألهب خياله.

وها قد ظهر شخص ما استأثر بالصورة كلها. تجسَّدت كل هذه الصور في إنسان، وأمستْ شيئًا واقعيًا نابضًا بالحياة. انتقلت كل هذه الغرابة متجسِّدة في هيئة إنسان من لحم ودم، فغادرت مملكة الخيال لتهبط على أرض الواقع، ومنذِرَة بالخطر والتهديد.

إلا أنَّ هذه الحماسة المفاجئة أرهقت أعصابه، فانقطع حبل أفكاره وانفرطَ عِقدها إلا فكرة واحدة مؤدَّاها أنه لا ينبغي ترك بازيني يذهب إلى حال سبيله، وأن الأخير سيلعب دورًا حاسمًا في حياته، وإن لم يكن يعرف أي دور بالضبط.

وعندما تذكر كلام باينيبيرج هزَّ رأسه مدهوشًا: «أكان باينيبيرج يبحث أيضًا عن الـ...؟ ربما لم يكن يبحث عما أبحث عنه، لكنه على الأقل عثر على الكلمة المناسبة لوصف الأمر».

كان تورلس حالمًا أكثر منه واعيًا، فعجز عن التمييز بين مأساته النفسية وتخيُّلات باينيبيرج، وأحسَّ أن الحبل المعقود أخذ يضيق ويصير أشدَّ إحكامًا حول كل شيء.

انتهى الكلام عند هذا الحد. أطفَآ المصابيح، وتسلَّلا عائدَيْن بحذر إلى عنبر النوم.

(7)

لم تحمل الأيام التالية جديدًا.

انكبَّ التلاميذ على تحصيل دروسهم، وبذل رايتينج قصارى جهده لكيلا يجمعه أي لقاء بصاحبيه، بينما تحاشى باينيبيرج خوض مزيد من النقاش.

في تلك الأثناء، ومثل تيار هادر ألجمَه الشللُ فسَكَن، حفرت الأحداث الأخيرة حفرة عميقة في نفس تورلس، وقطعت سُبُل العودة أمام أفكاره. نسِي تمامًا فكرة طرد بازيني من المدرسة، وأحسَّ للمرة الأولى بالرغبة في الالتفات إلى نفسه فقط، وإسقاط كل شيء آخر من حساباته. أسقطَ بوزينا من حساباته، وتحوَّل الشعور الذي كان يراوده ناحيتها من وقت إلى آخر إلى مجرد ذكرى خيالية طواها الماضي، لتحلَّ محلها أمور أكثر جدِّية.

ولم تكن هذه الجدِّيَّة في عينيه بأقل عذوبة من ذكرى الماضي الخيالية.

***

خرج تورلس للتمشية بمفرده في المتنزَّه وذهنه غارق في التفكير.

كان وقت الظهيرة تقريبًا، وشمس أواخر الخريف تُصافح الصيفَ المنصرم فوق المروج والممرات مصافحة وادعة. كان تورلس حينها مضطرب المِزاج، فلم يجد في نفسه رغبة في مواصلة المشي. اكتفى بالدوران حول مبنى المدرسة، ثم ارتمى بجسده فوق العشب الذابل الذي يخشخش، عند نهاية جدار المبنى الجانبي الخالي من النوافذ تقريبًا.

فوق رأسه امتدت السماء بلونها الأزرق الباهت الكئيب المميّز لفصل الخريف، لتقطعها غيوم صغيرة بِيض. استلقى تورلس على ظهره، وعيناه الزائغتان الحالمتان، تشخصان إلى قمتي شجرتيْن عاريتين من الأوراق تقريبًا.

تحوَّلتْ أفكاره إلى باينيبيرج. يا له من شخص غريب الأطوار! كانت كلماته أقرب إلى صلوات تُتلى في المعابد الهندوسية المتداعية، كلمات نطقتها أفواه الأصنام الشريرة والأفاعي المسحورة الساكنة أعماق الكهوف المظلمة.

كيف تتردَّد هذه الكلمات في وضَح النهار في مدرسة في أوروبا الحديثة؟ برغم ذلك بدت هذه الكلمات وكأنها بلغت مرادها، بعدما قطعت طريقًا طويلًا بلا نهاية، وسلكت نحو ألف منعطفٍ.

ثم لاحظ بغتة، وكأنه يتنبَّه لذلك للمرة الأولى، علوَّ السماء الشاهق.

صُعق من هول المفاجأة.

من بين السُّحُب التي تتهادى فوق رأسه برزت طاقة زرقاء صغيرة عميقة عمقًا هائلًا يصعُب وصفه. كان واثقًا من قدرته على بلوغ هذه الطاقة عبر ارتقاء درجات سُلَّم طويل طويل. لكنه كلما غاص ببصره أكثر، وحمله نظرُه إلى الأعلى أكثر، تراجعت تلك الحفرة الزرقاء المضيئة إلى الوراء أكثر وأكثر، وبرغم ذلك أحسَّ أنه ليس من سبيل آخر سوى ضرورة الصعود إلى تلك الحفرة المضيئة ولو مرَّة واحدة وإيقاف تراجعها ببصره، فراحت هذه الرغبة تؤرّقه.

بدا الأمر كما لو أن بصرَه الشاخص إلى عَنان السماء يُطلِق نظرات شبيهة بالسهام المخترقة عُباب الغيوم، لكنها مهما بلغت مبلغها، كانت

تسقط ولا تصيب هدفها أبدًا. راح تورلس يفكِّر في الأمر، محاولًا الاحتفاظ برباطة جأشه وتفكيره المتوازن قدر الإمكان.

لكنه قال في نفسه: «ليست هناك نهاية بالقطع، سيستمر الأمر ويتواصل، بلا نهاية».

قالها وقد أبقى بصره مثبتًا على صفحة السماء، كمَن يجرِّب مفعول تعويذة سحرية، ولكن بلا جدوى. لم تخبره الكلمات بشيء، أو بالأحرى قالت شيئًا مختلفًا تمامًا، وكأنها كانت تتحدث عن الموضوع ذاته، ولكن عن جانب آخر مختلف وغريب وغير مبالٍ بالمسألة.

- «إلى ما لا نهاية»، قالها في نفسه.

عرَف هذا الكلمة من دروس الرياضيات، ولم يتخيَّل أنها تنطوي على معنى خاص مميز. ذاعت الكلمة على الألسنة. اخترعها رجل ذات مرة، ومن حينها غدا استعمالُها ممكنًا في الحساب مثلها مثل شيء متعيِّن له أول وآخر.

في البداية اقتصر استخدامها على مادة الرياضيات، ولم يبحث تورلس خارج حدود هذه الدائرة. لكنه صُعِق لمَّا تنبَّه بغتة إلى أنَّ هذه الكلمة باعثة على قلق بشكل مفزع، إذ بدت له مثل لُعبة يتقنها ويقلِّبها بين أصابعه كيف يشاء، ثم خرجت عن طوعه. شيء فاقد العقل، جامح، مُدمِّر، خلَدَ إلى النوم بين يدي مخترعه في البداية، ثم ما لبث أن أفاق من نومه وتحول إلى وحش هائج.

وها هي الكلمة في السماء نابضة بالحياة، معلَّقة فوق رأسه ترمقه بنظرات الترويع والسخرية. ولأنه لم يطق تحمُّل ألم هذه النظرة، اضطُرَّ في النهاية إلى إغلاق عينيه.

***

استيقظ من نومه مجددًا على هبوب عاصفة من الرياح أتَتْه عبر العشب الذابل، وسَرت في قدميه برودة لطيفة، أشاعت في أطرافه حالة من الخمول اللذيذ. وشاب شعورَ الخوف السابق شيءٌ من التعب المحبَّب.

شعر أن السماء باتساعها الهائل وصمتها المُطبِق تواصل التحديق فيه، لكنه تذكَّر أنه كثيرًا ما جرَّب هذا الشعور، وأنه كثيرًا ما كان يتجول عبر هذه الذكريات في منطقة ضبابية تتوسط اليقظة والحُلم، فيحسُّ أنه عالق في قبضتها.

كان أولها ذكرى الطفولة التي رأى فيها انتصاب الأشجار أمامه، محملِقةً إليه في تجهُّم وصمت وكأنها بشر مسحور. جرَّبَ هذا الشعور الذي ظلَّ يعاوده لاحقًا.

بل إنَّ الأفكار التي راودته وهو في بيت بوزينا كانت مسكونة بهذا الشعور؛ شعور متفرِّد، مستبصر، وأشد أهمية مما بدا في البداية.

مَثَله في ذلك كمثل لحظة السكون المطلق التي عمَّتْ الحديقة، أمام نافذة متجر الحلويات، قبل أن تسقط الستارة الداكنة للشهوات الحسية. في هذه الأوقات كان رايتينج وباينيبيرج يتحوَّلان في أقل من ثانية، إلى شيء غريب الأطوار، غير حقيقي، ولكن ماذا عن بازيني؟

تمزَّقت روح تورلس إلى نصفين بسبب الصورة التي كوَّنها عن مصير بازيني، لكنها سرعان ما كانت تصير صورة منطقية معتادة، وفي الدقيقة التالية يخترقها صمت مشحون بصُورٍ بينها قاسم مشترك وبين كل الانطباعات الغريبة التي تساوره، بعدها كان الصمت يخترق طبقات وعيه تدريجيًّا، مُطالبًا بمعاملته كشيء حقيقي حيٍّ، تمامًا كما تخيَّل مفهوم «اللانهائية» الرياضي.

أحسَّ تورلس أن هذا الشعور يحاصره من كل النواحي. لطالما اعتبر هذا الشعور منذِرًا بالخطر مثل قوى مجلَّلة بالسواد، قادمة من بعيد، وكان يجفل منها على الدوام برد فعل غريزي، ويرمقها بنظرة وجِلة خجول.

إلا أن مصادفة وقعت فشحذت انتباهه، مثل ناقوس إنذار دقَّ من جميع الجهات عند صدور الإشارة، فأشاع في نفسه اضطرابًا هائلًا، آخذًا في التضاعف كل لحظة.

مسَّ تورلس طائفٌ من جنون جعله يرى الظواهر والأحداث والبشر كأشياء مسكونة بأسرار السحر والغموض؛ أشياء وإن كان مخترعها قد قيَّد سرَّها بتعويذة بريئة لا تحمل شرًّا، لكنها باتت تُنذر بخطر التحول إلى شيء لا يعرفه، قابل للانفجار في أية لحظة.

كان يدرك حتمًا وجود تفسير بسيط لكل ما يجري، ولشَدَّ ما كانت دهشته عندما بدا له التفسير مجرد طبقة خارجية تتشقَّق دون أن تكشف عما في أعماقها؛ تلك الأعماق التي كان تورلس قادرًا على رؤية الوميض المنبعث منها، وكأنها ينظر بعينين ليست كأعين البشر.

كان تورلس مستلقيًا، محاصَرًا بذكريات تُسفر عن أفكار مغرقة في الغرابة، وكأنها نبت شيطاني. وكان قوام هذه الذكريات اللحظات العَصِيَّة على النسيان، والمواقف المتشظية المفتقرة إلى كل رابط، لكنها برغم ذلك تجعل من حياتنا مرآة عاكسة لما يدور في أذهاننا، كما لو أنها تركض بسرعة واحدة في مسارات متوازية، ثم يصيبها الاضطراب فتتقاطع المسارات.

تواترت على ذهنه ذكرى الأمسيات المشحونة بالصمت المفزع، وذكرى الاضطراب الهائج المرتعش الذي مَسَّه في ظهيرة أحد أيام الصيف، فأثار فيه رعشة متوهجة أثرها كأثر مرور سرب من السحالي قزحية الألوان.

ثم تَذكَّر فجأة ابتسامة زميله القديم، الأمير الصغير، تذكَّر نظرته وحركة اجترحها آنذاك، بعد أن دبَّ بينهما الشِّقَاق لاختلاف الأفكار، فتحرَّر من شبكة العلاقات التي نسجها حول نفسه، واخترقَ فضاء عالم جديد غريب انفتح أمامه بضربة واحدة غير متوقَّعة، كما لو أن الحياة كانت مركَّزة في لحظة واحدة مكثفة من الوجود.

ثم عاودته مجددًا ذكرياته في الغابة، عندما كان وسط الحقول. أعقبتها ذكرى صورة داخل إحدى الغرف المظلمة في منزله، وهي الصورة التي أثارت في عقله ذكرى صديقه المفقود.

ثم كلمات قصيدة تَردَّد صداها في عقله، ثم عدد من الأشياء الأخرى التي لا يجوز فيها المقارنة، ونحن نتكلَّم عن التجربة نفهمها.

ما يحدث دائمًا أنَّ التجربة التي نعايشها معايشة عفوية دون تفكير، تغدو مُربِكة وغير مفهومة حينما نحاول تقييدها بأفكارنا. في حينَّ أن ما يبدو غامضًا، خارج طَوْر إدراكنا، عميق الغور يتحول إلى شيء بسيط لا يثير قلقنا بمجرد انغماسه في تيار حياتنا اليومية، شريطة أن نفهمه بالإشارة، لا العبارة.

***

وهكذا صارت الذكريات تتقاسم سرًّا واحدًا مشتركًا.

اصطفَّت الذكريات كلها أمامه بوضوح فتخيَّل أنه قادر على لَمسِها؛ كان اصطفافها يقول إنها تنتمي إلى عائلة واحدة، في حين أنَّ هذه الذكريات طالما راودته في الماضي مصحوبة بشعورٍ غامض، لم يُعِره وقتها انتباهًا كثيرًا. وكان هَمُّه في هذه اللحظة اجترار هذا الشعور القديم من جديد.

ثم خطر بباله أنه ذات يوم، بينما كان يقف مع والده يتأملان معًا منظرًا طبيعيًّا، فإذْ به يهتف: «إنه منظر بديع»، ولشَدَّ ما شعر بالإحراج لما فرِح والده بهذه الكلمة. لأنه كان في مقدوره أن يقول أيضًا: «أوه! إنه منظر محزن للغاية».

دائمًا ما عذبه فشله في اختيار الكلمات الملائمة، ودائمًا ما كان يعذِّبه وعيه شبه اليقظ بأن الكلمات مجرد مبررات واهية عشوائية عاجزة عن التعبير عما يشعر به.

وها هو الآن يتذكَّر الصور والكلمات التي غدت أشدَّ وضوحًا من كل شيء، مثلما يتذكَّر شعوره بأنه يكذب بلا سبب. راح يرسل بصرَه متأملًا ذكرياته، وفي كل مرة يرتدُّ إليه بصرُه خائبًا بلا أمل في الخلاص.

أما البسمة الجزلة التي علَت شفتيه بسبب تزاحم الأفكار في ذهنه، فتحوَّلت شيئًا فشيئًا إلى ملمح من ملامح المعاناة. أحسَّ بحاجة ماسَّة إلى العثور على جسر، على رابط، على لون من ألوان التصالح بينه وبين كل ما كان يقف صامتًا أمام عقله.

وفي كل مرة كانت نفسه تطمئِنُّ إلى فكرة من الأفكار، ما يلبث أن يثور اعتراض يقول: «أنت تكذب!» فأحسَّ كما لو أن عليه خوض عملية انقسام لا تنتهي تُسفِر عن مخلَّفات وبقايا صلبة تقفز في وجهه وتمنعه

عن مواصلة الطريق، أو لو أنه بتر أصابعه في غمرة صراعه المحموم لفكَّ عقدة عصِيَّة على الفك.

في النهاية استسلمَ للأمر الواقع. أُغلِقَتْ الأبواب في وجهه، ونمت ذكرياته آخذة هيئة مشوَّهة تشوُّهًا مفزعًا. صوَّب بصره ناحية السماء مجددًا، وظن أنه قادر على هتك أسرارها بضربة حظ، وانتزاع إجابات عن كل ما يؤرِّق باله، فحلَّ عليه التعب وحاصره شعور بالوحدة.

لم تتكلَّم السماء، فتضاعف شعوره بالوحدة؛ إذ هو قاعد أسفل القبة الساكنة الصامتة، وفي أعماقه شعورٌ أنه مجرد نقطة صغيرة ترزح أسفل جثة شفافة هائلة الثِّقل. لكن الأمر لم يعد يخيفه كما في السابق، وبدا له كما لو أنَّ ألمًا قديمًا مألوفًا قد غزا أطراف جسده السليمة.

وبدا له كما لو أنَّ الضوء قد اكتسى بغلالة حليبية اللون، تتراقص أمامه مثل ضباب شاحب بارد.

أدار رأسه ببطء وحذر، وجال بصره حوله ليرى ما إذا كان شيئًا قد تَغير، فوقع نظرُه على سطح الجدار الرمادي الخالي من النوافذ خلفه، بدا له وكأنَّ الجدار يميل إلى الأمام ويراقبه في صمت. بين الحين والآخر كان هناك صوت قطرات المياه متدفقةً من أعلى إلى أسفل، كما لو أن الجدار صار مسكونًا بمخلوق غريب. غالبًا ما استرق السمع إلى هذا الصوت في مخبئه بالعلِّيَّة، كلما كان باينيبيرج أو رايتينج يستعرضان عوالمهما الخيالية، وكان يستمتع به أيما استمتاع، كما لو أنه يستمعُ إلى الموسيقى المصاحبة لعرض مسرحي جروتيسكي.

أما في هذه اللحظة فقد أحسَّ أن ضوء الشمس الساطع صار مَخْبأً يتعذر الوصول إليه، وكان الصمت يُطبِق على تورلس من جميع الجهات. لم يقوَ على تحويل بصره عما أمامه.

إلى جواره، وفي بقعة قريبة من زاوية مظلمة رطبة، رأى زهور حشيشة السعال، ناشرةً أوراقها العريضة كحصنٍ مثالي لاختباء الديدان والقواقع. سمع تورلس دقات قلبه. ثم طرق سمعه صوت غمغمة خافتة أخرى، وكان هذا الصوت هو علامة الحياة الوحيدة وسط عالم صامت أبدي.

(8)

في صباح اليوم التالي رأى تورلس رايتينج واقفًا مع باينيبيرج يتكلَّمان، فذهب إليهما.

قال باينيبيرج:

- «تكلمتُ مع رايتينج وسوَّينا المسألة، يبدو أنكَ لستَ مهتمًّا بهذه الأمور».

تصاعدت مشاعر الغضب والغيرة في أعماق تورلس من هذه الانعطافة المباغتة في مسار الأحداث، لكنه لم يعرف هل يشير إلى حوار البارحة أمام رايتينج، فقال: «كان في مقدورك أن تدعُني على الأقل، فأنا طرف في اللعبة مثلكَ تمامًا».

- «كنا سنفعل ذلك حتمًا، عزيزي تورلس».

أجابه رايتينج الذي خشى هذه المرة ظهور عراقيل لا لزوم لها قائلًا: «لم نتمكن من العثور عليك وكنا نضع موافقتكَ موضع الاعتبار، والآن ما رأيك في بازيني؟».

(لم ينطق بكلمة اعتذار، كما لو أن تصرُّفه كان بدهيًّا).

- «ما رأيي فيه؟ رأيي أنه شخص حقير».

أجاب تورلس بشيء من الإحراج.

- «معك حق؛ بل شديد الحقارة».

- «ولكن أليس ما تفعله شيئًا جميلًا أيضًا؟»

ابتسم تورلس على مضض، حيث شعر بالخجل لأنه لم يرُدَّ له الصاع صاعين.

- «أنا؟»

هزَّ رايتينج كتفيه، فواصل تورلس كلامه: «وما الضير؟ على المرء أن يجرِّب كل شيء في الحياة، وبما إنه وُلِد بهذا الغباء وهذه الحقارة فـ...».

هنا قاطع باينيبيرج مسار الحديث قائلًا: «هل تكلمتَ معه من وقتها؟».

- «نعم جاءني بالأمس وطلب إقراضه مزيدًا من المال بسبب ديون جديدة يعجِز عن سدادها».

- «وهل أقرضتَه شيئًا؟»

- «لا، لم أُعطِه شيئًا بعدُ».

قال باينيبيرج: «عظيم. ها قد سنحت الفرصة ليقع في قبضتنا. يمكنكَ استدعاؤه للحضور في أي مكان هذا المساء».

- «أين؟ في الغرفة؟»

- «لا، الأجدر ألَّا يعرف شيئًا عنها في الوقت الحالي. مُرْه بالنزول إلى الطابق الأرضي، في المكان الذي قابلتَه فيه في المرة السابقة».

- «متى؟»

- «لنقُل... في الحادية عشرة».

- «حسنًا. هل تريد التمشية قليلًا؟»

- «نعم، ولكن أمام تورلس بعض الفروض الدراسية لينجزها. أليس كذلك يا تورلس؟»

لم تكن أمام تورلس أية فروض دراسية لينجزها، لكنه خمَّن وجود سرٍّ بين الاثنين لا يوَدَّان الكلام عنه أمامه. استاء من نفسه بسبب تحفُّظه الذي منعه من فرض نفسه عليهما، فشيَّعهما بنظرة غيور وهما يمشيان، وطافت برأسه كل الخطط التي يرتِّبان لها سرًّا. ثم لاحظَ براءة واحتشام طريقة مشي رايتينج المستقيمة، التي لم تكن تختلف عن كلامه. ثم حاول أن يتخيَّل كيف كان يبدو في تلك الليلة؛ على المستوى الجوَّاني الروحاني.

لا بدَّ أن الأمر كان مثل غرق بطيء، طويل لرُوحين متشبِّثَتيْن بعضهما ببعض، رُوحان تهويان إلى أغوار مملكة مدفونة تحت الأرض؛ ولا بد أنّ الأمر تخلَّلته لحظة خفتت فيها أصوات العالم، ثم تلاشت تمامًا. هل في مقدور الإنسان بعد اقتراف فعلة شائنة كهذه، أن يعود مبتهجًا، خفيف الرُّوح مرة ثانية؟ يبدو أن الأمر لم يكن يعني الشيء الكثير بالنسبة إلى رايتينج.

ودَّ تورلس لو سنحت له الفرصة وطرح على رايتينج هذا السؤال، لكنَّ خجله الطفولي المعهود ألجم لسانه، فقرَّر ترك شأن رايتينج لعُشِّ العنكبوت، المدعو باينيبيرج.

***

في الحادية عشرة والرُّبع رأى تورلس كلًّا من باينيبيرج ورايتينج يغادران الفراش ويرتديان ملابسهما.

- «صه! صبرًا. سيثير الأمر الانتباه لو غادرنا نحن الثلاثة في الوقت نفسه».

لاذ تورلس بالاختباء تحت بطانيته مرة أخرى.

في الممر تقابلوا مجددًا، ثم صعدوا إلى العلِّيَّة بخطواتهم الحذرة المعتادة.

سأل تورلس: «أين بازيني؟»

- «سيأتي من الجانب الآخر، رايتينج أعطاه المفتاح»

بقوا في الظلام طوال الوقت، ولما وصلوا الطابق العلوي، أمام الباب الحديدي الكبير، أشعل باينيبيرج فانوسه الصغير متوهّج الإضاءة. لم يستجب قُفلُ الباب للمفتاح بعد أن ظلَّ سنوات طويلة ساكنًا، رافضًا الانصياع لأوامر المفتاح المُقلَّد.

استجاب في نهاية الأمر، مُحشرِجًا بصوت مزعج، وأصدر الباب الثقيل صريرًا حادًّا بعد دوران المفصَّلات الصَّدِئة، ثم انفتح على مضض. من قلب الغرفة انبعثت دفقة هواء ساخن عطِن الرائحة، أشبه بالهواء المنبعث من الصوبات الزجاجية الصغيرة.

أغلق باينيبيرج الباب مرة أخرى.

هبط الثلاثة السُّلَّم الخشبي الصغير وانحنوا بأجسادهم لدى مرورهم بعارضة خرسانية كبيرة. إلى الجوار أحواض مياه هائلة الحجم، مخصصة كوسيلة إطفاء في حالة اندلاع حريق. وبدا من الواضح أن الماء داخل الأحواض راكد منذ فترة طويلة، حيث انبعثت منه رائحة عطِنة.

بدت تفاصيل البقعة باعثة على الانقباض: سخونة المكان تحت السقف، التهوية السيئة، شبكة العوارض الخرسانية، التي اختفى بعضها في الظلام في قمة العلِّيَّة، وبعضها الآخر زاحفًا على الأرض على هيئة شبكة شبحية الشكل. أطفأ باينيبيرج نور مصباحه المتوهّج، وجلسوا دقائق طويلة بلا حراك وسط الظلام الدامس دون أن ينبس أحدهم بكلمة.

في نهاية المكان ووسط العتمة صرَّ الباب صريرًا هادئًا حذِرًا، من النوع الذي يجمِّد الدماء في العروق، بدا كمثل صوت حيوان مفترس يدنو بهدوء من فريسته. تلاها وقع خُطوات لا يمكن تحديد كُنهها؛ وطء

أقدام على الخشب، ارتطام جسد بالحائط، سكون مُطبِق... ثم مزيد من الخطوات الحذرة... ثم لحظة انتظار... ثم صوت بشري خافت:

- «رايتينج؟»

أزاح باينيبيرج الغِطاء من فوق مصباحه المتوهّج، مُصوِّبًا شعاعه ناحية البقعة التي جاء منها الصوت. توهَّجت بعض العوارض الخرسانية بظلال حادة، ولم يكن ثَمَّة شيء يمكن رؤيته سوى مخروط من الغبار الراقص. لكن وقع الخُطوات ما لبث أن صار أشدَّ اقترابًا وثباتًا.

بعدها سُمع –وعلى نحو قريب للغاية– دبيب أقدام فوق الخشب، ليظهر بعدها وجه بازيني الشاحب المغبَّر وسط الإضاءة المموَّهة عند قاعدة مخروط الضوء.

***

حانتْ من بازيني ابتسامة رقيقة عذبة. لكنها جامدة كابتسامة مُطلَّة من صورة معلَّقة، وقد أشرقت وسط إطار الضوء المسلَّط عليها. استندَ تورلس إلى أحد العوارض، شاعرًا بارتعاش عضلات جفنيه. وبنبرة صارمة وكلمات لا يخالجها أي اهتزاز، شرع باينيبيرج يسرد الأفعال المشينة التي اقترفها بازيني، ثم بادَره بالسؤال: «ألا تنتابك ذرة خجل من نفسك؟».

رمقَ بازيني رايتينج بنظرة مستغيثة وكأنه يتستنجِدُه.

في اللحظة نفسها سدَّد رايتينج لكمة قوية إلى وجه بازيني، الذي ترنَّح متراجعًا إلى الوراء ليتعثَّر في أحد العوارض السميكة ويسقط فوق الأرض، فانقض عليه كل من رايتينج وباينيبيرج. سقط المصباح فوق الأرض، مُلقيًا أمام قدمي تورلس شعاعًا غامضًا من الضوء.

ومن وسط الجَلَبة المتصاعدة استطاع تورلس أن يتنبَّه إلى أنهما جرَّداه من ملابسه، وراحا يضربانه بشيء حادٍ لدِن. كان من الواضح له أنهما دبَّرا كل شيء مسبقًا.

سمع تورلس نحيبَ بازيني وأنينه الخافت، وتوسُّلاته إليهما، طالبًا الرحمة. في النهاية لم يعد يميِّز سوى صوت أنين، شيء مثل عواء خانق يخرج وسط الشتائم المكتومة وصوت أنفاس باينيبيرج الثقيلة المحمومة.

لم يتحرَّك قيد أنملة.

منذ البداية اعترته رغبة قوية في أن ينقضَّ على بازيني ويوسعه ضربًا، لكن حال بين ذلك إحساسه بأنه وصل بعد فوات الأوان وألا فائدة تُرجى من ذلك، فتراجع كما لو أنَّ يدًا ثقيلة أقعدته وشلَّت أطرافه.

راح يحدِّق إلى الأرض بنظرة ثابتة وكأن لا شيء مما يجري يثير انتباهه. لم يجهد أذنيه في متابعة الجلَبة الدائرة حوله، ولم يشعر بدقات قلبه تخفق بقوة أقوى من المعتاد. راحت عيناه تتابعان بِركة الضوء المتكوِّنة أسفل قدميه، كاشفةً بوضوح عن رقائق الغبار ونسيج عنكبوت صغير قبيح. أما بعيدًا فكانت أشعة ضوء المصباح تشق طريقها بين العوارض الأسمنتية، مختنقةً في شفق قذِر مغبَّر.

كان في مقدور تورلس الجلوس هكذا لمدة ساعة كاملة من دون أن يحسَّ بمرورها، لم يكن يفكِّر في شيء بعينه، لكن عالمه الباطني الجوَّاني كان في ذروة انشغاله.

في الوقت ذاته كان يراقب نفسه، وكأنه إنسان يحدِّق في الفراغ، ولا يستطيع إدراك نفسه كمثل ومضة برق خاطف غامضة تمرُّ إلى جواره. عندها ومن وسط ضباب الإبهام، من زاوية أخرى، وعلى نحو تدريجي، تجد الرغبة طريقها إلى المنطقة الأكثر وضوحًا من وعيه.

دفع شيء غامض تورلس إلى الابتسام. ثم اشتدَّت داخله الرغبة مجددًا. شدَّته الرغبة من حيث كان يجلس، ليجثوَ على ركبته، ويضغط بجسده فوق الأرض. أحسَّ أن عينيه تتَّسِعَان لتبدوا مثل أعين الأسماك، ومن خلال جسده العاري شَعر بنبضات قلبه فوق ألواح الأرض الخشبية. استولت عليه حالة من الهياج العنيف، واضطر للتشبُّث بالعارض المعدني، ليقاوم الدوار الذي حل به ليشدَّه إلى الأسفل. تفصدت فوق جبينه حبات العرق، وأخذ يسأل نفسه بقلق عن معنى كل هذا.

أفاق من حالة اللامبالاة التي طوَّقته، وأخذ يرهف أذنيه إلى ما يفعله الثلاثة الآن في جُنح الظلام. خيَّم السكون لبضع لحظات. فسمع صوتَ بازيني الباكي وهو يلملم ملابسه المتناثرة فوق الأرض. استشعر تورلس شيئًا من المتعة في هذا الصوت المشبَّع بالأنين. سَرت قشعريرة باردة عبر عموده الفِقَري صعودًا وهبوطًا وكأنها أقدام عنكبوت متسلِّل، ثم استقرَّت بين كتفيه، ناشبةً مخالبها الرقيقة في لحمه. ولشد ما كانت دهشته لما تنبه تورلس أنه كان في حالة إثارة حسية. رجع إلى الوراء قليلًا، دون أن يتذكَّر على وجه الدِّقَّة متى حدث ذلك، فأدرك أن هذه الإثارة كانت مقرونةً باللحظة التي ضغطَ فيها بجسده فوق الأرض.

انتابه الخجل من هذا الشعور المخزي، وأحسَّ أن بركانًا من الدماء يفور في رأسه. عندها عاد رايتينج وباينيبيرج أدراجهما ليجلسا إلى جواره من دون أن ينبسا بكلمة واحدة. حدَّق باينيبيرج في المصباح المتوهِّج. في هذه اللحظة أحسَّ تورلس أنه يُجَرْجَر إلى الانخراط في الأمر مجددًا. أحسَّ كما لو أن ذهنه نُوِّم مغناطيسيًّا وصار متصلبًا.

كان سؤالًا عن الـ... نعم الـ... لا بل كان لونًا من اليأس، أوه! كان شيئًا معروفًا لديه... السور... حديقة الضيوف... الأكواخ المنخفضة... ذكريات الطفولة... الشيء نفسه، الشيء نفسه.

نظر إلى باينيبيرج وقال في نفسه: «ألا يشعر بشيء؟»

إلا أن باينيبيرج انحنى إلى الأمام لالتقاط المصباح، فأوقفه تورلس قائلًا: «ألا ترى أنها تشبه العين؟».

قال تورلس مشيرًا إلى بركة الضوء التي غمرت الأرض: «ما الأمر؟ هل هبطت على رأسك ربة الشعر في هذه اللحظة؟».

- «لا. لكن ألا تقول لنفسك إنَّ الأعين مسكونة بشيء متفرِّد؟ في بعض الأحيان تشعُّ منها قوة لا مثيل لها فيما ندرُسه في حصص الفيزياء. لتفكِّر فقط في أفكار التنويم المغناطيسي الأثيرة عندك؛ من المؤكد أيضًا أن عيني الإنسان تفضحه أكثر مما تفضحه كلماته...»
- «وماذا بعد؟»
- «أرى أن هذا النور لا يختلف عن العين، تقود إلى عالم غير مألوف. أشعر وكأنني ينبغي لي تخمين شيء معين، لكني لا أقدر على ذلك، بل أجد في نفسي رغبة في ابتلاعه بداخلي...»
- «حسنًا، قد بدأت لعب دور الشاعر!»
- «كلا. أنا في قمة الجدية، بل في قمة اليأس. ما عليك إلا النظر إلى نقطة الضوء وستشعر بما أشعرُ به. حاجة إلى الانزلاق إلى هذه البركة من الضوء، الزحف على أربع، بالقرب من الزوايا المغمورة بالتراب، ربما يكون بإمكان المرء أن يدرك شيئًا بهذه الطريقة...»

- «عزيزي، هذه مجرد هذيانات عاطفية سخيفة، لا تملأْ رأسكَ بهذه الأشياء!»

انحنى باينيبيرج فوق الأرض وأعاد المصباح إلى وضعه. إلا أن تورلس أحسَّ بنوع من التشفي لما أدرك أنَّ مشاعره أرهف وأرقى من زملائه.

وبينما كان ينتظر عودة بازيني للظهور، سرت في أوصاله رعشة خفية، وأحسَّ أن المخالب الصغيرة التي شعر بها من قبل تمُرُّ على فروة رأسه مرة أخرى.

علم أن القدر خصَّص شيئًا لأجله؛ شيء من شأنه أن ينبِّهه مرارًا وتكرارًا على فترات متقطعة، صحيح أنه شيء خفي عن مدارك الآخرين، لكنه ذو تأثير حاسم في حياته. أما الشيء الوحيد الذي لم يعرفه فهو ماذا تعني هذه الإثارة الحسِّيَّة التي انتابته حينذاك، وسرعان ما تذكَّر أن هذا الإثارة كانت تنتابه كلما استشعر غرابة الأحداث المحيطة به في عينيه وحده، وكان يحزُّ في نفسه كثيرًا أنه لم يستطع العثور على سبب وجيه لذلك.

حزم أمرَه بالتفكير في هذه المسألة تفكيرًا جادًّا في أقرب فرصة، أما الآن فقد أسلمَ نفسه إلى رعشة الإثارة الحسِّيَّة التي ساورته قبل ظهور بازيني. رفع باينيبيرج المصباح مصوِّبًا إياه إلى الأمام، فشقَّت أشعة الضوء الظلامَ الدامس، صانِعة شكل دائرة مثل إطار فارغ.

عندها ظهر وجه بازيني مجددًا، وعادت ملامحه إلى سيرتها الأولى؛ فارتسمت على شفتيه الابتسامة الجامدة العذبة نفسها وكأن شيئًا لم يكُن. أما فوق شفَته العليا وفوق فمه وذقنه فقد سالت قطرات من الدم الأحمر القاني في مسار متعرِّج يشبه مسار دودة الأرض.

- «اجلس هناك».

أشار رايتينج إلى العارضة الهائلة، فاستجاب بازيني إلى الأمر صاغرًا، وشرع رايتينيج في الحديث: «هل ظننتَ أنك ستخرج بفعلتك سالمًا؟ وهل ظننتَ أنني سأقف في صفِّكَ؟ أخطأتْ حساباتك. لم أفعل ما فعلتُ معكَ إلا لأرى مقدار وضاعتكَ».

أومأ بازيني بيده دفاعًا عن نفسه، إلا أن رايتينج توعَّدَ بالانقضاض عليه مجددًا.

عندها قال بازيني: «ولكني أتوسَّل إليكم، بحق الله، ماذا كان في مقدوري أن أفعل؟».

- «اخرس»، قالها رايتينيج وأضاف: «لقد طفح الكيل من أعذارك، عَرَفنا ما فيه الكفاية عنك، وسنتصرف وفق ذلك».

سادت لحظة قصيرة من الصمت. ثم قال تورلس بغتة بنبرة هادئة ودود: «قل: أنا لص».

اتسعت عينا بازيني من فرط الذهول، وأطلق باينيبيرج ضحكة استحسان. لكن بازيني لزم الصمت، فلكزه باينيبيرج لكزة عنيفة في صدره وصرخ فيه: «هل أُصِبتَ بالصمم؟ قل إنك لص، انطقها حالًا».

للمرة الثانية يغشاهم صمت قصير، ليقول بازيني بعدها بنفَس هادئ جأش ونبرة ثابتة: «أنا لص».

التفتَ رايتينيج وباينيبيرج إلى تورلس وضحكا بسعادة: «فكرة حلوة، يا ولد».

ثم التفتا إلى بازيني وقالا له: «والآن قل: أنا حيوان، حيوان طويل اليد، لص وخنزير».

فراح بازيني يردِّدها دون توقف وبعينين مُغمضتَيْن.

في هذه اللحظة انسحب تورلس ليختبئ في جنح الظلام بعدما أثار المشهد برُمَّته اشمئزازه، وانتابه الخزي من نفسه بسبب الإفصاح عن هذه الفكرة أمامهما.

(9)

في حصة الرياضيات داهمت تورلس فكرة مفاجئة.

في الأيام القليلة المنصرمة راح يحصِّل دروسه باهتمام بالغ، فقال في نفسه: «لو كانت الدراسة هنا حقًّا كما يزعمون نوعًا من أنواع الاستعداد للدخول إلى معترك الحياة، فلا بد من وجود إشارة تهديني للعثور على ما أفتِّش عنه».

وبعد اجترار تلك الأفكار عن مبدأ اللانهائية، صارت الرياضيات هي شغله الشاغل. وتحديدًا في منتصف حصة الرياضيات أومضت الفكرة في ذهنه كالبرق. وبعد انتهاء الدرس جلس إلى جوار باينيبيرج وفاتَحَه في الفكرة باعتباره الشخص الوحيد الذي يمكن الحديث إليه بهذا الشأن.

- «هل فهمتَ كل شيء؟»
- «ماذا تقصد؟»
- «أقصد مسألة الأعداد التخيُّلية».
- «نعم. ليس الأمر معقَّدًا إلى هذه الدرجة. تذكَّر فقط أن الأعداد التخيلية هي الأعداد التي ينتج عن حاصل تربيعها عددٌ سالب».
- «بالضبط، لكن هذه الأعداد لا وجود لها في الحقيقة، فعندما أحسُب الجذر التربيعي لأي رقم، يكون الحاصل قيمة موجبة، سواء أكانت الأعداد موجبة أم سالبة؛ ومن ثَمَّ يستحيل أن يكون هناك رقم حقيقي يمثِّل الجذر التربيعي لأي عدد سالب».

- «صحيح تمامًا، برغم ذلك ما المانع في أن نستمرَّ في محاولة استخدام الحساب لاستخراج جذر تربيعي من رقم سالب؟ من الواضح أنها لن تُعطي قيمة حقيقية، وهذا هو سبب وصفنا إياها بأنها أعداد تخيُّلية. يبدو الأمر كما لو أننا نقول: طالما كان يجلس هنا شخص ما، فلنضع له مقعدًا اليوم كالمعتاد، وحتى لو حدث ومات الرجل في هذه الأثناء، فسنواصل التصرُّف كما لو أنه سيأتي ويجلس».
- «ولكن كيف يكون بمقدورنا فعل ذلك، لو أننا نعرف على وجه اليقين، باستخدام اليقين الرياضي، أنه مستحيل؟»
- «وهذا بالضبط هو مربط الفرس، أقصد أن نتصرف كما لو كان الأمر ليس مستحيلًا، وربما تُكلَّل المحاولة بالنجاح. وما قولك في الأعداد غير المنطقية*؟ هي عملية قِسمة رياضية لا نهائية؛ كَسْرٌ قيمته لن تظهر أبدًا، أبدًا مهما صرفتَ من الوقت في حسابها. فما بالك لو فكَّرتَ في أن الخطوط المتوازية لن تتقاطع إلا عند نقطة لا نهائية؟ أظنُّ لو تحلَّى الإنسان منا بوعي يقِظ حادٍّ، فلن يكون هناك علم رياضيات من الأساس».
- «أتفق معك في تلك النقطة. لو نظرنا إليها من تلك الزاوية فلا شكَّ في غرابتها. لكن الأغرب هو أنه ما يزال في مقدورنا استخدام أعداد خيالية أو مستحيلة لإجراء حسابات حقيقية والحصول على نتائج ملموسة!»

---

* في الرياضيات هي الأعداد التي لا يمكن كتابتها على صورة كسر اعتيادي، أي كسر بسطه ومقامه عددان صحيحان (المترجم).

- «وهذا ما تفعله العوامل التخيُّلية، أنها تلغي بعضها بعضًا أثناء العملية الحسابية».

- «نعم، نعم، أعلم جيدًا كل ما تتحدَّث عنه. برغم ذلك ألا تلاحظ أن الأمر برُمَّته لا يخلو من غرابة؟ كيف أشرحها لك؟ لتفكِّرْ في الأمر على النحو الآتي: تبدأ أية عملية حسابية بأرقام مؤكَّدة بين يديك، أقصد أمتارًا أو أوزانًا أو أي شيء آخر ملموس، على الأقل تكون أمامك أرقام حقيقية. وفي نهاية العملية الحسابية نحصل على شيء مماثل. غير أن بداية العملية ونهايتها موصولان بعَلاقة وهمية لا وجود لها على أرض الواقع. ألا يُشبه الأمر جسرًا مكوَّنًا من دعامتيْن في أول الجسر وآخره وجسم الجسر نفسه غير موجود، لكننا برغم ذلك نعبر الجسر باطمئنان كما لو كان جسم الجسر كله موجودًا؟ هذا النوع من العمليات الحسابية يُفقِدُني صوابي ويلف رأسي، كما لو أنه جزء من طريقٍ يعلم الله وحدَه إلى أين يُفضي! لكن الخارق في هذا النوع من الحساب بالنسبة إليَّ هو قوتها العجيبة في الإمساك بتلابيبك حتى تصل بأمان إلى الضفة الأخرى».

عندها ابتسم باينيبيرج قائلًا: «ها قد صرتَ تتحدَّث تقريبًا مثل كاهن المدرسة؛ ترى تفاحة، تنتقل موجات من الضوء إلى عينيك، فتمتدُّ يدك لسرقتها، تحرِّك يدَك أعصابٌ وعضلات، ولكن من ورائها محفِّز آخر يحرِّك مسار الأحداث لتجري وفق هذا التسلسل، وهذا المحفِّز هو رُوحك الخالدة، وهي إذ تفعل ذلك تكون قد اقترفت خطيئة. نعم... نعم، لا يمكن تفسير أيٍّ من أفعالك بدون الرُّوح التي تعزف على أرواحكم مثل عارف يضرب مفاتيح البيانو».

وهنا شرع باينيبيرج في تقليد صوت مُلقِّن التعاليم المسيحية، مستظهرًا التعاليم الدينية، قائلًا: «ولكن الحكاية برُمَّتها لا تثير اهتمامي البتة».

- «لكني حسبتُ أنَّ الأمر سيثير اهتمامكَ، كنتَ أول من خطر ببالي حين وقعتُ على هذه الفكرة، فلو كان الأمر غير قابل للتفسير، فسيؤكِّد ذلك على صحة معتقداتك».
- «ولكن ما الذي يمنع ألا يكون الأمر غير قابل للتفسير؟ يغلب في ظنِّي أن علماء الرياضيات قد تعثَّرت أقدامُهم. ما المانع أن تخدعنا المسائل المتجاوزة لنطاق مداركنا وأفهامنا؟ على أي حال فأنا لا أُعِير انتباهًا لمثل هذه المسائل، فهي لا تصل بنا إلى أية نتيجة».

(11)

في اليوم نفسه استأذن تورلس مدرسَ الرياضيات في المرور به للاستفسار عما غمض عليه في الدرس الأخير. وفي اليوم التالي، خلال استراحة الغداء، صعد السُّلَّم قاصدًا شقة المدرس الصغيرة.

كان تورلس يُكِنُّ احترامًا كبيرًا لمادة الرياضيات، بعد أن تحوَّلت من مجرد فرض دراسي جافٍّ إلى شيء نابض بالحياة. لكن هذا الاحترام لم يكن يخلو من شعور بالغيرة من المدرِّس، فلا بد أن الأخير كان عارفًا بأسرارها، مُلِمًّا بخباياها مثل مَن يحمل مفتاح الولوج إلى حديقة مغلقة الأبواب. وكان يحدو تورلس في ذلك دافع من فضول حذِر. كانت هذه المرة الأولى التي تطأ فيها قدمُ تورلس غرفة المدرِّس، وكان يتحرَّق شوقًا لمعرفة شكل حياة هذا الشاب المتعلِّم الهادئ المختلف عنه، على الأقل ظاهريًّا.

اتَّسَمَ تورلس بالخجل والتحفُّظ في التعامل مع مُدرِّسيه، وهو السبب الذي دفعه للاعتقاد بأنه لن يحظى بصدق مودَّتهم. وقف أمام الباب مبلبل الخاطر، وأحسَّ في قدومه لهذا الطلب لونًا من ألوان المجازفة، التي لم يكن غرضها الحصول على شروح دراسية –وهو ما كان موقنًا منه– بقدر ما كان غرضها التلصُّص على طريقة عيشه اليومية مع عالم الرياضيات.

أشاروا عليه بغرفة المدرِّس. كانت غرفة واسعة لها نافذة واحدة، استقرَّ إلى جوارها مكتب سطحه ملطَّخ ببقع الحبر، وأريكة منصوبة مقابل الحائط مفروشة بقماش أخضر خشن موَشًّى بشراشيب. فوق الأريكة عُلِّقت قبعة جامعية حائلة اللون، ومجموعة من الصور البنِّيَّة الكالحة بحجم البطاقات البريدية تعود إلى فترة دراسته الجامعية.

فوق الطاولة البيضاوية ذات الأرجل المصمَّمة على شكل X، وهي من المفترض أن تعطي انطباعًا بالبهاء والفخامة، لكنها بدت مثل قطعة أثاث سخيفة خلو من الذوق، فوق الطاولة استقرَّ غليون وبعض أوراق التبغ العريضة؛ كانت الغرفة كلها تعبق برائحة تبغ رخيص.

جاهد ذهن تورلس بمَشَقَّة لاستيعاب كل هذه الانطباعات التي تواردت على ذهنه، ثمَّ وجد في نفسه شيئًا من النفور، كما لو أنه لامس شيئًا لا تشتهيه نفسه في اللحظة التي دلف فيها المدرِّس إلى الحجرة. كان المدرِّس رجلًا في ريعان الشباب لا يتجاوز الثلاثين؛ أشقر الشعر، متوتِّر الأعصاب، ضليع في مادة الرياضيات، قدَّم أوراقًا علمية مميزة إلى الأكاديمية العلمية.

سارع بالجلوس إلى مكتبه على الفور، ثم جعل يفتش في كومة من الأوراق الموضوعة فوق المكتب (تنبَّه تورلس لاحقًا إلى أن المدرس كان يلوذُ بمكتبه كحصن)، نظَّف عدستي نظارته الأنفية*، ثم رمقَ تورلس بنظرة ترقب وانتظار.

بدأ تورلس بدوره في فحص ملامح المدرِّس، فلاحظَ زوجًا من الجوارب الصوفية البيضاء الخشنة، كما لاحظ أن أربطة السروال الداخلي لامعة بعد أن دهنها بورنيش أسود من المستخدم لطلاء زوج الأحذية مرتفع الرقبة. وكان منديله الأبيض لامعًا موشًّى بنقوش بديعة، ورغم أن ربطة عنقه كانت مخيطة، بدت زاهية كلوحة خلط الألوان.

انزعج تورلس من تواضُع هيئته، وتضاءل أملُه في أن يكون لهذا الشاب معرفة عميقة، فلم تكن هيئته ولا محيطه ينمَّان عن امتلاك شيء

---

* نوع من النظارات الشائعة في أواخر القرن التاسع عشر، تُثبَّت بدون ذراعين، مثل نظارة الكاتب الروسي تشيخوف مثلًا في صوره المشهورة (المترجم).

من المعرفة. تخيَّل تورلس في أعماقه أن تبدو شكل غرفة عالم الرياضيات على نحو مغاير تمامًا.

كان العادي المبتذَل يجرَح مشاعره، وانعكس ذلك على رؤيته لمادة الرياضيات، وبدأ شعوره باحترام هذه المادة يبرد، متحولًا إلى نوع من التشكك.

في تلك الأثناء تململ المدرِّس في مقعده بصبر نافد، لا يدري سببًا للحظات الصمت، ولا يفهم مَغزى نظرات تلميذه الفاحصة، فتفجَّرت لحظة من سوء الفهم المكتوم بين الاثنين في هذه اللحظة تحديدًا.

شرع المدرس في الكلام قائلًا: «والآن... هل نبدأ... هل تريد أن... أقصد يسعدني أن أقدِّم إليك الشروح التي تريدها».

بدأ تورلس في توضيح النقاط محل اعتراضه، محاولًا قدر طاقته شرح مغزاها بالنسبة إليه، لكنه أحَسَّ كما لو أن الكلمات تشُق طريقها بصعوبة عبر غابة من الضباب الكثيف، وأن أفضل كلماته مخنوقة لا تكاد تغادر حلقه.

ابتسم المدرِّس، وسعلَ سعالًا خفيفًا وقال: «هل تسمح لي بالتدخين؟».

بعدها أشعل سيجارة ونفث دخانها بأنفاس متلاحقة. أما الورقة التي وقع عليها بصر تورلس من حين إلى آخر، فقد تلطَّخت بالحبر وصارت مجعدة.

خلع المدرِّس نظارته من فوق أرنبة أنفه، ووضعها ثانية، ثم أومأ برأسه، لكنه في النهاية لم يُعطِ تورلس الفرصة لإنهاء كلامه، فسرعان ما قاطعه قائلًا: «أنا سعيد، عزيزي تورلس، بل في قمة السعادة، إن شكوكك دليل على الجِدِّيَّة والتفكير الناضج، و... حسنًا، ليس من السهل أن أقدِّم لك

التفسيرات التي تبحث عنها، ورجاءً لا تُسئ فهمي في هذه النقطة. ها أنت تتحدَّث عن دور «المتعالي الخارج عن نطاق الخبرة»، إممم... نعم... هذه الأشياء يُطلق عليها عوامل متعالية، والواقع أني لست على دراية بطريقة شعورك بالأمر، أما فيما يتصل بما وراء الطبيعة، وما يجاوز حدود العقل والمنطق، فهذه مسألة أخرى. واقع الأمر أني لست مؤهَّلًا للإدلاء برأيي في هذا الأمر، لأنه خارج عن نطاق اختصاصي، تتفاوت الآراء والأفكار بشأن الأمر، لكني لا أرغب في الانخراط في جدال ضد شخص أو آخر. أما فيما يتعلَّق بالرياضيات (هنا شدَّد المدرس على كلمة الرياضيات)، وكأنما أراد إسدال الستار على المسألة برُمَّتها مرة واحدة إلى الأبد... «أما فيما يتعلق بمادة الرياضيات فمن المؤكَّد وجود عَلاقة طبيعية وحسابية فقط، لا أكثر... ولتوخِّي الدقة العلمية ينبغي أن أطرح بعض الافتراضات النظرية التي سيتعذَّر عليكَ فهمها، ولا نملك الوقت الكافي لذلك. أتعلم شيئًا... أعترف تمامًا أن هذه الأعداد التخيلية على سبيل المثال غير موجودة في الحقيقة... هاها! وإنها ليست سهلة الفَهم بالنسبة إلى عقل تلميذ شاب، برغم ذلك يتحتم عليك التسليم بأن هذه المفاهيم هي مسلَّمات منطقية لا غنى عنها في عالم الرياضيات البحتة. أنصحكَ بالتفكير في الأمر على النحو الآتي: في هذه المرحلة المبكِّرة من دروس الرياضيات، حيث أنتَ الآن، من الصعب تقديم التفسير الصحيح لكثيرٍ مما نتطرَّق إليه في الحصص، ولحسن الحظ أنَّ قلة قليلة يتنبَّهون إلى هذه المسألة، ولكن أنْ يأتي تلميذ، مثلما جئتَ أنت اليوم، ويطرق هذه المسألة، فهذا مبعث سعادة عظيمة بالنسبة إليَّ، لا يسعني إلا أن أقول لك: صديقي العزيز، عليكَ ببساطة أن تصدِّق ذلك، أن تؤمن به وكفى، ولكنك حينما تعرف عن علم الرياضيات عشرة أضعاف ما تعرفه اليوم، عندها سوف تفهم كل شيء، ولكن في هذه اللحظة لا عليك إلا أن

تصدِّق فقط! ليس أمامك سبيل آخر، عزيزي تورلس، الرياضيات عالم قائم برأسه، وعلى المرء أن ينغمس فيه طويلًا للإحاطة بكل بالدقائق الضرورية».

غمرت تورلس فرحة هائلة حينما توقف المدرس عن الكلام. فمنذ اللحظة التي أغلق فيها باب الغرفة عليهما، أحسَّ بأن الكلمات تواصل الابتعاد عنه، منتقلةً إلى الضفة الأخرى اللامبالية، ضفة العالم التي ترقد فوقها كل التفسيرات الصحيحة، لكنها لا تقول شيئًا في الآن نفسه.

ذهل من سيل الكلمات الهادرة ومن إخفاق المدرِّس في تقديم ما يشفي غليله، ولم يتنبَّه إلى أن الوقت قد أزف لكي يغادر. عندها، ولأجل إغلاق الموضوع بصفة نهائية، راح المدرِّس يلتمس حجة أخيرة لتكون برهانًا قاطعًا.

فوق طاولة صغيرة استقر مجلد أنيق من أعمال كانط. رفع المدرِّس المجلد ووضعه أمام عيني تورلس وقال: «أترى هذا الكتاب... إنه كتاب فلسفي يناقش العوامل التي تحكم أفعالنا، وكلما تعمَّقتَ فيها صادفتَ مزيدًا من مسلَّمات التفكير المنطقية الحاكمة لكل شيء، وهي ضرورية برغم أنها تظل غير مفهومة تمامًا. الأمر هنا يشبه ما يجري في علم الرياضيات، لكننا نواصل دراسة الرياضيات برغم ذلك، ها هو ذا بين يديك دليل على أهمية هذه العوامل غير الواقعية».

ابتسم المدرِّس لما رأى تورلس يفتح الكتاب ويتصفَّح محتواه، فسارعَ قائلًا: «لتدعكَ من هذا الكتاب الآن، إنما أردتُ فقط أن أضرب لك مثلًا تضعه نصب عينيك فيما بعد، ربما ما يزال الأمر صعبًا بالنسبة إليك في الوقت الحالي».

***

أمضى تورلس بقية يومه مضطرب البال.

كان لمُلامسة كتاب كانط وقع حاسم في نفسه، برغم كونها واقعة عرَضية لم يُعِرها انتباهًا كبيرًا وقت حدوثها. أما اسم كانط فلم يكن غريبًا على سمعِه بسبب تردُّد الاسم حوله، وتمتُّعَ عنده بالقيمة التي يتمتع بها في أوساط المهتمين بالعلوم الإنسانية، كان تورلس واعيًا بقيمة هذا الفيلسوف باعتباره الفصل الأخير في تاريخ الفلسفة.

وكانت الهالة المَهيبة المحيطة بالفيلسوف أحد أسباب عزوفه عن مطالعة الكتب ذات المحتوى الجاد. فبمجرد تجاوُز الشباب الغِرّ الفترة التي يحلُمون فيها بامتهان مهنة الحوذي أو البستاني أو الحلواني، فإنهم يصرفون طموحاتهم في تخيُّل المجالات التي يحظَوْن فيها بفرص أفضل في تحقيق أفضل طموحاتهم.

فلو قال أحدهم مثلًا إنه يَوَدُّ أن يكون طبيبًا، فسبب ذلك أنه رأى حتمًا ذات يوم حجرة انتظار جميلة مزدحمة بالمرضى، أو رأى خزانة زجاجية فيها أدوات جراحية غير مألوفة لديه أو ما شابه، ولو تحدَّث أحدهم عن رغبته في الالتحاق بالسلك الدبلوماسي، فمَرَدُّ ذلك تعلُّق تفكيره بأبَّهة وأرستقراطية المحافل الدولية، خلاصة الكلام أنهم ينشدون المهن وفق البيئة التي يحبون أن يرون أنفسهم فيها، ويجدونها أشدَّ جاذبية.

بالنسبة إلى تورلس فلم يُذكَر اسم كانط أمامه إلا عَرَضًا، وكان ذكر اسمه مُحاطًا بهالة من التقديس، لم يسع تورلس أمامها إلا التفكير في أنَّ كانط نجح في حسم معضلات الفلسفة بأسرها، وأن الفلسفة صارت من بعده مهنةَ من لا مهنة له، تمامًا مثلما استقرَّ في وعيه أنه من العبث كتابة الشعر بعد موت جوته وشيللر.

أما في بيت والديه فقد كانت هذه الكتب مرصوصة في مكتب «بابا»، وكان تورلس يعرف تمام المعرفة أنَّ هذه الكتب لا تُفتح إلا للعرض على الزائرين. كانت هذه الكتب مثل قدس أقداس الإله الذي يقترب منه الإنسان على مضض؛ حَرَمٌ يقدِّسه الإنسان ليشعره بالراحة في أن طقوس تبجيل كتب الفلسفة ستزيح عن كاهله عناء قلق التفكير بشأن أمور معينة في الحياة.

وبكل أسفٍ كانت لهذه العَلاقة المشوَّهة بالأدب والفلسفة تأثيرها الضار في مسيرة نموِّ الفتى تورلس لاحقًا، وأورثته قدرًا غير يسير من التعاسة. والسبب أنها حفرت هُوَّة واسعة بينه وبين طموحاته، واضطرَّته إلى البحث عن أهداف جديدة بعيدة عمَّا يريده بالفعل، بعدما سُلِبتْ منه غاية حياته الأصيلة، وأوقعته تحت سطوة تأثير زملاء المدرسة.

وكانت هذه الميول ما تلبَث أن تعاود الظهور على صفحة حياته على استحياء من حين إلى آخر، تاركةً في وعيه انطباعًا بأنه يفكِّر في أشياء سخيفة لا نفعَ من ورائها. لكنها بلغت من القوة حدًّا عجز معه تورلس عن الفكاك منها. وكان هذا بعينه الصراع الدائم الذي وقف حجر عثرة دون تشكُّل شخصيته واستقامة مسار حياته وفق ملامح ثابتة. ولكن اعتبارًا من هذا اليوم دخلت هذه العَلاقة مرحلة جديدة تمامًا. فالأفكار التي طالما سعى عبثًا وراء تفسيرها لم تعُدْ مجرد تداعيات أفكار لا يربطها رابط تمخضَّت عنها مخيِّلَته، بل كانت بالأحرى أفكارًا هزَّت كيانه وأمسكت بتلابيبه، فأحسَّ تورلس بكل ذرة من كيانه بأنَّ جزءًا من حياته قابع وراء هذه الأفكار، وأنها تنبض وتنشد الخلاص. وكان الأمر كله جديدًا عليه، واستقرَّ في أعماقه يقين وثبات لم يعهده في نفسه قبل ذلك قَطُّ.

كان شعورًا غامضًا أقرب إلى حلم. لا بد أنَّ هذا الشعور قد استوى في نفسه على نار هادئة بتأثير الأحداث التي مَرَّ بها في السنوات الأخيرة، وها هو الآن يدُقُّ الأبواب لافتًا الانتباه إلى وجوده على نحو حاسم. كان يشبه شعور أمٍّ تُحِس للمرة الأولى بحركة جنينها وهو يتحرَّك في أحشائها.

كانت ظهيرة رائعة ممتعة.

قصدَ تورلس خزانته وأخرج مسوَّدةَ القصائد التي يحتفظ بها هنا بعيدًا عن الأعين، ثم جلس بمفرده إلى جوار موقد، مختبئًا وراء حاجز هائل. جعل يتصفَّح دفاتره واحدًا تلو الآخر، ثم شرع في تمزيق أوراق الدفاتر بحركة بطيئة ليُلقي بها إلى النار المشتعلة، وهو يتذوَّق مرارة الفراق.

نشد من وراء حرق الدفاتر التخفُّف من تركة الماضي الثقيلة، وكأنه اتخذ قرارًا بحشد تركيزه على الخُطُوات التي ستأخذ بيده إلى الأمام، اعتبارًا من هذه اللحظة فصاعدًا، بعد أن نفض عن كاهله إصر الماضي. وبعد أن فرغ من حرق الدفاتر غادر مكانه وانضمَّ إلى بقية التلاميذ، وفي نفسه شعور بأنَّه تخلص من النظرات المثيرة للقلق.

كان فعل إحراق دفاتر الشِّعر القديمة صادرًا عن دافع لا واعٍ محض، بعد أن ساوره شعور بالاطمئنان بأنه سيكون في اللحظة التالِية إنسانًا جديدًا. فراح يقول لنفسه: «غدًا... غدًا سأعيد ترتيب أوراقي وسأصل إلى حقيقة الأمر».

راح يتجوَّل في قاعة الدرس، فتارةً يمر بالمقاعد، وتارةً ينظر إلى الدفاتر المفتوحة، التي كانت الأصابع تكتب فوق صفحاتها البِيض ذهابًا وإيابًا بحركة لاهثة؛ شاهد كل ذلك وكأنه شخص استيقظ بَغتة بعينين جديدتين تريان كل شيء وقد اكتسب أهمية قصوى.

(11)

في صباح اليوم التالي خاب رجاؤه.

كان قد اشترى الطَّبعة الشعبية من المجلَّد الذي رآه في غرفة أستاذ الرياضيات، فانتهز فرصة الراحة الأولى للبَدء في القراءة. لكنه لم يفهم كلمة واحدة بسبب ازدحام الصفحات بالأقواس والحواشي، وكلما حشد انتباهه بتركيز ليتابع بعينيه الجُمل المكتوبة، يشعر كما لو أنَّ يدًا عجوزة ناتئة العظام تزجُّ بِمُخِّه إلى مسارات لولبية. وبعد نصف ساعة توقَّف عن القراءة وقد أُنهِكَ عقله، ولم يكُن قد بلغ إلا الصفحة الثانية والعرق يتفصَّد عن جبينه. لكنه صَرَّ على أسنانه وتابع قراءة صفحة ثالثة حتى انتهت فترة الراحة.

وعندما حلَّ المساء انتابه نفور من مجرد ملامسة الكتاب.

أكان شعورًا بالخوف أم الاشمئزاز؟ لم يكن يعرف على وجه التحديد. كل ما عرفه أن شيئًا واحدًا ظلَّ يؤرِّق باله، هو أن أستاذ الرياضيات بدا رجُلًا عاجز الرأي لا يُحتذَى به، إذ ترك كتاب كانط مفتوحًا في غرفته هكذا، كما لو كان رغيف خبز!

وبينما هو في هذه الحالة المِزاجية صادف باينيبيرج.

- «حسنًا تورلس... كيف مضت الأمور بالأمس عند مدرِّس الرياضيات؟»

جلسا بمفردهما عند كُوَّة إحدى النوافذ، ودفعا الرَّفَّ العريض المحمَّل بمعاطف كثيرة، فلم يسمعا من الفصل إلا أصوات همهمة تتراوح شدَّتُها بين ضعف وقوة، ولم يريا إلا انعكاس ضوء المصابيح على السقف. راح تورلس يعبَث بأحد المعاطف المعلَّقة أمامه وهو شارد الذهن.

- «ما بكَ؟ هل تُغالِب النعاس؟ لا بد أنه ردَّ على أسئلتك بشكل أو بآخر. بل أكاد أتخيَّل أنه ارتبك قليلًا؟»
- «لماذا؟»
- «لماذا؟ لأنه لم يتوقَّع أن يُطرح عليه مثل هذا السؤال الغبي؟»
- «لم يكن سؤالًا غبيًّا، ولم أستطع طرد هذا السؤال عن ذهني».
- «هوِّن عليك، أعني أنه كان سؤالًا غبيًّا من وجهة نظر المدرِّس نفسه، فهؤلاء يلقِّنون دروسهم عن ظهر قلب مثلما يلقِّن كاهنٌ تعاليم العقيدة، أما لو باغتهم أحدٌ بسؤال خارج المنهج، لارتبكوا على الفور».
- «لا، لم يرتبك، لكنه لم يدَع لي الفرصة لإنهاء كلامي، وسرعان ما أحكَمَ سيطرته على الموقف».
- «وكيف شرَح لك الأمر؟»
- «الواقع أنه لم يشرح شيئًا. خلاصة كلامه أني لستُ مهيَّأ لفَهم الأمور في هذه السِّنِّ، وأن المسألة كلها أُسُس ومسلَّمات منطقية لا تتَّضِح إلا لمن تبحَّر في دراستها!»
- «هذه هي أسطوانتهم المشروخة! لا تنطلي قصصهم على أدنى رجل يتحلَّى بشيء من العقل، بينما يصدِّقها مَن أجهد عقله في دراسة الرياضيات عشر سنوات، لكنه حتى ذلك الحين سيكون قد أجرى

آلاف العمليات الحسابية تأسيسًا على هذه المبادئ، وسيكون قد شيَّد صُرُوحًا قوية تستمر حتى نهاية الزمان، عندها سيؤمن الرجل بصدق حساباته مثلما يؤمن الكاثوليكي الورِع بالوحي السماوي، لطالما مضت الأمور هكذا، هل يتطلَّب الموضوع ذكاءً لإقناع مثل هذا الشخص؟ على العكس من ذلك لن يُفلح أحد في إقناع الشخص نفسه بأنَّه شيَّد صرحًا منطقيًّا هائلًا، لكنَّ أقلَّ لمسة كفيلة بنسفه نسفًا!»

استاء تورلس من النبرة المبالغة التي يتكلم بها باينيبيرج.

- «ليست المسألة بالسوء التي تصوِّره؛ لم أشُكَّ لحظة في صدق مبادئ الرياضيات، ولا أدلَّ على ذلك من صدق براهينها، كل ما حدث هو أني كنت أدهش أحيانًا من تناقض مبادئ الرياضيات مع قواعد العقل والمنطق، ولكن أغلب الظن أنه تناقض ظاهري».
- «حسنًا ربما عليك الانتظار عشر سنوات حتى يتهيَّأ عقلُكَ لفَهم الأمور بشكل صحيح، لكن الموضوع لم يبرَح ذهني منذ أن تحدَّثنا عنه في المرة الأخيرة، وأنا على اقتناع تام بأن ثَمَّة مشكلة. بالمناسبة، نبرتُك اليوم مختلفة تمامًا عن نبرتك في الحديث آنذاك».
- «لا... لا أنكر أن الشكوك ما زالت تراودني، لكني لستُ من هواة المبالغة وتضخيم الأمور، المسألة برُمَّتها غريبة الأطوار في رأيي. تثير انزعاجي فكرة اللاعقلانية، فكرة المتوهِّم، فكرة الخطوط المتوازية التي تتقاطَع عند نقطة اللانهاية، أو أيًّا ما كانت النقطة التي تصل إليها، وكلما أمعنتُ التفكير في الأمر يصيبني الدُّوَار كمن ضربَه أحد على دماغه».

انحنى تورلس بجسده إلى الأمام فغمر الظلُّ رأسَه، وأخفض صوته وهو يتكلم: «في السابق كان كل شيء في ذهني واضحًا ومنظَّمًا ومرتَّبًا؛ أما الآن فأفكاري أشبه بالغيوم التي تتخلَّلها الفجوات؛ فجوات أُطِلُّ منها على أفق مطلق لا نهائي. صحيح أن علم الرياضيات علم منضبط، ولكن ماذا عن عقلي؟ وماذا عن عقول الآخرين؟ ألا يشعرون بأي شيء؟ كيف ترتَسِم الصورة في أذهانهم؟ ألا يتصوَّرون أي شيء على الإطلاق؟».

- «أظن لو نظرتَ إلى حالة أستاذكَ لحصلتَ على الجواب الشافي. أينما صادفتَ شيئًا مثل هذا، فما عليكَ إلا الالتفات حولك لتسأل نفسكَ: كيف ينسجم الأمر مع كل شيء آخر بداخلي؟ أما هذه الفئة من البشر فقد حفروا أُخدُودًا عميقًا مكونًا من ألف نفق حلزوني داخل أدمغتهم، وفي كل لحظة ينظرون إلى الوراء ليتأكدوا إذا كان الخيط المرشد الذي نسجوه وراءهم قد انقطع أم ما يزال موصولًا، وهذا هو السبب الذي جعل سؤالك مثيرًا للارتباك... بالمناسبة ما الذي دفعكَ إلى القول إنني أبالغ؟ لقد انغمس هؤلاء البالغون والحاذقون في شبكة من الخيوط، كل عقدة منها منسوجة بإحكام إلى جوار أختها وهكذا دوالَيْك على نحو يبدو فيه كل شيء طبيعيًّا حدَّ الكمال، ولئن سألتَهم: وأين العقدة الأساسية الناظمة لكل شيء، لوقعوا في حَيْصَ بَيْصَ وما وجدوا ردًّا! لم يسبق أن تحدَّثنا قَطُّ عن هذه المسألة بهذه الجدية، أيًّا ما كان الأمر فالناس يعزفون عن الحديث حول هذه الأمور، ولكن ها أنت ترى هشاشة المنظور الذي ينظر به الناس إلى العالم. إنه منظور ناضح بالغش والتضليل وتفاهة العقل وفقر الروح! والسبب أن عقولهم مهيَّأة لاستيعاب التفسيرات العلمية التي تتفتق عنها أذهانهم فقط، أما في اللحظة التي يتجاوز فيها الأمر نطاق تفكيرهم، تُشَلُّ عقولهم عن التفكير،

هل تفهم ما أقصد؟ هاها... كل تلك القمم الشاهقة السامقة، القمم التي يزعم المدرِّسون أنها فوق مستوى عقولنا، إن هي إلا قمم ميتة متجمِّدة، هل فهمتَ ما أعني؟ جميع هذه القمم الجليدية المثيرة للإعجاب تُطِلُّ علينا من الجهات كافة، لكن أحدًا لا يعرف كيف يتعامل معها، لأنها قمم هامدة، خلو من الحياة».

كان تورلس قد رجع بظهره إلى الوراء. في تلك الأثناء احتبست أنفاس باينيبيرج الحارَّة بين المعاطف المُعلَّقة فزادتْ من سخونة الزاوية التي يجلسان فيها.

وكما هو الحال دائمًا حينما تأخذه الحماسة حزَّ كلامُ باينيبيرج في نفس تورلس؛ لا سيما في اللحظات التي كان فيها مقتربًا منه بشدَّة، وعيناه ترمقان تورلس بنظرات ثابتة مثل حجرَيْن خضراوَيْن، بينما ترتعش يداه في الظلام ارتعاشًا مقززًا.

- «غير أن كل ما يزعمونه لا دليل على صحته. يدَّعون أن كل شيء يحدث وفق قوانين الطبيعة. فلو سقط حجر يُرجِعون سبب سقوطه إلى قوة الجاذبية، ولا أدري لماذا لا يرجعونه إلى إرادة الله؟ ولماذا لا يسقط رجل ورِع مطيع لأوامر الرب سقوط الحجر مثلًا؟ ولكن ما الذي يدفعني للكلام معك حول هذه الأمور؟ ستبقى على الدوام إنسانًا يُمسِك بالعصا من المنتصف. ربما تصادف واقعة أو اثنتين مثيرتين للدهشة، فتهزُّ رأسك وتفزع قليلًا، ثم ينتهي الأمر عند هذا الحد، هذه هي طبيعتك، ستبقى تُراوِح مكانك، لكن لا بأس... لن يضيرني الأمر شيئًا».

- «وهل يضيرني أنا في شيء؟ الكلام ينسحب بالمثل على أطروحاتك التي لا دليل على صحتها أيضًا».

- «كيف تقول ذلك؟ بل إن أطروحاتي هي الشيء الوحيد المقطوع بصحته. ولكن ما الدافع لافتعال الشجار معك حول كل ذلك؟ سترى صدق كلامي، عزيزي تورلس، بل أراهن أنه سيأتي عليك يوم وتُبدي اهتمامًا بكلامي. على سبيل لو سارت الأمور وفق الخطة الموضوعة في شأن بازيني، وبشأن الـ...»
- «لنترك هذه المسألة جانبًا من فضلك»، قاطعه تورلس ثم تابع: «لا أريد إقحام سيرة بازيني الآن».
- «لماذا؟»
- «بدون أسباب، لا أريد ذلك وكفى. هذا الموضوع يزعجني. هذه نقرة وتلك نقرة، وأنا لا أحب خلط الأوراق».

اكفهرَّ وجه باينيبيرج غضبًا من هذه النبرة الحاسمة غير المعتادة، بل من هذه الجرأة التي لم يعهدها من زميله الأصغر سنًّا. أما تورلس فقد أحسَّ أن مجرد ذكر اسم بازيني أمامه كفيل بزعزعة ثقته في نفسه، ولإخفاء ذلك الشعور قال بلهجة حانقة: «لاحظتُ أنك عمومًا تزعُم أشياء بنبرة يقينية مهووسة. ألم يدُر بخَلَدِك يومًا أنك تبني صروحًا في الهواء مثلك مثل الآخرين؟ إنها متاهات أشدُّ تعقيدًا، وتستلزم أكثر من مجرد النوايا الحسنة لتصديقها».

لكن العجيب أن الكلمة لم تُثِر حَنَق باينيبيرج، الذي ابتسم ابتسامة متشنِّجة، وعيناه زائغتان، وظلَّ يردد: «سوف ترى... سوف ترى...».

- «وماذا سأرى؟ ها؟ حسنًا لو كنتَ تقول إنني سأرى، فلا مانع عندي، لكن هذا الأمر لا يثير أدنى اهتمام عندي. باينيبيرج، أنت لا تفهمني، ليست عندك فكرة عما يشغل بالي. عندما أقول إن الرياضيات تؤرِّق بالي وعندما أقول إن الـ... (لكن تورلس فكَّر

ورجَعَ عن رأيه ولم يذكر بازيني)... عندما أقول إن الرياضيات تؤرِّق بالي، فأنا أبحث عن شيء مختلف تمام الاختلاف عما تبحث أنت عنه، أنا لا أفتش عن شيء خارق للطبيعة، بل عن شيء طبيعي. هل فهمتني؟ أبحث عن شيء داخل نفسي، شيء يسكن أعماقي، شيء طبيعي، برغم ذلك لا أفهم كُنهَه، شيء فِكرَتُك عنه لا تختلف عن فكرتك عن الرياضيات. يا رجل، توقَّف عن إزعاجي بتكهناتك هاته في الوقت الحالي!»

نهض تورلس واقفًا مرتجفًا من فرط الانفعال.

إلا أن باينيبيرج ظلَّ يردد: «سوف نرى. سوف نرى».

(12)

لم يَذُق تورلس طعمَ النوم تلك الليلة بعد أن أوى إلى فراشِه.

مرَّ الوقت بطيئًا، كانت كل ربع ساعة تتسلَّل مثل تسلُّل الممرضات الحائمات حول سرير رجل مريض. كادت قدماه تتجمَّدان من البرد القارس، والغطاء يخنق جسده، بدلًا من أن يشيع الدفء في أطرافه.

في عنبر النوم لم يكن يُسمع سوى صوت أنفاس التلامذة الهادئ المنتظم؛ فبعد يوم حافل بالحصص الدراسية وتمارين الجمباز والركض في الهواء الطلق، يكون النوم الهادئ العميق هو النهاية الطبيعية. جعل تورلس يُنصِت إلى أصوات أنفاس النائمين، مخمِّنًا: أهذا صوت أنفاس باينيبيرج أم رايتينج أم بازيني؟ لم يستطع تحديد أي صوت؛ لكن المؤكد أنه كان واحدًا من زُمرة الأصوات الكثيرة، الهادئة، منتظمة الإيقاع التي تعلو وتهبط من ماكينة عملاقة.

كانت إحدى ستائر النافذة المصنوعة من قماش الكانافا مُسدَلة حتى المنتصف فقط، وعبر الكُوَّة المكشوفة تسلَّلَ شعاع من نور القمر الرائق ليصنع مربعًا شاحبًا ثابت الأركان فوق أرضية الغرفة. كان حبل الستارة قد عُلِّقَ بالأعلى أو ربما انقطع، فتعلَّق في هيئة لفائف قبيحة، ينساب ظِلُّها على الأرض فوق المربع المنير على الأرض فبدا مثل دودة زاحفة. كان المشهد كله طافحًا بقُبْح بشع مخيف، فحاول تورلس صرف ذهنه للتفكير في شيء يسُرُّه.

فخطر بباله باينيبيرج.

ألم يغلبه في مناقشة اليوم؟ ألم يكسر شوكته؟ ألم ينجح اليوم، وللمرة الأولى في حياته، في صون فردانيته في مواجهة الآخرين؟ ألم يفعل ذلك ابتغاء التوكيد على أنه من طينة أخرى مختلفة عن الآخرين على مستوى استقلالية الرأي والمشاعر، وهو الاختلاف الذي يميِّز نظرته عن نظرة زميله إلى العالم؟ هل استطاع [باينيبيرج] أن يصُدَّ هجومه؟ نعم أم لا؟

كانت ثنائية «نعم أم لا» تتصاعد داخل رأسه مثل الفقاعات، ثم ما تلبث أن تنفجر: «نعم أم لا؟» «نعم أم لا؟» أخذت هذه الكلمة تتصاعد في رأسه هادرةً كهدير عجلات قطار سريع، أو كزهور تومئ برءوسها في الطرف الأقصى من السيقان الطويلة، أو كطرقات مطرقة يمكن سماعها عبر الجدران الرقيقة لمنزل يلُفُّه السكون.

كرِه تورلس ثنائية «نعم أم لا؟» التي كانت تُلِحُّ على رأسه بنبرة مفعمة بالنرجسية.

صحيح أنه كان فرِحًا بانتصاره على باينيبيرج، لكن فرحته كانت زائفة تقفز هنا وهناك قفزات صبيانية سخيفة. في النهاية عندما نهض أحسَّ كما لو أن رأسه مدلًّى بين كتفيه، أو أنه يعلو ويهبط بوتيرة منتظمة.

ثم هدأ روعه، ولم يرَ أمامه سوى بقعة سوداء عريضة، ممتدةً على هيئة دائرة في جميع الاتجاهات. بعدها، من أقصى حافَة هذا البقعة تَهادى شخصان صغيران عبر الطاولة. كان من الواضح أنهما والدا تورلس، لكنهما كانا صغيرَيْن للغاية لدرجة أنه لم يقدر على إدراكهما بشكل مباشر.

بعدها ظهر اثنان آخران، ولكن مهلًا! مرق ثالث من خلفهما، متجاوزًا إياهما بخطوات طولها ضعف طول جسده، ثم اختفى عند حافَة الطاولة؛ ألم يكن هذا باينيبيرج؟ وماذا عن الاثنين الآخرَيْن؟ ألم يكن أحدهما هو مدرِّس الرياضيات؟ تعرَّف إليه تورلس من المنديل الصغير الذي أخرجه

من جيبه بحركة هادئة. وماذا عن الشخص الآخر؟ الذي كان يتأبَّطَ كتابًا سميكًا يفوق حجمه مرتين تقريبًا؟ مَن هذا الذي يجرجر قدميه وهو ينوء بحمل الكتاب؟ وبين كل خطوة وأخرى يتوقَّف، ليضع الكتاب جانبًا فوق الأرض.

ثم سمع تورلس صوت مدرس الرياضيات الحاد يقول: «لو لم أكن مخطئًا فإنه يتحتم أن نجد الإجابة في الصفحة الثانية عشرة، والصفحة الثانية عشرة ستُحيلنا إلى الصفحة رقم 52، ولكن يجب أيضًا أن نأخذ في الاعتبار الملاحظة الواردة في الصفحة 31، وعلى هذا افتراض أنَّ...».

ثم انحنيا فوق الكتاب وامتدت أيديهما إليه حتى تطايرت الصفحات. وبعد برهة نهضا من فوق الآخر، وراح الشخص الثالث يلطم خدَّ مدرس الرياضيات خمس مرات أو ست.

سرعان ما تقدَّما بضع خطوات إلى الأمام ليسمعَ تورلس الصوت مجددًا، تمامًا كما كان يحدث في دروس الرياضيات عندما يشرع في شرح نظرية مُسهبة الطول تشبه الدودة الشريطية، وراح الصوت يتكرر مرارًا وتكرارًا حتى بدأ الشخص الآخر يلطم خد مدرِّس الرياضيات مرة ثانية.

من هذا الشخص الآخر؟

ضيَّق تورلس جفنيه شيئًا قليلًا ليرى رؤية أوضح. ألم يكن الشخص الآخر يضع باروكة شعر مستعار؟ ويرتدي ملابس عتيقة الطراز؟ بل عفا عليها الزمن، من النوع الذي ينتهي ذيله بالحرير؟ ألم يكن هذا الرجل هو... بالفعل!

استيقظ تورلس هاتفًا باسم: «كانط».

لكنه سرعان ما ابتسم. ران الصمت على المكان وسُمِعَت أصوات أنفاس النائمين تتردَّد بهدوء. هو أيضًا أسلم جَفنيه إلى النوم. في تلك الأثناء كان فراشه قد صار دافئًا، فتمدَّد تحت الأغطية بأريحية تامَّة، وقال في نفسه: «لقد حلُمتُ إذن بكانط. ولكن لماذا لم يستمرَّ الحُلم فترة أطول؟ ربما دردشنا قليلًا وخرجت منه بفائدة!».

في الأيام التي لا يستعدُّ فيها لمذاكرة دروس التاريخ يحلُم في الليلة السابقة للدرس بالشخصيات والأحداث التاريخية، فيصير قادرًا على الحديث عنها في اليوم التالي بطلاقة كما لو كان قد شهِدها بنفسه، وكان ينال درجة «ممتاز» في الاختبار. ثم خطر بباله في هذه اللحظة باينيبيرج ثانية، ثم باينيبيرج وكانط، تذكَّر محادثة الأمس.

انحسر عنه الحُلم تدريجيًّا كانحسار ملاءة حريرية تنزلق ببطء عن جسد عارٍ، مواصِلةً انحسارها إلى ما لا نهاية. لكن ابتسامته سرعان ما مهَّدتْ الطريق إلى قلق من نوع غريب.

سأل نفسه: هل استطاع الانتقال بأفكاره خطوة إلى الأمام؟ وهل استطاع أن يستخلص من هذا الكتاب شيئًا يحلُّ به ألغاز العالم؟ وماذا عن انتصاره على باينيبيرج؟ المؤكد أن حماسته غير المتوقَّعة هي التي ألجَمتْ لسان باينيبيرج.

استولى عليه مجددًا شعور بضجرٍ عميق ورغبة جسدية عارمة في التقيُّؤ، بقي راقدًا هكذا مدة دقائق، وقد غزاه شعور بالتقزُّز. أحسَّ مرة أخرى بالملمس الناعم الدافئ للملاءات التي تلامس كل شعرة في جسده. ببطء وحرص بالغَيْن أدار رأسه. نعم، كان المربع الباهت ما يزال مرسومًا فوق أرضية الحجرة، صحيح أن شكله قد انبعج قليلًا، لكن الظل المتعرج كان يمُرُّ وسط المربع.

بدا الأمر كما لو أنَّ في هذه البقعة خطرًا مقيدًا بالسلاسل؛ خطر يمكن لتورلس مراقبته بأمان وهدوء من سريره كما لو كان محميًّا بقضبان حديدية. تحت جلده، وداخل كل ذرة من ذرات جسده استيقظَ شعور ما لَبِث أن تحَوَّل إلى ذكرى مُستعادة.

في سنوات طفولته المبكِّرة، نعم، نعم، هكذا كان الأمر، عندما كان طفلًا صغيرًا، لمَّا يذهب إلى المدرسة بعدُ، كانت تمُرُّ عليه أوقات يستبِدُّ به شوق لا يوصف إلى أن يكون فتاة.

لم يكن هذا الشوق يملأ رأسه، لا، ولا قلبه وحسب، بل كان شوقًا يدغدغ جسده كله، وينفُذُ إلى تحت جلده. نعم، كانت تَمُرُّ به لحظات يشعر فيها بالحياة كطفلة صغيرة إلى درجة اعتقاده أن الأمر لا يمكن إلا أن يكون على هذا النحو. في ذلك الوقت لم يكن يعرف شيئًا عن الاختلافات الجسدية بين الجنسين، ولم يفهم لماذا كان يخبره الجميع بضرورة أن يبقى صبيًّا إلى الأبد. وكلما سأله أحدهم عن سبب اعتقاده أنه فتاة، أحسَّ أنه شيئ لا يمكن تفسيره...

وها هو اليوم، وللمرة الأولى، يغزوه شعور مماثل، ينفُذُ إلى أعماقه.

شعور جسدي ونفسي في آنٍ واحد. شعور بالملاحقة والحركة المحمومة كما لو أنَّ آلاف قرون الاستشعار لفراشات مخملية تشق طريقها عبر جسده. وكان كذلك شعور العناد الذي تواجه به الشابات الصغيرات البالغين حين يتعرَّضن لعدم الفَهم؛ شعور الغطرسة التي تضحك بها الفتيات على الكبار من وراء ظهورهم؛ تلك الغطرسة الخَجْلى المستعدة للهروب السريع دائمًا، الغطرسة التي تُعطي انطباعًا بقدرة الفتيات على الانسحاب والاختباء داخل أجسادهنَّ الصغيرة في أية لحظة.

ضحِكَ تورلس على نفسه من هذه الأفكار، وعاد ليتمدَّد تحت الغطاء مرة ثانية.

وماذا عن الرجل الصغير المضحك الذي حَلم به وكان يتصفَّح الكتاب بفضول؟ وماذا عن مربع الضوء المرسوم على الأرض؟ ها ها! هل سبق وأن تنبَّه البالغون الأذكياء إلى شيء من هذا القبيل على مدار حياتهم كلها؟

أحسَّ تورلس أنه في أمان تامّ من شرِّ البالغين الأذكياء، وقد أدرك للمرة الأولى أنَّ طبيعته الحسية تنطَّوي على ميزة تخصُّه وحده، ولا يقوى أحد على انتزاعها منه ولا تقليدها، وهي ميزة بوسعها حمايته من حكمة الكِبار وحذلقتهم، وكأنه متحصِّن وراء جدار عالٍ غير مرئي.

واصل تورلس مناجاته متسائلًا: هل جرَّبَ البالغون الأذكياء، ولو مرة في حياتهم، الجلوس أسفل جدار منعزل، فيأخذهم خوف ورعدة عند كل حركة تدبُّ وراءه كما لو أنَّ شيئًا ميتًا يحاول التواصل معهم عبر الكلمات؟

وهل أصغَوْا يومًا إلى أنغام الموسيقى التي تثيرها الرياح في أوراق الخريف؟ هل جرَّبوها تجربة عميقة تسمح لهم بإدراك أنَّها تخلق رعبًا، ما يلبث أن يتحول بوتيرة بطيئة إلى متعة حسية؟

وبرغم ذلك فهي متعة حسية غريبة الأطوار لدرجة أنها أشبه بالهروب، ثم أشبه بضحكة ساخرة. صحيح! ما أسهل أن تكون ذكيًّا عندما لا تشغل ذهنك بأسئلة شائكة.

في تلك الأثناء ازداد حجم الرجل الصغير المضحك حتى بلغ حجمًا هائلًا، واكتسى وجهه ملامح صارمة، وفي كل مرة ينظر إليه تورلس، تنتفض دماغه انتفاضًا كمن مسَّته صدمة كهربية مؤلمة، يشبه ألمها ألمَ الاضطرار إلى الوقوف أمام بوابة مغلقة بلا أمل في الدخول.

كان ألمًا جعل الدَّمَ يفور في رأسه قبل لحظات قليلة، ثم عاد لينشر نواحًا مكتومًا داخل رُوحه؛ نواح أشبه بعواء كلب مذعور، يتردد صداه عبر الحقول المفتوحة في هدأة الليل.

ثمَّ غفا. كان نصف نائم إذ يرمي البقعة المجاورة للنافذة بنظرات متتابعة، بالطريقة نفسها التي ينظر بها المرء نظرة آلية إلى حبل نجاته ليتأكَّد من متانته.

أرجأ تورلس التفكير في المسألة إلى صباح الغد، ويا حبذا لو فكَّر فيها بالورقة والقلم. في النهاية لم يبقَ عنده سوى الإحساس الدافئ اللذيذ؛ لذة الاستحمام أو الإثارة الحسِّيَّة، اللذة التي لم تكن تراوده من تلقاء نفسها، بل مقرونة بطريقة غامضة، وقوية بذكرى بازيني.

بعدها سقط في نوم عميق بلا أحلام.

(13)

في الصباح أفاق تورلس على الفكرة التي نام عليها بالأمس.

كان يتحرَّق شوقًا لمعرفة الفكرة التي راودته بشأن بازيني وهو بين النوم واليقظة، لكنه لم يتذكر شيئًا. ولم تبقَ في ذاكرته إلا الأجواء اللطيفة المُفعَمَة بالحنان التي تسود المنزل قُبَيْلَ أعياد الميلاد المجيد، وتحديدًا في اللحظة التي يَعلَمُ الأطفال بوجود هدايا عيد الميلاد جاهزة، لكنها مُخبأة خلف الباب المُقفَل الغامض، الذي يبُثُّ شعاعًا خافتًا عبر فجوات صغيرة. في مساء ذلك اليوم بقي تورلس في الفصل. كان باينيبيرج ورايتينج قد اختفيا في مكان ما، ربما في غرفة العلِّيَّة. ورأى بازيني جالسًا فوق المقعد الأمامي، ورأسه بين يديه، مستغرقًا في قراءة كتاب. اشترى تورلس قبلها دفتر ملاحظات وجَلبَ قلمًا ومحبرة.

بعد لحظة من التردُّد كتَب أعلى الصفحة الأولى* «De natura hominum»، إذ حدَسَ أنَّ العنوان اللاتيني هو الأليق بموضوع فلسفي كهذا. ثم وشَّى العنوان بزخرفة كبيرة ومتقنة ورجع ليتَّكِئ على كرسيه، منتظرًا جفاف الحبر. وبرغم انقضاء برهة بعد جفاف الحبر لم يعاود الْتقاط قلمه، وكأن شيئًا ما يشلُّ حركته. شيء مردُّهُ الجوُّ الباعث على النوم بأثر المصابيح الكبيرة الدافئة، والحرارة المنبعثة من الغرفة الغاصَّة بالأجساد البشرية. كان مفرط الحساسية إلى هذه الأجواء التي كانت تصيبه بالحمَّى، فضلًا عن قدومها مقرونة بشَحْذِ قواه الروحية إلى حدودها القصوى.

---

* وردت باللاتينية في الأصل: بحث في الطبيعة البشرية (المترجم).

كانت هذه حالته في تلك اللحظة. أمضى ساعات النهار في تهيئة ذهنه لما هو بصدد كتابته: سلسلة التجارِب التي مرَّت به بداية من الليلة التي قضاها في غرفة بوزينا وصولًا إلى الإثارة الحسِّيَّة الغامضة التي غزت جسده في الأيام القليلة المنصرمة.

حداه أمل قوي في تبلور صورة ذهنية منطقية لو أنَّه رتَّب الأحداث ترتيبًا سليمًا، ودوَّنت الحقائق تدوينًا دقيقًا، بالطريقة ذاتها التي يتبلور فيها شكل واضح من وسط غابة من الخطوط المتشابكة الملتفَّة.

ولم يُرد أكثر من ذلك. برغم هذا راوده إحساس غامض بأنَّ حالته أشبه بحالة صياد تشعر أنامله باهتزاز شباك الصيد، مُدركًا وقوعه على صيد ثمين، لكنه عاجز عن سحب الصَّيدِ إلى متن القارب مهما حاول من جُهد. برغم ذلك شرع في الكتابة، فجعل يكتب كتابة متعجِّلة، لا تُعير انتباهًا إلى اتِّساق الأسلوب.

دوَّن في دفتره: «أشعرُ بشيء يجيش في صدري، لكني لا أدرى طبيعته على وجه الدقة».

لكنه سرعان ما شطبَ هذا السطر على الفور وكتب مكانه: «لا بدَّ أني مريض، بل مسَّني الجنون».

انتابته قشعريرة باردة بسبب وقع هذه الكلمة المثيرة للشفقة.

- «جنون! فإن لم يكن جنونًا فلماذا أستوحِشُ الأشياء التي يراها الآخرون عادية مبتذلة؟ ولِمَ تؤرِّق بالي هذه الوحشة؟ ولمَ تُثير في نفسي هذه الأحاسيس البذيئة؟» اختار عمدًا هذه الكلمة المفعمة بمسحة من لغة الكتاب المقدَّس، لأنها بدت له أشدَّ قتامة وثراء. «كنت أواجه الأمر كما يواجهه أي شاب، شأني كشأن كل رفاقي».

عندها تعثَّر القلم في يده، فقال في نفسه: «ولكن أهذا صحيح أيضًا؟» تلك الفكرة العجيبة التي انتابته حينما كان في غرفة بوزينا مثلًا، «متى بدأت هذه الحكاية إذن؟ لا يهم»، قال في نفسه: «جاءتني مرة واحدة على أي حال».

ثم ترك الجُملة منقوصة ولم يُكملها.

- «ولكن ما نوع الأشياء التي أستوحشُ منها؟ هي أشدُّ الأشياء تفاهة وأفقرها رُوحًا. وما الذي يوحشني منها؟ هاجس لا أعرف طبيعته، وهذا هو مربط الفرس. ولكن من أي يأتي هذا الهاجس؟ هو هاجس أحسُّ بوجوده ويحرِّك عواطفي وكأنه يريد أن ينطق أمامي. تتملَّكني حالة اضطراب تشبه حالة إنسان يحاول استقراء الكلمات من فوق شفاه ملتوية لرجل مشلول، ولا يقدر.

أشعر كما لو أنَّ عندي حاسة سادسة أنفرد بها عن أقراني، لكنها حاسة غير مكتملة النضج، صحيح أنها موجودة، تحاول لفت الأنظار، لكنها معطوبة. في عيني يغصُّ هذا العالم بالأصوات الصامتة، فأقول لنفسي: هل أنا صاحب رؤيا أم أنني مهلوس؟

لكن شعور الوحشة لم يكن مقصورًا على الأشياء الجامدة وحدها، بل امتدَّ ليشمل البشر كذلك. فحتى لحظةٍ بعينها كنتُ أرى البشر كما يرون أنفسهم. رايتينج وباينيبيرج على سبيل المثال اللذين كانا يحتفظان بغرفة صغيرة عادية وسرِّيَّة في العلِّيَّة، إذ وجَدَا سعادة هائلة في الاحتفاظ بمخبأ سري بعيد عن الأنظار يلوذان به. كانا يشتركان في فعل شيء واحد لأنهما غاضبان من فلان، ويشتركان في فعل شيء آخر لأنهما يريدان منع فلان من التأثير على صديقهما.

صحيح أنها أسباب محددة واضحة المعالم، لكن يراودني أحيانًا شعور أنني أحلُم، وأن رفاقي ليسوا إلا طرفًا في هذا الحُلم. ولا أقصد هنا كلامهم وأفعالهم، لا، بل كل شيء متعلِّق بهم، كان كل شيء متعلِّق بقُربهم الجسدي يحرِّك في نفسي الشعور نفسه الذي تُحرِّكه فيَّ الأشياء الجامدة. برغم ذلك كنتُ أسمعهما يتحدثَّان إلى جواري كما اعتادا أن يفعلا، وكنت أرى كلامهما وأفعالهما نسخة مكرَّرة مما اعتادا قوله وفعله، وكأن شيئًا يريد أن ينبِّهني على الدوام بألا غرابة في الأمر، وكأن شيئًا آخر يصرخ في نفسي على الدوام رافضًا ذلك. لو لم تخُنِّي الذاكرة بدأت هذه الحكاية عندما كان بازيني...»

شَخَصَ تورلس ببصره إلى الأمام بشكل لا إرادي، فرأى بازيني ما يزال عاكفًا على كتابه، وبدا أنه يذاكر دروسه. في اللحظة التي وقع فيها بصرُ تورلس عليه، سكتت عنه هذه الأفكار، وشَعر مجددًا بوَقْع عذابها الممتع الذي كان يصِفُه للتو. في اللحظة التي رأى فيها بازيني جالسًا أمامه، هادئًا لا خوف منه، ولا يختلف عن أقرانه الجالسين عن اليمين والشمال، انبعثت في ذاكرته صنوف الإهانة والأذى التي تعرَّض لها ذلك الفتى.

تأججت هذه الذكريات حية نابضة في رأسه؛ لكن ذلك لم يكن يعني أنَّ [بازيني] كان يأخذ الأمور برُوح رياضية، كما قد يذهب أصحاب النزعة الأخلاقية إلى قول إن الإنسان بعد تحمُّل صنوف الإذلال والإهانة، يسعى إلى استرداد شيء من مظاهر الهدوء ورباطة الجأش، على الأقل ظاهريًّا.

ما حدث أنَّ شعورًا ما جاش في أعماقه؛ شعور أشبه بدوامة أفكار مجنونة حوَّلت صورة بازيني إلى مسخ مشوَّه بشع لا يُطاق، ثم ما لبثت أن مزَّقت هذه الدوامة صورة بازيني شرَّ مُمزَّق، لدرجة أصابت تورلس بالدوار.

والحقيقة أنَّ الكلمات السابقة لم تكن إلا صورًا تَفتَّق عنها ذهن تورلس في وقت لاحق من باب المقارنة. أما في هذه اللحظة فلم يكن يراوده إلا شعور واحد؛ هو أن ثمة دوامة جنونية تفور من صدره الضَّيِّق صاعدةً إلى رأسه؛ شعور بالدوار. كانت الانطباعات التي تشكَّلت لديه عن بازيني في أوقات متفرِّقة تتقافز أمامه مثل بقع من الألوان المتناثرة.

واقع الأمر أنه كان شعورًا واحدًا لا يتغير. والأجدر أن نقول إنه لم يكن شعورًا بقدر ما كان زلزالًا دفينًا يهزُّ أعماقه، ولا يُسفر عن هزَّات ارتجاجية فوق السطح، لكنه برغم ذلك يعصف بروح تورلس عصفًا قويًّا لدرجة أن مشاعر الفتى المضطربة بدت مثل تموجات غير مؤذية على السطح قياسًا بهذه العاصفة المُزلزِلة.

راوَدَ هذا الشعور تورلس بأشكال متفاوتة وفي أوقات متباينة، ومَرَدُّ ذلك أنَّ وسيلته الوحيدة لفهم زلزال العواطف والانفعالات الذي غمر كيانه كانت الصور التي كانت تلتقطها حواسُّه. وكانت طريقة التقاط هذه الصور أشبه بالطريقة التي تتفجَّر بها الرَّغَوات المتكونة من موجة هائلة ممتدة إلى ما لا نهاية في قلب الظلام، لتتناثر فوق صخور الشاطئ المتلألئة تحت ضياء الشمس، ثم تتلاشى مغلوبة على أمرها بعيدًا.

والنتيجة أن هذه الانطباعات كانت مَشُوبة بالتشوش والتبدُّل والطابع المؤقَّت. فلم يُفلح في القبض عليها قَطُّ، لأنه بمجرد الاقتراب منها وتدقيق النظر إليها، كان يدرك أنَّ الظواهر البادية على السطح لا تمتُّ بأدنى صلة إلى المادة الكثيفة المظلمة الثاوية في الأعماق.

وكان من شأن ذلك أن تورلس لم «يرَ»* بازيني قط ككيانٍ مادي من لحم ودمٍ أيًّا ما كانت هيئته، بل واقع الأمر أنه لم يرَ بازيني رؤيا العين، بل

* التنصيص من عند المؤلف (المترجم).

رآه وهمًا، أو لو جاز التعبير كان يراه مثالًا متوَّهمًا يعكس رؤاه الشخصية. بدت صورة بازيني مثل بريق يومض وميضًا خاطفًا وسط مساحة شاسعة غامضة، فيعجز عن الإمساك به لحظة ظهورها أمام عينيه.

ولهذا السبب كانت نفْس تورلس تموج باضطراب لا يهدأ أبدًا؛ كان اضطرابه شيئًا أشبه بشعور المتفرِّج الواقف أمام آلة السينماتوغراف (جهاز تصوير سينمائي)، فبرغم شعور الإيحاء الذي يبعثه الفيلم، لا يستطيع المتفرِّج أن يطرد عن ذهنه فكرة أنَّ مئات الصور الأخرى تختبئ خلف الصورة التي تراها عيناه.

ولكن أين يتحتَّم عليه البحث عن تلك القوة الخالقة للوهم، ضعيفة الأثر في آنٍ واحد؟ كان هذا سؤالًا محيِّرًا لم يعرف إجابته قط.

راوده حدس غامض بأن هذا الشعور مرتبط بقدرته الرُّوحية الغامضة على استشعار آلاف النظرات الصامتة المتسائلة المنبعثة من الأشياء الجامدة.

لذا لزِم تورلس مكانه لا يحرك ساكنًا، وبصره لا يحيد عن بازيني، وقد استولت عليه عاصفة من الفوران الداخلي، وسؤال واحد يُلحُّ على ذهنه مرارًا وتَكرارًا: أية ميزة أتحلَّى بها عن غيري؟

شيئًا فشيئًا تلاشت صورة بازيني وصورة المصابيح المتوهِّجة الساخنة من أمام عينيه، ثم زال عنه الإحساس بالدفء المطوِّق لأرجاء المكان، ولم يعُد يسمع الدندنة أو الجلبة المنبعثة من حشود التلاميذ حتى لو كان يتهامسون. بدأ كل شيء يتأرجَح من حوله على هيئة حلقات دائرية هلامية، شيء أشبه بكتلة ساخنة متوهجة مخيفة.

أحسَّ بحُرقة تغزو أذنَيْه وبرودة قارسة تُجمِّد أطراف أصابعه. لم تضرب أوصاله الحُمَّى الجسدية المعروفة، بل تلك الحُمَّى الرُّوحية التي كان مُتيَّمًا بها، ثم راحت هذه الحالة المِزاجية تتصاعد بقوة، ممتزجة بمشاعره الرقيقة.

في مثل هذه الحالة المِزاجية كان تورلس يحبُّ أن يُسلِّم نفسه إلى ذكريات مرتبطة بامرأة أحسَّ بأنفاسها الحارة للمرة الأولى، فتركت أثرها في روح الصبي اليافع، استيقظت في نفسه ذكرى هذه الأنفاس الحارة اليوم أيضًا.

تذكَّر أنه سافر ذات مرة مع والدَيْه إلى مدينة إيطالية صغيرة، فسكن الثلاثة في نُزُلٍ غير بعيد عن المسرح. وفي كل ليلة يَحضُرون حفلة الأوبرا نفسها، ويستمعون إلى الكلمات نفسها والأنغام نفسها، لكنه لم يكن يَفهم حرفًا لعدم معرفته باللغة الإيطالية.

برغم ذلك اعتاد الجلوس كل أُمسِيَة إلى جوار النافذة، منصتًا إلى موسيقى العرض الأوبرالي، فوقع في غرام إحدى الممثلات من دون حتى أن يراها. لم يسبق أن حرَّك المسرحُ عواطفَه مثلما فعل هذه المرة، كانت نفس تورلس تستقبل المشاعر المنبعثة من الألحان وكأنها خَفَقان أجنحة طيور سود هائلة الحجم، وبدا له أنه قادر على استشعار مسار رحلة الطير داخل رُوحه. عندما كان تورلس يُنصِت إلى الموسيقى لم يكن يسمع أصوات عواطف البشر، بل يسمع أصوات العواطف الهاربة من قلوبهم، وكأنها لائذة بالفرار من أقفاص ضيقة سقيمة.

وفي غمرة هذه الحماسة المفرطة لم يستطع التفكير في الممثلين الواقفين على خشبة المسرح –وهو لا يراهم– إذ يُؤَدُّون هذه المشاهد أمام الجمهور. وحتى لو حاول تخيُّل أشكالهم كانت ترتفع أمام ناظريه

ألسنة عالية من اللهب أو صورٍ عملاقة، كما لو كانت أجسادًا بشرية يُرى انعكاس صورتها في عتمة الظلام، ويرى لمعة أعينهم كما لو كانت تنعكس في قاع بئر عميقة. في هذه اللحظة أحبَّ تورلس اللهب المرتفع والأعين اللامعة في الظلام، والأجنحة السُّود الخفاقة في صورة تلك الممثلة الأوبرالية التي لم يكن يعرف اسمها.

ولكن مَن كتب هذه الأوبرا؟ لم يكن يدري. ربما كان نَصُّ الأوبرا مأخوذًا من رواية عاطفية حالمة. ولكن هل أحسَّ مؤلِّفها أنها قد تحولت إلى شيء آخر تمامًا في صحبة أنغام الموسيقى؟

داهمته فكرة جعلت جسمه ينتفِض.

هل يصْدُق كلامه الأخير على الكبار أيضًا؟ وأتراه ينسحب على العالم برمته؟

هل ثمة سنة كونية تقضي بوجود شيء في أعماقنا أقوى وأعظم وأعذب وأرهف، بل وأشدَّ غموضًا من أنفسنا؟ شيء لا نملك عليه سلطانًا؟ شيء لا نملك أمامه إلا أن ننثر آلاف البذور بشكل عشوائي، وفي أنفسنا أمل أنْ تثمرَ البذور عن شعلة غامضة عالية اللهب تُجاوِز رؤوسنا؟

كانت كل ذرة من كيانه تنطق قولًا واحدًا: «نعم، هو كذلك».

جال تورلس ببصره في أرجاء الغرفة بعينين لامعتين، فرأى أمامه مصابيح الغاز، وأحسَّ بالدفء، وأبصر الضوء والتلاميذ العاكفين على دروسهم. فخطر له أنَّه اصطُفِي من بين الموجودين، وكأن السماء اختصَّته بالرؤى المباركة دون غيره، لأنه حتى هذه اللحظة لم يكن يعرف شيئًا عن حدس كبار الفنانين.

بحركة خاطفة، ومدفوعًا باستعجال قلِق الْتقط قلمه، ودوَّن بضعة أسطر حول الفكرة التي توصَّل إليها، وأحسَّ كما لو أنَّ ضوءًا باطنيًّا ينبعث من أعماقه.

تساقطت قطرات من المطر الرمادي فوق عينيه، فانطفأ الألَق الملوَّن الذي كان قد انبعث في رُوحه.

***

في هذه اللحظة طرح تورلس مسألة التفكير في كانط وراء ظهره؛ إذ لم يَطُف برأسه الموضوع طوال اليوم. اقتنع بأنه على وشك حلِّ ألغاز حياته، فأغناه ذلك عن انتهاج طريق رجل آخر.

منذ البارحة لم يفارقه شعور بأن يده تلامس مقبض الباب المؤدي إلى ساحة الحقيقة، إلا أنَّ كَفَّه انزلقت من فوق المقبض. وفي اللحظة التي أدركَ فيها ضرورة الاستغناء عن معونة كتب الفلسفة، ناهيك بفقدان ثقته بها، كان في حيرة من أمره كيف يعثر على مقبض الباب مجددًا.

صحيح أنه حاول أكثر من مرة الاستمرار في تدوين ملاحظاته، لكن كلماته بقيت على الأوراق خلوًا من الروح، مجرد سلسة من الأسئلة الكئيبة التي يعرف إجابتها منذ أمد بعيد.

لم يقع مجددًا على تلك اللحظة التي كان ينظر فيها إلى الكلمات فيرى شيئًا أشبه بقبوٍ أضاءته ألسنة اللهب المشتعلة. ومن هنا عقد عزمه على البحث، قدر استطاعته، دونما توقف، عن المواقف الممتلئة بهذا المعنى بالنسبة إليه، حاشدًا تركيزه على بازيني، لا سيما في الأوقات التي لا يشعر فيها الأخير بأنه موضع مراقبة وأنه يتحرك بحرية وسط الآخرين.

قال تورلس في نفسه: «ذات مرة ستُعاود هذه اللحظة الظهور حية نابضة، وربما أشدَّ امتلاءً بالحيوية والوضوح مما كانت في السابق».

انشرح صدره لهذه الفكرة؛ أن يرى المرء نفسَه في حجرة مُعتِمة بلا باب خروج، فيصبح السبيل الوحيد أمامه هو مواصلة تحسُّس حوائط الغرفة القاتمة بأنامله كيفما اتَّفق حتى يجد باب الخروج بضربة حظ. أما ليلًا فكانت هذه الأفكار تتبدَّل قليلًا بعد أن خجِل من نفسه قليلًا بسبب انصرافه عن خطته الأصلية للعثور على تفسير ما يشغل ذهنه في الكتاب الذي رآه في غرفة مدرِّس الرياضيات.

وهكذا لزم تورلس مكانه، مُرهِفًا السمع إلى صوت أنفاس بازيني؛ ذلك الجسد المدنَّس الذي كان يشهق ويزفر مثله مثل الآخرين. لزم مكانه لا يحرك ساكنًا مثل صياد متربِّص بفريسته، ومملوءًا بشعور أن فترة انتظاره لن تذهب سُدًى أبدًا.

ولكن حالما راودته فكرة كتاب الفلسفة مجددًا، بدأ الشك يفترس عقله ويعكِّر صفوه، وتسرَّب إليه شعور بأنه يبدد وقت بلا طائل، وكأنه يعترف لنفسه على استحياء بالهزيمة. وبمجرَّد أن ترسخ هذا الشك في عقله حتى بدأ يفقد الشعور بالرضا الذي يصاحب المرء وهو يراقب تطوُّر تجرِبة عملية.

وبدا الأمر كما لو أن بازيني آلة تمارس فيه تأثيرًا ماديًّا، شيء أشبه بالإغواء الذي نشعر به عندما ننام إلى جوار امرأة ويكون بمقدورنا إزاحة الغطاء عن جسمها في أية لحظة... دغدغة تصيب الدماغ مصدرها معرفتنا بأنَّ كل ما علينا هو مدُّ أيدينا وإزاحة الغطاء. وهذا الشيء هو ما يدفع الأزواج الشباب غالبًا إلى الممارسات المفرطة التي تتجاوز احتياجاتهم الجسدية.

***

تفاوتت حدَّة الإثارة الحسِّيَّة هاته –التي كانت تُبقِي عينيه مفتوحتين على اتساعهما– بين القوة والضعف، واقترنت في كل مرة بمقدار سخافة رغبته في معرفة كل شيء، شأنه شأن كانط أو مدرِّس الرياضيات أو أيٍّ ممن أنهَوْا دراستهم. ومرَّت عليه لحظات تأججت فيها نيران هذه المشاعر الحسِّيَّة حتى تكاد تخنق ما سواها من أفكار.

فكَّر أنه لو أسلم عقله بنصف رغبة ونصف قنوط إلى وساوسهما*، فسيكون مثله مثل السواد الأعظم من البشر الذين لم يجرِّبوا قط الانغماس في مثل هذا النوع من الرغبة الحسِّيَّة المحمومة، الفاجرة، الممزِّقة للرُّوح، إلا عندما يُمنَوْن بهزيمة ساحقة تزعزع ثقتهم بأنفسهم، فلا يجدون طريقًا إلا الانغماس في الرغبة.

في هدأة الليل نام نومًا متقطعًا، فتخيَّل أنه يرى شخصًا في المنطقة المحيطة بسرير باينيبيرج أو سرير رايتينج، ينهض ويسحب معطفه، قاصدًا سرير بازيني، ليغادر الاثنان عنبر النوم...

أو ربما كان هذا خيالًا صوَّره له عقله.

---

* أي وساوس كانط ومدرس الرياضيات (المترجم).

(14)

بعد وقت قصير مُنح التلاميذ إجازة مدَّتُها يومين. ثم تصادف وقوع الإجازة يومي الإثنين والثلاثاء، فقرَّر مدير المدرسة منح التلاميذ إجازة إضافية يوم السبت السابق على العطلة، فطالت مدة العطلة إلى أربعة أيام كاملة.

بالنسبة إلى تورلس فمدَّة الإجازة أقصر من السفر إلى مسقط رأسه، فأمَّل أن يزوره أبواه، لكن والده كان مرتبطًا بمهمة عمل عاجلة في الوزارة، ولم تلمُس أمُّه في نفسها القدرة على القيام بمفردها بهذه الرحلة الطويلة الشاقَّة. عرف تورلس أن القدَر رتَّب الأوراق لصالحه، وتحديدًا عندما وصلته رسالة من والديه، يخبرانه فيها –وسط كثير من كلمات تطييب الخاطر– بعدم قدرتهما على زيارته هذه المرة.

ارتاح قلبه، إذ أدرك أن الزيارة كانت ستتحول إلى مصدر إزعاج، بل إلى مصدر اضطراب شديد، بسبب اضطراراه وقتها إلى مصارحة والديه بما جرى.

تلقَّى العديد من التلاميذ دعوات لزيارة أماكن قريبة. كان جوشوا، الذي يملك والداه ضيعة رائعة تقع على بعد مسيرة يوم واحدة بالسيارة من هذه البلدة الصغيرة، قد أخذ إجازة، ورافقه فيها باينيبيرج ورايتينج وهوفماير. دعا بازيني إلى السفر معهما، لكن رايتينيج أمَرَ الأخير برفض الدعوة. أما تورلس فقد تعلَّل بعدم تأكُّده من خبر قدوم والديه لزيارته من عدمه، حيث لم يكن في حالة مزاجية تسمح له باللهو البريء والاحتفال والدردشة.

بحلول منتصف نهار السبت غرقت المدرسة كلها في صمت مُطبِق، فبدت مثل مبنى مهجور. وكان تورلس عندما يسير في ممرات المدرسة يسمع وقع خطواته تتردَّد من ركن إلى آخر، لم يكن أحد يأبَه لوجوده، بعد أن خرج أغلب المدرِّسين إلى الصيد أو قصدوا مكانًا آخر.

أما الماكثون من الأولاد فكانوا يلتقون في أوقات تناول الوجبات، التي قدمت في غرفة صغيرة مجاورة لقاعة الطعام الخاوية. وبعد تناول الطعام تتفرَّق بهم السبل، وتتبعثر خطواتهم في متاهة الغرف والممرات الواسعة، وكأن صمت المكان قد ابتلعهم، ولم يكن وجودهم في هذه الأوقات أقل خفاءً من وجود العناكب وديدان الخشب التي تسكن الأقبية والعلِّيَّة.

لم يتخلَّف عن الرحلة من فصل تورلس إلا هو وبازيني، بالإضافة إلى عدد قليل من التلاميذ المرضى. عند الوداع تبادل رايتينج بعض الكلمات الهامسة مع تورلس، مُنبِّهًا الأخير إلى بازيني. كان رايتينج يخشى أن ينتهز بازيني فرصة العطلة ويطلب الحماية من أحد المدرِّسين، فأوصى تورلس بضرورة ألا يغيب بازيني عن بصره ثانية واحدة. لكن تورلس لم يكن بحاجة إلى توصية لتركيز انتباهه على بازيني.

تبدَّد صخب وضجيج العربات المتجمِّعة أمام المدخل الرئيسي، والخدَم الحاملين لأمتعة التلامذة، والأولاد الضاجِّين بالضحك والمزاح وهم يتبادلون كلمات الوادع، قبل أن يستحوذ على تورلس شعور طاغٍ بأنه الآن بمفرده مع بازيني.

بعد الغداء، جلس بازيني في مكانه المعتاد أول الفصل، عاكفًا على كتابة رسالة، بينما انتبذ تورلس من مقاعد الفصل ركنًا خلفيًّا، محاولًا القراءة، وفي يده الكتاب نفسه مثل المرة السابقة، وقد رتَّبَ تفاصيل

كل شيء بعناية: جلس بازيني في الصف الأول، بينما جلس تورلس في الصف الأخير، مصوِّبًا بصره على زميله، ومراقبًا إياه بنظرات تكاد تخترق جسده. كانت هذه هي الطريقة التي اختارها لقراءة بازيني، ومع كل صفحة تقلِّبها أصابعه يسبر أغوار بازيني أكثر وأكثر.

نعم، هكذا ينبغي أن تجري الأمور، هكذا ينبغي له أن يبلغ الحقيقة من دون أن يدع الحياة تُفلِت من بين يديه، تلك الحياة الممتلئة بالزخم، الطافحة بالتعقيد والشكوك.

لكن الأمر لم يسِر كما يشتهي، كما هو الحال دائمًا عندما يرهق ذهنه بالتفكير المرتَّب المسبق في كل شيء. كانت محاولته تفتقر إلى العفوية، فما لبث أن تبدَّل مزاجه سريعًا، متحولًا إلى حالة من الملل العنيد الجامح المتشبِّث، وانتابه نفور من نفسه ومن محاولاته الدائمة ليكون كل شيء مُعدًّا ومرتبًا.

ألقى تورلس بالكتاب على الأرض غاضبًا، فالتفتَ بازيني إلى الوراء مذعورًا، لكنه سرعان ما استأنف كتابة رسالته مجددًا. بدأ وقت المغيب يدنو رويدًا رويدًا، وتورلس قاعد في مكانه متبلِّد الذهن، لا يخفِّف من حِدَّة الهسهسة الكئيبة المحيطة إلا صوتُ دقَّات ساعته، التي كانت تهتزُّ كمثل اهتزاز ذيل صغير في نهاية الجسد الخامل للزمن.

غرقت الغرفة في الظلام الدامس. انقضى وقت طويل، ولم يكن بازيني قد أنهى كتابة رسالته بعدُ. قال تورلس في نفسه: «آه! ربما لا يملك الجرأة لإشعال المصباح».

هل كان [بازيني] ما يزال جالسًا في مكانه؟ وقبل أن يلقي نظرة عبر النافذة على الريف الملفوف بالظلام الدامس، وجد أنَّ عينيه قد اعتادتا ظلام الغرفة.

نعم، هناك ما يزال الظلُّ الساكن في مكانه، من المؤكد أنه هو، آه! إنه يتنهَّد... مرة، مرتان، أم تُراه استسلم للنُّعاس؟

دخل خادم ليشعل مصابيح الغرفة، فبدأ بازيني يفرك عينيه، ثم أخرج كتابًا من الدرج وبدا أنه يتهيَّأ للمذاكرة. اجتاحتْ تورلس الرغبة في الحديث إليه، ولدفع هذه الرغبة غادر الغرفة مسرعًا.

***

في الليل كان تورلس على وشك الانقضاض على بازيني نتيجة استيقاظ رغبة وحشية في أعماقه بعد هذا اليوم الخامل البليد، لكن النوم أنقذه في اللحظة المناسبة.

مرَّ اليوم التالي بنفس الوتيرة المعتادة الطافحة بالسكون العقيم. استفزَّ جوُّ السكون والترقُّب تورلس، واستنفد التركيزُ المتواصل قواه إلى درجة لم يعُد معها قادرًا على التفكير في أي شيء.

كان محطَّم الرُّوح، خائب الرجاء، ساخطًا على نفسه إلى درجة الشكِّ في ذاته، فخلد إلى الفراش في ساعة مبكِّرة. وبينما كان يتقلَّب في الفراش ساهدًا، سمع صوت بازيني.

سكنت جوارحه بينما عيناه تتابعان حركة الشبح الأسود المارق إلى جوار سريره، ثم سمع صوت خلع الثياب، وخشخشة الأغطية وهي تُسحب فوق الجسد. حبس أنفاسه وأرهف أذنيه، لكنه لم يسمع شيئًا. برغم ذلك لم يفارقه شعور أن بازيني لم ينَم، وأن حواسَّه متنبِّهة، وأنه يصغي السمع إلى سكون الظلام مثله تمامًا. تحوَّل ربع الساعة إلى ساعات طويلة لا يقطع سكونها إلا صوت تقلُّب جسده في الفراش بين دقيقة وأخرى بحركة خافتة غير ملحوظة.

تلبَّست تورلس حالة عجيبة أبقته متيقظًا. بالأمس أحاطتْ به الصور الوحشية المحمومة التي هيَّأها لها عقله، وفي آخر الأمر تركزت هذه العلاقة في شخص بازيني، كما لو أن يد النوم الباطشة التي كانت تطرد عنه هذه الأفكار قد شُلَّت، تاركةً فيه ذكرى غائمة.

أما اليوم فلازمته رغبة ملِحَّة في مغادرة الفراش والتوجُّه إلى سرير بازيني. لم يفارقه شعور أن بازيني مستيقظ يسترِقُ السمع إلى مناجاته الداخلية، وكان هذا الشعور يُلح عليه بشدة.

أما الآن وبعد أن تأكَّد من غرق بازيني في النوم، اجتاحته رغبة مشتعلة جامحة في الانقضاض على ذلك النائم مثل انقضاض حيوان كاسر على فريسته. أحسَّ بحركة جوارحه واختلاج عضلات جسده الراغبة في مغادرة الفراش، لكنه برغم ذلك لم يستطع التخلُّص من جموده.

مسكونًا بذعر قوي سأل نفسه بصوتٍ مرتفع يكاد يقارب الصراخ: «ولكن ماذا عساني أن أفعل به؟».

لم يجد بُدًّا من الاعتراف لنفسه بأن قسوته ورغبته الحِسِّيَّة لا غاية لهما. كان سيلحق به الحرج والخزي لو انقضَّ على بازيني. ألم يكن يريد أن يُوسِعَه ضربًا؟

حاشا لله! كيف لفَعلةٍ كهاته أن تُشبِع رغبته الحِسِّيَّة؟ على نحو لا إرادي أحسَّ بالاشمئزاز من نفسه وهو يفكِر في هذه الرذائل الصبيانية؟ هل تفضح نفسكَ أمام شخص آخر على هذا النحو؟ أبدًا.

ومع تنامي شعور الاشمئزاز، تنامَتْ رغبته في الذهاب إلى بازيني. وبرغم إدراك تورلس سُخف هذه الرغبة وعبثيتها، فقد بدا الأمر في النهاية كما لو أن دافعًا ماديًّا يشُدُّه من فوق سريره مثل مَن يُسحَب بالحبل. بدأت هذه الصورة تتلاشى من ذهنه بشكل تدريجي، وراحت نفسه تحدِّثه حديثًا

مُلِحًّا حول ضرورة الخلود إلى النوم في هذه اللحظة، وبينما يحدث كل ذلك اعتدل في سريره بحركة آلية.

بوتيرة هادئة للغاية اتَّكأ بجسده على ذراع واحدة، ثم أزاح ركبة واحدة من تحت الأغطية، ثم... ثم فجأة وجد نفسه يندفع صوب بازيني على أطراف أصابعه وهو حافي القدمين، ليجلسَ على حافَة سريره.

كان بازيني غارقًا في النوم. بدا أنه يحلُم حُلمًا سعيدًا. كان تورلس عاجزًا عن السيطرة على أفعاله، فجلس لوهلة ساكن الطرْف، محدقًا في وجه الصبي النائم.

وهنا أومضت في عقله تلك الأفكار القصيرة المبتورة التي تنتاب المرء عندما يفقد توازنه، أو يسقط من علٍ، أو يُنزع شيء من بين يديه. بحركة متهوِّرة وضع كفَّه فوق كتف بازيني وهزَّه، محاولًا إيقاظه. تمطَّى النائم بكسل في فراشه عدة مرات قبل أن يفيق، مُصوِّبًا عينيه الناعستين إلى وجه تورلس.

ارتعد تورلس وأُسقِط في يده، وأحسَّ للمرة الأولى أنه عاد إلى صوابه، لكنه لم يكن يدري ماذا يفعل. انتابه شعور قوي بالخجل وخفق قلبُه بقوة. تزاحمت المبررات والأعذار على طرف لسانه، فكَّر أن يسأل بازيني لو كان معه عود ثقاب أو كم الساعة الآن!

لكن بازيني لبث يحدِّق في وجه تورلس ذاهلًا من دون أن يفهم سبب ما يجري. ومن دون أن ينبس بكلمة سحب ذراعه من فوق كتف بازيني، وتراجع إلى نهاية السرير، عائدًا إلى سريره في صمت، لكن يبدو أن بازيني قد استوعب الموقف، فاعتدل في مكانه.

وقف تورلس عن نهاية السرير مترددًا، بينما واصل بازيني التحديق فيه بنظرة فضولية فاحصة، وسرعان ما غادر سريره، وانزلق داخل معطفه وحذائه، وهرول إلى باب الغرفة.

فهِم تورلس على الفور أنَّها لم تكن المرة الأولى. في أثناء مروره، سحب مفاتيح الغرفة التي كان يُخفيها تحت وسادته. قصد بازيني العلِّيَّة مباشرة. في غضون ذلك، وبرغم أنهم أخفَوْا عنه أمر الغرفة السرية، بدا أن بازيني كان يحفظ الطريق إليها عن ظهر قلب. ثبَّت الصندوق جيدًا ليتسلَّق تورلس عليه، وأزاح المناظر الخشبية جانبًا بحركة حذرة رصينة، وكأنه خادم مُدرَّب.

فتح تورلس الباب ودلفا إلى الغرفة، ثم ذهب تورلس لإشعال المصباح، موليًا ظهره إلى بازيني. وعندما التفتَ، كان بازيني واقفًا لا يستر جسدَه شيء.

بحركة غريزية جفل تورلس، متراجعًا خطوة إلى الوراء. بعث في نفسه منظرُ جسم بازيني الأبيض كالثلج الواقف أمام خلفية حمراء كلون الدم، الفزعَ والذهول.

كان بازيني يتحلَّى بجسد متناسق التكوين، لا يشي بكثير من علامات الرجولة. كان جسده نحيفًا رشيقًا كجسد صَبِيَّة. أما بالنسبة إلى تورلس فقد رأى في هذا المنظر شيئًا أشبه بشعلة لهبٍ حارة بيضاء تُضرِم النار في عواطفه. لم يستطع التملُّص من طغيان تأثير هذا الجمال. وهل عَرفَ ما الجمال قبل هذه اللحظة؟ هل عرف ما الفن قبل هذه اللحظة؟

بالنسبة إلى فتى في مثل سنِّه، نشأ وترعرع في ربوع الأماكن الرحبة، لم تكن اللوحات الفنية التي ترسُم الأشكال العارية في نظره إلا أعمالًا مبهمة باعثة على الملل. لكن هذا المنظر كان له وقع رغبة حسِّيَّة؛ هجوم

رغبة مكتومة مباغتة. كان الجسد العاري يبُثُّ نفحة دافئة خلَّابة، شيء مثل إطراء رقيق مثير، لكن شيئًا يجبره على عقد الأيدي أمام صدره.

وبعد أن ضربه هول الصدمة الأولى انتابه خزي شديد، من نفسه أولًا ومن بازيني.

قال في نفسه: «إنه رجل! كيف تأتَّى إليَّ التفكير في ذلك؟».

أثارت هذه الفكرة انزعاجه، وفكَّر أنه لو كان بازيني فتاة لاختلف الأمر.

مملوءًا بخجل شديد صرخَ تورلس في وجه بازيني قائلًا: «ما الذي دار ببالك؟ استحِ وارتدِ ملابسك».

علَتْ وجه بازيني تعابير الفزع؛ بتردُّد بالغ ومن دون أن يحيد ببصره عن تورلس، التقط معطفه من فوق الأرض ليستر به جسده.

قال تورلس بلهجة آمرة: «اجلس هناك!» فأطاعه بازيني صاغرًا.

استند تورلس إلى الحائط، عاقدًا ذراعيه خلف ظهره: «والآن أخبرني لماذا خلعتَ ملابسك؟ ما الذي تريده مني؟».

- «ظننتُ أنَّ...»

قالها بازيني مترددًا.

- «ماذا ظننتَ؟»

- «أن الآخرين...»

- «أي آخرين؟»

- «باينيبيرج ورايتينج...»

- «ماذا عنهما؟ ماذا فعلا؟ يتحتَّم أن تخبرني بكل شيء. هل تفهم؟ برغم أني سمعت منهما بالطبع، لكني أريد أن أسمع منك أنت»

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

احمرَّ وجه تورلس خجلًا من هذه الكذبة المكشوفة، وعضَّ بازيني على شفتيه.

- «حسنًا ما الحكاية؟»

- «لا، لا تطلب مني أن أروي لك شيئًا، سأفعل كل ما تريده إلا إخبارك بكل شيء. ما أفظع طريقتك في التعذيب!»

كانت مشاعر البغضاء والذعر والتوسُّل اليائس تكاد تقفز من عيني بازيني، فأشفقَ تورلس على حاله بشكل فطري.

- «لا أريد تعذيبك. كل ما أريده هو حَملك على قول الحقيقة بنفسك، ربما يكون هذا لصالحك».

- «لكني لم أفعل ما يستحق الحكي!»

- «هكذا؟ ولِمَ إذن خلعتَ ملابسك أمامي؟»

- «لإنهما كانا يطلبان مني ذلك على الدوام لضربي».

- «ولمَ نفَّذتَ ما طلباه منك؟ كم أنت جبان ومثير للشفقة!»

- «لستُ جبانًا... لا تكرر هذه الكلمة».

- «ماذا؟ هل انعقد لسانكَ؟ حسنًا، لو كنتَ تخشى أن يضربوك، فما ضرُّكَ لو ضربتُكَ أنا أيضًا؟»

- «لا أخشى ضربهم على الإطلاق».

- «ومِمَ تخشى إذن؟»

عاد تورلس إلى نبرة الحديث الهادئة مجدّدًا، بعد أن أزعجته بشدَّة نبرة التهديدات القاسية التي أفلتت من لسانه. لكن الحقيقة أن كلماته الفظَّة انزلقت من بين شفتيه انزلاقًا عفويًّا بغير قصد، لا لشيء إلا لشعوره بأن بازيني يعامله باحترام ومهابةٍ أقلَّ مما يعامل بها غيره.

- «حسنًا، لو كنتَ تزعم أنك لا تخشاهما، أخبرني ما الحكاية إذن؟»
- «يقولان إني لو أطعتهما في كل ما يريدان، فسيصفحان عني بعد بعض الوقت».
- «سيصفحان عنكَ؟»
- «وسأنال عفوًا شاملًا».
- «كيف لهما أن يقطعا وعدًا كهذا من غيري؟ وماذا عن رأيي؟»
- «قالا إنهما سيهتمَّان بتسوية هذه المسألة... بحسب كلامهما».

كانت كلمة بازيني صفعة قوية على وجه تورلس، فسرعان ما قفزت إلى ذهنه كلمات باينيبيرج بأن رايتينج لو سنحت له الفرصة لتعامَلَ مع تورلس بذات الطريقة التي يعامل بها بازيني. ولكن... لو كانت ثمة مؤامرة تُحاك ضدَّه في الخفاء فكيف سيتصرَّف حيالها؟ لم يكن يضارع زميليه مكرًا ودهاءً في مثل هذه الأمور، ولكن ما أقصى ما يمكنهما فعله؟ تُرى أيعاملانه مثلما يعاملان بازيني؟ انتفضتْ كل ذرة في كيانه رفضًا لهذه الفكرة الخبيثة.

مرَّت بضع دقائق. كان تورلس يعلم أنه لا يملك الجرأة ولا يتحلَّى بطول البال الكافي للتعامل مع هذه المكائد، لا لأنه لا يكترث بها وحسب، بل لأنه كان يشعر بأن طبيعته غير منسجمة مع اللعبة برُمَّتها. كان يعلم أنه سيخسر على الدوام أكثر مما سيربح. برغم ذلك كان يحسَّ أنه لو تغيَّرت دفة الأمور، لواتته القوة والجرأة، فكل ما يحتاجه المرء أن يغتنم اللحظة الملائمة ليحصد الورقة الرابحة.

- «هل قالا المزيد؟ كيف يفكِّران في المسألة؟ أقصد بشأني؟»

- «المزيد؟ كلُّ ما قالاه إنهما سيهتمَّان بشأنك».

ومع ذلك كان الأمر محفوفًا بالخطر، خطر مخبوء في مكان ما، خطر يتربَّص به الدوائر، فكل خُطوة يخطوها ربما تكون فخًّا، وكل ليلة تمُرُّ عليه ربما تكون الأخيرة قبل نشوب المعركة.

ولم تكن هذه الفكرة تخلو من شعور مُقلق، كانت الحكاية أبعد من كونها مجرد النظر بنصف اهتمام أو محاولة لحل الأحاجي، كان الأمر حقيقة ملموسة مدبَّبة الحواف.

ثم استأنفا كلامهما.

- «وماذا يفعلان معكَ؟»

لزم بازيني الصمت.

- «لو كنتَ جادًّا بشأن إصلاح أحوالكَ، فعليك بإخباري بكل شيء».

- «كان يطلبان مني خلع ملابسي».

- «وبعدها؟»

مرَّت برهة قصيرة من الوقت حتى نطق بازيني: «أشياء مختلفة».

كان يتحدث بنبرة مخنَّثة مستفزة.

- «أنتَ إذن عشيقهما»

- «أوه! كلا، بل صديقهما فقط».

- «كيف واتتكَ الجرأة لتقول هذه الكلمة؟»

- «هذا ما يقولانه».

- «ماذا؟»

- «نعم، رايتينج يقول ذلك».
- «هكذا؟ رايتينج».
- «نعم، إنه ودود للغاية معي في الواقع، عادة ما يطلب مني أن أقرأ له شيئًا من كتب التاريخ، شيئًا عن التاريخ القديم، عن روما وأباطرتها، عن تشيزَري بورجيا* أو تيمورلنك، تلك الملاحم التي تغصُّ بقصص التعطُّش للدماء، وفي هذه الأثناء يعاملني بمودَّة بالغة، ثم يشرع في ضربي بعدها في العادة».
- «أوه! ولِمَ يضربكَ؟»
- «يقول لأنه لو لم يضربني فسيستقرُّ في تفكيره أنني رجل حر، عندها لن يكون قادرًا على معاملتي بمودَّة ورفق، لكن حينما يعاملني هكذا أصير جزءًا من ممتلكاته؛ ومن ثَمَّ لا ينتابه أي شعور بالحَرج».
- «ماذا عن باينيبيرج؟»
- «وما ظنُّكَ به؟ إنه فتى بشع، ألا تشمُّ رائحة أنفاسه الكريهة؟»
- «اخرس. ما أظنه أو لا أظنه ليس من شأنك، أخبرني فقط ما الذي يفعله باينيبيرج معكَ».
- «يفعل ما يفعله معي رايتينج بالضبط، ولكن من فضلك لا توبِّخني مرة ثانية».
- «أكمِل».
- «وجه الاختلاف أنه يتصرف بطرق أكثر التواءً. في البداية ألقى على مسامعي خُطبًا طويلة عن رُوحي التي لوَّثتُها، وقال إنني لم

---

* تشيزَري بورجا الملقب بالدوق فالنتينو، كاثوليكي إيطالي، اشتهر بأن مكيافيلي استوحى من شخصيته صورة الأمير (المترجم).

ألوِث سوى القشرة الخارجية وحسبُ. فمقارنةً بقدس أقداس الرُّوح فإن ما لوَّثتُه ليس إلا قشرة ظاهرية لا قيمة لها، ينبغي وأد الشهوة بداخلها، وعلى هذا النحو تحوَّل عدد من الخاطئين إلى قديسين؛ ومن ثَمَّ فالخطيئة، لو نظرنا إليها من منظور أرحب، ليست بهذا السوء، ما عليكَ إلا أنْ تمشي مع الخطيئة خُطوة بخطوة حتى نهاية الطريق وستمحو الخطيئة نفسُها بنفسها. كان يأمرني بالجلوس والتحديق إلى قطعة من البللور».

- «هل كان ينوِّمكَ تنويمًا مغناطيسيًّا؟»

- «لا، يقول إنه يريد كبح الأشياء الطافية على سطح رُوحي وإبطال مفعولها، عندها فقط سيستطيع التواصل مع روحي».

- «وكيف سيتواصل مع روحك؟»

- «يُجرِي تجرِبة لم يكتب لها النجاح قَطُّ. كان يجلس ويأمرني بالرقود فوق الأرض ليضع قدمه فوق جسدي. تكون قواي قد خارت وأُصِبت بالنعاس من طول التحديق في البللورة، ثم يأمرني بالنُّبَاح، ثم يشرح الأمر تفصيلًا كيف أفعلها: بنبرة هادئة، بأنين أشدَّ، مثل كلب ينبح في نومه».

- «وما جدوى كل ذلك؟»

- «علمي علمكَ. يجعلني أحيانًا أخنخن مقلِّدًا صوت الخنزير، مكرِّرًا على مسامعي أن في أعماقي شيئًا من الخنزرة، لكنه لا يقول ذلك من باب الشتم والإهانة، لكنه يكرِّرها بنبرة ودودة خافتة، لأجل أن يغرسها في أعماقي على حَدِّ قوله، حيث يزعم أني كنت خنزيرًا في أحد حيواتي السابقة، وعلى المرء استخراج هذه الرُّوح مني لدرء الضرر».

- «وهل تصدّق كل هذا؟»

- «كلا، حاشا لله. لا أكتمكَ لو قلتُ إنه هو شخصيًّا لا يصدِّقُها، الأمور تنتهي دومًا نهاية مختلفة عما أرادَه. كيف لي أن أصدّق مثل هذه الأمور؟ من ذا الذي يؤمن بالرُّوح في أيامنا هذه؟ ناهيك بفكرة تناسخ الأرواح؟ أعلم يقينًا أنني ارتكبتُ خطأً، لكن يحدوني أمل لإصلاح ما اقترفته. لا تعنيني هذه الخزعبلات، كما أنني لن أرهق ذهني بالتفكير في كيف اقترفت هذه الغلطة، عادة ما تقع هذه الغلطات كلمح البصر، دونما قصد مني، ثم تنتبه لاحقًا إلى أنك ارتكبتَ حماقة. ولكن لو كان البحث فيما وراء الأمور الخارقة يجلب له السعادة، فلا بأس عندي، ولكن في الوقت الراهن لا أملك إلا الإذعان لرغبته طالما أنَّه لن يخِزني...»

- «ماذا؟»

- «نعم، يخِزُني بإبرة. ليست بشعة كما تتصور، يخِزُني ليرى ردَّ فعلي أو ليلاحظ ما إذا كانت الوخزة ستترك أثرًا ملموسًا فوق جسدي. لكن الوخزة لا تخلو من ألم بالطبع. يزعم أن الأطباء لا يفقهون من هذا الأمر شيئًا، لم أكثرت كثيرًا بالطريقة التي يدَّعي أنه سيثبت بها الأمر، كل ما أذكره هو كلامه عن طائفة «النُّسَّاك»*، الذين لا يشعرون بأيّ ألم جسدي وهم يتأملون أرواحهم».

---

* وردت الكلمة في الأصل الألماني *Fakiren* = فقراء/الدراويش، ولها دلالات متنوعة بحسب الثقافة، ففي شبه القارة الهندية هم ما يمارسون رياضات شاقة مثل النوم على المسامير عراة وملامسة النار بصدورهم، وفي التصوف الإسلامي هو الزاهد المتقشِّف (الدرويش) الذي يأخذ نفسه بالمشقَّة ويعوِّدها على شظف العيش لبلوغ الصفاء الرُّوحي (المترجم).

- «نعم، أنا على دراية بتلك الأفكار. لكن لا بد أنك قلت إنها مجرد جسر لبلوغ غاية أخرى».
- «بالقطع. طالما قلت لنفسي إن هذا تحايل لبلوغ هدفه الرئيس. بعدها كان على الدوام يلوذ بالصمت لمدة ربع ساعة، ولا أعرف ما الذي كان يدور بذهنه ساعتها. لكنه بعدها ما يلبث أن ينفجر في وجهي صارخًا كالممسوس، وبغضبٍ يفوق غضبَ رايتينج ويطلب مني أشياء».
- «وهل تفعل كل تُؤمَر به؟»
- «وهل أمامي بديل؟ أريد استعادة احترامي لذاتي واسترداد سلامي».
- «ولكن إلى حين استعادة احترامكَ وسلامك الداخلي، هل ستقبل كل ما يجري لك؟»
- «ما باليد حيلة».
- «والآن أعرني سمعك، وأجِب عن أسئلتي: ما الذي دفعك إلى السرقة؟»
- «ما الذي دفعني؟ اسمعني: كنت في حاجة ماسَّة إلى المال. تراكمت عليَّ الديون لصالح مطعم فرنسي في المدينة، ورفضوا إمهالي مزيدًا من الوقت. قلت في نفسي لا بدَّ أني سأتلقَّى مالًا بالبريد ذات يوم، رفض الجميع إقراضي؛ لم يكن بعضهم يملك مالًا، بينما كان البعض الآخر مقتصدًا في نفقاته، يشمت لرؤية المبذِّرين من أمثالي في نهاية الشهر بلا نقود، صدِّقني لم أرغب في خداع أحد، كل ما أردتُه اقتراض المال سرًا...»

قاطعه تورلس بعد نفاد صبره لسماع هذه الحكاية التي من الواضح أن بازيني ارتاح لمَّا رواها: «ليس هذا الغرض من سؤالي، إنما أسألكَ: كيف وبأيِّ دافع شعوري فعلتَ فعلتك؟ كيف كان شعورك حيال السرقة؟ ما الذي جال بخاطرك حينها؟»

- «لم أشعر بشيء على الإطلاق، لم يستغرق الأمر سوى لحظة خاطفة، لم أشعر بأي شيء ولم أفكِر في شيء، كان الأمر وليد اللحظة».
- «وماذا عن المرة الأولى التي سرقتَ فيها مالًا من رايتينج؟ عندما أجبركَ على فعل هذه الأفعال المشينة؟ هل تفهم قصدي؟»
- «كان شعورًا مُريعًا لأنني أُمرتُ بفعل ذلك. ولكن فكِّرْ أيضًا أن كثيرين يسرقون طواعية بدافع المتعة وحدها، ولا يعلم الآخرون بشأنهم شيئًا، لم أشعر بتأنيب ضمير».
- «لكنكَ فعلت ذلك رغمًا عن أنفك ورضوخًا للأوامر، فأذللتَ كرامتكَ كمن يزحف على بطنه فوق التراب لأنه أمِر بذلك».
- «أعترف بذلك، لكني كنت مُضطرًّا».
- «لا، لم تكن مُضطرًّا».
- «لو لم أفعل لانهالا عليَّ ضربًا وأذاعا سري، حينئذٍ كانت سيرتي ستتلطَّخ بالوحل في كل مكان».
- «لا بأس، لندع هذه المسألة جانبًا. أريدك الآن أن تخبرني بشيء آخر، لقد أنفقتَ مبلغًا طائلًا من المال لمَّا كنت عند بوزينا. قصدتَ شقتها وأخذتَ تَفْشُر* أمامها، وتنفُخ صدرك وتتباهى بفحولتك.

---

* فشَر الشَّخصُ: كذب وادَّعى باطلًا، معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، 2008 مادة ف ش ر (المترجم).

أكنت تريد إثبات رجولتك؟ لا بالكلمات فقط، بل بالـ... بروحك كلها؟ ثم يأتي إليك شخص ويطلب منكَ مسألة مهينة للكرامة، فتجْبُن عن رفض مطلبه؟ ألم تشعر بهزَّة تمزّق كيانك؟ ألم يستولِ عليك فزع مصدره غامض وكأن شيئًا مروِّعًا يعتمل في أعماقكَ؟»

- «يا إلهي! أنا لا أفهم كلامك ولا ما الذي تتحدَّث عنه، ولا أعرف ماذا تريد بالضبط، لا أستطيع أن أقول شيئًا، أي شيء».

- «حسنًا، انتبه جيدًا: سآمرك الآن بخلع ملابسك مجددًا.. والآن اضطجع فوق الأرض عند قدمي. هذا أمر. هل تسمعني؟ ولو لم تنفِّذ حرفيًّا ما أقوله فلتصبر على ما ينتظرك عندما يعود رايتينج. حسنًا، ها ها أنت ذات مستلقٍ مجردًا من ملابسك فوق الأرض، يمكنني البصق عليك متى أردتُ. اضغَطْ وجهك بقوة على الأرض؛ ألا يبدو تراب الأرض رائعًا؟ مثلُه كمثل المناظر الطبيعية مع السحب والصخور؟ ألا يبدو هائل الحجم كالمنازل؟ في مقدوري غرس الإبر في جسدك أيضًا. هناك بعض منها في الخزانة إلى جانب المصباح. هل تريد الشعور بوخزها في جسدك؟ لكنني لا أريد فعل ذلك... في مقدوري أيضًا أن أجعلك تعوي كالكلاب كما يفعل باينيبيرج، أن أجعلك تلعق الروث مثل خنزير، أن أجعلك تؤدي بعض الأعمال الأخرى -أنت تفهم ما أتحدث عنه- في مقدوري أن أجعلك تزفر زفرة حارة قائلًا: أوه، أين شجاعتي...»

في غمرة تدفُّق كلامه أمسك تورلس بغتة عن هذا التجديف وقال: «لكني لا أريد ذلك، لا أريد ذلك، هل تفهمني؟»

عندها أجهش بازيني بالبكاء قائلًا: «أنتَ تعذِّبني».

- «نعم، أعذِّبك. لكن هذا ليس مرادي، كل هَمِّي أن أعرف شيئًا واحدًا: عندما أغرس كل هذا الألم بداخلك كالسكاكين ما شعورك؟ ما الذي يعتمل في أعماقك؟ هل يتحطَّم شيء بداخلك؟ أخبرني! هل الأمر مثل كأس زجاجي يتهشَّم إلى ألف قطعة برغم عدم وجود علامة تصدُّع فيه؟ ألا تتبدَّد الصورة التي كوَّنتَها عن نفسك مثل نفخة في هواء، لتقفز مكانها صورة شخص آخر من الظلام، وكأنها صورة آتية من فانوس سحري؟ ألا تفهم أية كلمة من كلامي؟ لا أستطيع توضيح كلامي أكثر من ذلك! الأمر متروك لك لتقول لي...»

انخرط بازيني في وصلة بكاء لا تنقطع وكتفاه ترتَعِدان، مواصلًا ترديد الجملة نفسها مرارًا وتكرارًا: «لا أعرف ما الذي تريده، ليس عندي ما أقوله أكثر من ذلك، لقد حدث كل شيء في لمح البصر، ولم أكن أستطيع دفعه، أراهن أنكَ كنت ستتصرَّفَ بالطريقة نفسها التي تصرفتُ بها بالضبط».

لاذ تورلس بالصمت، كان مرهقًا فلبث واقفًا بلا حراك، متكئًا على الحائط، شاخصًا ببصره إلى الأمام.

قال بازيني: «لو كنتَ مكاني لفعلتَ الشيء نفسه».

وبما إن الأمر هكذا فمعنى ذلك أنَّ ما جرى لم يكن إلا ضرورة فرضتها الأحداث، بدون جعجعة ولا ضجيج. بازدراء واضح انتفض ضميرُ تورلس رافضًا هذه الفكرة رفضًا صريحًا، وشعر أن حتى هذا الرفض ليس كافيًا لإسكات صوت ضميره،

قال تورلس في نفسه: «لكني سأتحلَّى بشخصية أقوى، ولن أرضخ لمثل هذه الأفعال المشينة، ولكن هل هذا هو مربط الفرس؟ هل المهم أن أسلك سلوكًا مغايرًا لسلوك بازيني، انطلاقًا من دوافع أخلاقية ونوايا حسنة أو أية أسباب أخرى، وهي ما أراها في اللحظة الراهنة أمورًا ثانوية؟ لا، ليس مهمًّا أن أعرف كيف كنت سأتصرف، بل المهم أن أعرف لو أنني تصرفتُ يومًا مثل بازيني فهل كنت سأشعر مثله وكأن شيئًا لم يكُن؟ هذا هو بيت القصيد عندي: أن تكون معرفتي بنفسي بسيطة خالية من الشكوك كما هي عند...»

إلى جانب شعوره بازدراء بازيني أضافتْ هذه الفكرة –التي راودته على هيئة عبارات مفكَّكة متشابكة تروح وتجيء– شعورًا آخر بالألم زعزع من استقراره الداخلي، وكان مصدر الفكرة إحساس غامض داهمه ولم يفلح في طرده عن باله قط؛ تحديدًا كلام بازيني عن أن باينيبيرج ورايتينج قد يكونا مصدر خطر، وهو ما قذف الرعب في قلبه.

جَزِع تورلس لهذه الفكرة جزعًا شديدًا كمن مسَّته صاعقة، فهبَّ في لمح البصر باحثًا عما يقي به نفسه ويحتمي به. آه من هذه النبضات المتلاحقة السريعة. حاول أن يُطلق لها العِنان مجددًا داخل نفسه، ولكن بلا جدوى. كان يعرف أنَّ هذه المشاعر المضطربة سلبت من الخطر إمكانية أن يكون خطرًا غريبًا أو غامضًا. كان شعور الخطر نفسه الذي انتابه في الغرفة نفسها قبل بضعة أسابيع.

في تلك الليلة استولى عليه الذعر من هذه الغرفة التي بدت مثل قطعة منسيَّة عائدة إلى القرون الوسطى، خالية من دفء فصول الدراسة وإشراقتها، كما انتابه الذعر من رايتينج وباينيبيرج، اللذين ما عادا مثل بقية الناس، بل بدوَا بغتة مثل مخلوقين كئيبين متعطشَيْن للدماء، يعيشان

حياة مختلفة تمام الاختلاف عما يعرف. في هذه اللحظة طرأ على تورلس لون من ألوان التحوُّل، شيء مثل طفرة في وعيه، وكأنه لبث مئة عام نائمًا، ثم استيقظَ فجأة ليرى الدنيا بعينين جديدتين. ومع ذلك لم يراوح شعور الخطر مكانه.

هكذا بقي تورلس يعيد على نفسه نفسه مرارًا وتكرارًا، بينما يحاول مقارنة ذكرى هذه الأحاسيس. في تلك الأثناء نهض بازيني من الأرض، وبصره مصوَّب على عين تورلس الجامدة الشاخصة في الفراغ، فراح يلملم ملابسه بهدوء ليتسلَّلَ بعدها مغادرًا الغرفة.

لم يغب ذلك عن تورلس الذي كان يرصد حركة زميله –كمن يراقبه من وراء غيوم– لكنه تركه ينصرف لحال سبيله من دون أن ينطق بكلمة.

كان ذهنه منصرفًا إلى العثور على النقطة التي حدث عندها التحوُّل المفاجيء لمنظوره الداخلي. لكنه كلما دنا من نقطة التحول هاتِه نَأَتْ بجانبها مبتعدة عنه، وكأنه كان يحاول مقارنة شيء بعيد بشيء قريب.

لم تفلح ذاكرته في القبض على نوعَي الشعور كليهما في لحظة واحدة. وبين هذا وذاك يعتريه شعور آخر، شيء أشبه بنبضةٍ خفيفة لا تختلف عن الأحاسيس العضلية الخافتة التي نشعرُ بها عند انتقال العين من مشهد إلى آخر. استلزم منه هذا الانتباه لنفسه في كل مرة، لكن فعل المقارنة بين الشعورين صارَ موضوع المقارنة نفسه، وكان ثمرة ذلك كله هزَّة بسيطة تأخذه ثم يسكن بعدها كل شيء.

زجَّت به هذه الحركة الآلية إلى شيء مثل حُلم يقظة بارد برودة الثلج، جعلته متسمِّرًا في مكانه. لبث على هذه الحال فترة طويلة. ثم أيقظته فكرة نبَّهتْ حواسَه مثل يد دافئة لطيفة تربِّت على كتفه؛ فكرة بدت من الوضوح

أنها دفعته ليتساءل مذهولًا: لماذا لَم تخطر بباله هذه الفكرة منذ فترة طويلة. كانت الفكرة هي تدوين التجرِبة التي مرَّت به للتو.

فكل ما نراه من بعيد مترامي الأطراف، غامض الملامح، يغدو بسيطًا وفي أبعاده الطبيعية المألوفة لو تأمَّلناه عن قرب، وكأن حدودًا مرئية تطوِّق البشر، وكأن كل ما نراه خارج هذه الحدود هو بحر ضبابي تلوح منه أشكال عمالقة ما تنفكُّ تتبدَّل.

وعلى خلاف ذلك، فكل ما يكسر هذه الحدود، ويتحول إلى فعل يلامس حياتنا، يغدو شيئًا واضح الملامح كملامح البشر.

بين الحياة التي يعيشها المرء والحياة التي يشعرُ بها ويدركها ويراها، تقف حدود لا مرئية أشبه بباب ضيقٍ تنسلُّ عبره صور الماضي لتنفُذ إلى أعماق رُوحه.

وبرغم انسجام هذه الفكرة مع تجرِبته الذاتية، واصل تورلس التحديق في الأرض وهو يقول في نفسه: «فكرة غريبة...»

هكذا أحسَّ الفتى تورلس.

***

في النهاية خلد إلى فراشه. صرف ذهنه عن التفكير في أي شيء، كان التفكير مسألة مرهِقة لا طائل من ورائها. صحيح أن ما اكتشفه حول أسرار زملائه قد تَمثَّل في وعيه، لكنه لم يورث في نفسه اهتمامًا ولا حيوية وكأنه خبر عابر طالَعَه في صحيفة أجنبية.

أما بازيني فلم يرجُ من ورائه خيرًا. لا شكَّ أنها مشكلته! لكنها برغم ذلك مشكلة موضع تساؤل ونَظَر، أعياه التعب وبات مهدود القوى، فقال في نفسه: ربما كانت الحكاية برُمَّتها محض وهم، لا أكثر.

لم يبقَ في ذهنه إلا صورة جسد بازيني العاري، ناصع البياض، وهو يضوع برائحة كرائحة زهرة اللَّيلَكِ الفائحة في غمرة الأحاسيس والانطباعات التي تسبق الخلود إلى النوم. بل حتى سَوْرة غضبه الأخلاقي خمدتْ.

ثم غرق أخيرًا في النوم.

لم تراوده أحلام مزعجة. لكن دفئًا لذيذًا لا نهائيًّا سرى من تحته مثل بساطٍ ناعم. لكنه سرعان ما استيقظ مذعورًا وكاد يطلق صرخة مدوِّية. كان بازيني جالسًا إلى جواره في السرير، ثم خلع قميصه بعدها على عجل، وانسلَّ تحت البطانية، مُلصِقًا جسده بجسد تورلس، الذي بمجرد أن تنبَّه إلى تلك الفعلة حتى انتفض دافعًا بازيني عنه قائلًا:

«ما الذي أصاب عقلك؟»

لكن بازيني بدأ في التوسُّل:

«من فضلك، لا تعاملني هكذا، لستَ مثل الآخرين، إنهم يعاملونني بازدراء ليس مثلما تفعل أنتَ، إنهم يتظاهرون بذلك حتى يبدون مختلفين عن الآخرين. لكن أنتَ! أنت بالذات شيء آخر، أنت أصغر مني سنًّا، لكنك أقوى شخصية، كلانا أصغر من بقية الزملاء، لكنك لستَ في قسوتهم ولا كبريائهم الفظّ، أنت ودود للغاية.. أنا أحبُّك».

«ماذا؟ ماذا تقصد؟ ماذا تريد؟ إليكَ عني.. إليكَ عني!»

دفع تورلس كتف بازيني لجعله يبتعد عنه، لكن القرب الحار من الجلد الغريب الناعم ظلَّ يلاحقه ويطوقه ويخنقه، بينما بقي بازيني يهمس: «نعم... نعم... من فضلك، سيكون من دواعي سروري أن أخدمك».

حار تورلس جوابًا. وبينما كان بازيني يتكلَّم، وفي غضون الثواني المشحونة بالشكِّ والتفكير لاتخاذ القرار، أحسَّ بأن محيط الأحلام الأخضر قد غمَرَ حواسَّه من جديد. ولم يرَ من أمواج المحيط إلا كلمات بازيني المتكررة بوتيرة محمومة متوهجَّة مثل سمكة فضية صغيرة تسطع وسط الظلام.

بذراعيه كلتيهما دفع تورلس بازيني بعيدًا عنه، وبدا أن الدفء الشديد الرطب بدأ يثقلُ حركة ذراعيه، فتراخت عضلاته ونسيهما تمامًا، لكنه كان سرعان ما يفيق ما إن تمسَّه كلمة جديدة مؤثرة، لأنه كان يشعر حينئذٍ، كما لو كان داخل حُلم مفزع غامض، بذراعيه تقتربان من بازيني.

حاول الاستيقاظ من هذا الكابوس ليرفع صوته بالصراخ:

«انتبه، بازيني يتلاعب بك، ويحاول جرَّكَ إلى الحضيض لتكون مثله فلا تقدر على احتقاره بعدها».

اختنقت الصرخة في حلقه. طوَّق الصمتُ أرجاء مبنى المدرسة الواسعة، وسكنت أمواج بحر الصمت السوداء داخل ممراته الفسيحة كما لو كانت تغطُّ في نوم عميق.

حاول تورلس استعادة هدوئه ورباطة جأشه، لكن أمواج الصمت وقفت أمام كل الأبواب مثل حرس يتدثَّرون بالسواد. غادرته الرغبة في البحث عن كلمات بعد أن وصلت رغبته الحسِّية - التي استفادت من كل لحظات اليأس لتشقّ طريقها إلى نفسه- إلى ذروتها.

كانت الرغبة راقدة إلى جواره في الفراش، تغطي رأسها بمعطف أسود ناعم. وراحت تهمس في أذنيه بكلمات عذبة عن الاستسلام إلى الرغبة، زاجرةً كل القضايا والمسائل الجادة وكأنها عبث لا طائل من ورائه.

همست الرغبة: «كل شيء مباح في العزلة».

عندما كان الفتى تورلس على وشك الانجراف مع الفكرة السابقة، ثاب إلى رشده بضع ثوان، متشبثًا بفكرة واحدة:

«لا، لن أفعل ذلك البتة، لستُ أنا هذا الرجل، صباح غد سأعود إلى ذاتي مرة أخرى.. صباح غـد».

(15)

مع حلول يوم الثلاثاء رجعت الدفعة الأولى من التلاميذ، بينما وصلت الدفعة الثانية في قطارات المساء، وكانت المدرسة تضجّ بالحركة كخلية نحل.

استقبل تورلس زملاءه بوجه عابس متبرّم. لم ينسَ شيئًا مما جرى. كان التلاميذ قد حملوا معهم إلى المدرسة نفحة من طزاجة هواء الخارج النقي، وهو ما أشعَرَه بالخجل لما تذكّر نشأته على حبِّ هواء الغرف الضيقة سيئة التهوية.

واقع الأمر أن تورلس صار كثير الخجل من نفسه هذه الأيام، لكن خجله لم يكن بسبب اندفاعه وسقوطه في سكّة الغواية -لأن هذا ليس بالأمر نادر الحدوث في المدارس الداخلية- بقدر ما كان خجلًا من شعور المودة الذي يضمره إزاء بازيني، برغم اقتناعه، من ناحية ثانية، أنه شخص حقير منحطّ. جمعتهما لقاءات سرّية مرات عدة، اصطحبَه إلى أماكن الاختباء التي عرفها على يد باينيبيرج، وبما إن تورلس لم يكن ماهرًا بهذه الدروب، أظهر بازيني مهارةً في شقِّ طريقه إليها، وصار هو دليلُه إليها.

جافاه النوم ليلًا؛ إذ اضطر إلى مراقبة رايتينج وباينيبيرج بدافع من الغيرة. لكن ما حدث أن كليهما بدأ يتحاشى رؤية بازيني، وأغلب الظن أن الأخير لم يعد يثير اهتمامهما.

في كل الأحوال يبدو أن تغيرًا مهمًّا قد طرأ على أحوالهما. بدا باينيبيرج متحفظًا، متجهِّم الملامح. وحين يتكلَّم تخرج منه تلميحات

مكتومة عن شيء وشيك الحدوث، أما رايتينج فقد صرف اهتمامه إلى أشياء أخرى؛ بدهائه المعهود بدأ يغزل شبكة المكائد والمؤامرات حول زملائه ابتغاء تحقيق بعض المكاسب الحقيرة، وترويع الآخرين بإفشاء أسرارهم الصغيرة.

وعند اجتماع الثلاثة كان رايتينج وباينيبيرج يصرَّان على ضرورة أن يصعد بازيني إلى العليَّة أو يهبط إلى الحجرة الصغيرة. وفي كل مرة يختلق تورلس الذرائع لتأجيل الموضوع، لكن ضميره كان يؤنِّبه على تواطئه السري معهما. قبل أسابيع قليلة استغرب تورلس هذه الحالة ولم يفهمها، لأنه تربَّى تربية مستقيمة، وكان صبيًّا سليم الفطرة، طبيعيًّا، سويًّا.

ومن هنا ينبغي ألا يذهب بنا الظن إلى أن بازيني قد أثار رغبة حسية حقيقية في نفس تورلس، حتى لو كانت رغبة مضطربة مؤقتة. بل كان شعوره أشبه بعاطفة من نوع ما؛ عاطفة لا يمكن أن يُطلق عليها اسم إعجاب، فكلمة إعجاب ستكون مجرد وصف عارض أبعد ما يكون عن الدقة، وإنما كانت مجرد بديل مؤقت ينوب عن رغبته الحقيقية.

وبرغم ما انعقد بينهما من أواصر صداقة لم يشفِ ذلك غليله، فتنامت رغبته في توطيد علاقته بِبازيني، لكن عقل تورلس افتقر في الوقت ذاته إلى الهدف من وراء هذه الصداقة.

لم تزد عن كونها مجرد رغبةٍ خاطفة للأنفاس، مثيرة للذهول، أسفرت عن حالة من النقاء العفوي التي صبغت هذه اللحظة بصبغة الانجذاب. كان أصدق تعبير لوصف طبيعة علاقة تورلس بِبازيني هو أنها كانت شعورًا جديدًا عليه، شعورًا مشوبًا بالقلق، خاليًا من عناصر الرغبة الحسِّية المعهودة.

كانت هذه الرغبة الحسّية قد خفَّت في نفس تورلس قبل أمد طويل، حينما تردَّد إلى شقة بوزينا مثلًا، بل ربما قبلها بكثير؛ رغبة المراهقين السرية الغامضة الكئيبة التي لا تشتهي أحدًا بعينه؛ رغبة أشبه بالتربة الرطبة السوداء في المراعي وقت الربيع، والمياه الجوفية المحبوسة التي تتحيَّن الفرصة المناسبة لتفيض.

كانت التجربة التي عايشها تورلس هي فرصته السانحة، وهي تجربة لم تكن إلا مزيجًا مضطربًا من المفاجأة وسوء فهم الأمور وسوء تقدير الأحداث، لكنها كشفت النقاب عن الحصون الخفيَّة والدروب السرية التي تتوارى فيها مشاعره؛ تلك المشاعر الطافحة بالكتمان والكبت والاهتياج والبلبلة والوحدة.

ثم انصبَّت هذه النوزاع المبهمة في شخص بازيني، حينذاك اصطدمتْ تلك النوزاع المكبوتة بشيء حقيقي، نابض بالحياة، فوَّاح الرائحة، شيء من لحم ودم أسبغ على أحلامه الغامضة الشاردة رونقًا فريدًا، عِوضًا عن القبح المقزز والوَحْشة التي وجدها عند فتاة الليل بوزينا.

بضربة واحدة انفتحت أمامه بوابة الحياة. وعلى ضوء الشفق انصهر كل شيء؛ امتزجت رغباته بحقائق الواقع، وامتزجت خيالاته الجامحة بخواطره المغموسة بسخونة التجربة، وامتزجت المشاعر الخارجية باللهيب الباطني المنبعث من أعماقه، فاختلط كل شيء حتى انطمست معالمه.

لم يكن تورلس قادرًا على تمييز هذه التفاصيل بعد أن انصهرت داخل شعور واحد غامض غير قابل للانفصام، حارَ في تسميته تسمية دقيقة، فلم يقدر إلا أن يسميه إعجابًا.

***

لكنه سرعان ما تعلَّم أن يكون أشدَّ فطنة.

كان القلق ينهش روحه كلما مرَّ عليه يوم جديد، وما إن تلتقط كفَّاه شيئًا حتى يتركه على الفور. وفي كل مرة يتجاذب فيها أطراف الحديث مع زملاء الفصل ما يلبث أن يغرق في الصمت دون سبب وجيه، أو يغيّر دفة الحديث إلى موضوع آخر.

تكرَّر أن داهمته نوبات من الخزي وهو يتكلم، فيتضرج وجهه بحمرة الخجل ويتلعثم، ويضطر إلى مفارقة أصحابه، نائيًا بنفسه في زاوية بعيدة.

تحاشى ملاقاة بازيني أوقات النهار لعجزه عن منع نفسه من النظر إليه، إذ كان يُصاب بعدها بخيبة أمل بسبب ما كانت تثيره إيماءات بازيني في نفسه من شعور قوي بالنفور والاشمئزاز، وأفسحت توهُّمات عقله الطريقَ لتسلُّل ضوء بارد باهت، فذبلتْ روحه ولم يبقَ له سوى ذكرى رغبته القديمة التي رآها رغبة غامضة مثيرة للتقزز. وكيما ينفض عن نفسه شعور الخزي المؤرِّق راح يضرب بقدميه بشدَّة فوق الأرض، ويتشنَّج بجسده.

تساءل عما سيقوله بقية التلاميذ ووالداه وأساتذته لو علموا سِرَّه، وكانت هذه اللحظة الجارحة في العادة هي لحظة انتهاء عذاباته. عندها يحلُّ عليه تعب مقرون برعدة باردة، ويقشعرُّ جلده الساخن قشعريرة رضا. وحين يمرُّ بطريقه الآخرون يشيّعهم بنظرة صامتة، تضمر لهم ازدراءً عظيمًا. راودته الظنون بأن كل رفاقه لا بد وأنهم اقترفوا يومًا جرائم بشعة، وأن أحدًا منهم لم تعتره ذرة خجل مما فعل، ولم يذق الآلام التي ذاقها، ولا حمل إكليل شوك تأنيب الضمير الذي حمله تورلس فوق رأسه.

انتابه شعورُ مَن استردَّ وعيه بعد سكرات الموت، شعور مَن مسَّته يد العناية الإلهية الحانية، شعور مَن لقَّنه المرضُ الطويل حكمة بليغة لا تُنسى.

حينئذٍ انشرح صدره وعاودته اللحظات التي كان يتوق إليها. فبدأ يرمق بازيني بنظرات القرف واللا مبالاة وعدم الاكتراث مجددًا، مقابلًا الجوانب الدنيئة المنفِّرة من شخصيته بابتسامة. كان يعرف أنه سيحطُّ من كرامته بهذا السلوك، لكنه أضفى عليها معنى جديدًا. كلما اشتدَّت قذارة وخسَّة أفعال بازيني، ازداد شعور الألم في نفسه.

اعتزل تورلس في ركن بعيد يتيح له مراقبة نفسه من دون أن يراه أحد. عندما يغمض عينيه يمتلئ بنوع من الرغبة، وعندما يفتحهما لا يفلح في العثور على أي شيء يمكنه مضاهاته بهذا الشعور.

ثم راودته صورة بازيني بغتة، فاستحوذت على ذهنه وشوَّشت عليه أفكاره، وانقطعت كل علاقة تربطه بذاته، وصار بازيني هو محور اهتمامه. كانت ثمة مشاعر تلفُّ وتدور حول رأسه مثل غانيات يرتدين فساتين عالية العنق، ووجوههن مخبأة وراء الأقنعة.

لم يقدر على إطلاق اسم محدد على هذه المشاعر ولا استِكْنَاه ما الذي تخفيه ورائها، كل ما يعْرفه أنها انطوت على لون من ألوان الإغراء المبهج. وما عاد قادرًا على التعرف على نفسه، ومن هنا مالت به الرغبة لتصير شكلًا من أشكال الفجور الجامح الحقير، التي يراها المرء في حفلات المجون، حيث تنطفئ الأضواء، ولا يعرف المرء مَن شدَّ مَن إلى الأرض وأغرقه بالقبلات.

***

بعد تجاوُزِ طور الصبا والشباب الحافل بالصخب، لا بد أن تورلس سيصير شابًّا يتحلَّى بروح حساسة مرهفة. فهو من طينة الشباب الذين يتحلَّون بجوهر فكري وحساسية جمالية أصيلة، مِمَّن يجدون راحتهم في الامتثال لسُنن الطبيعة ومراعاة الأخلاقيات العامة بدرجة أو بأخرى،

حيث يعفيهم هذا السلوك من وضاعة التفكير في الأمور الفظَّة البذيئة البعيدة عن الطبيعة الحساسة لأرواحهم.

المفارقة أن هؤلاء يُظهرون لا مبالاة مفعمة بالملل ومسحة من السخرية عندما يطلب منهم أحد الإدلاء بدلوهم في مثل هذه الأمور. وسبب ذلك أن بؤرة اهتمامهم تكمن في صقل الروح أو شحذ الفكر، أو سمِّها ما شئتَ. شغل هؤلاء الشاغل يكمُن في ذلك العنصر الثاوي في أرواحنا ونراه مخفيًّا في سطر بين دفتي كتاب، أو نراه في تعبير مرسوم على شفاه داخل صورة، تكمن في الشعور الذي يستيقظ في نفوسنا أحيانًا حينما يغادرنا لحن عذب مهجور طالما ألحَّ على آذاننا، صارخًا من مكان بعيد، وهو يجرُّنا في ذيله بخيط أحمر رفيع نازف من دمائنا.

وهو الشعور نفسه الذي يتلاشى متبددًا في الهواء حالما ننشغل بكتابة محرَّرات رسمية، أو تصنيع آلة، أو الذهاب إلى السيرك للترفيه، أو الانخراط في أي من الأنشطة المماثلة الأخرى. هؤلاء الأشخاص يُبدون عدم الاكتراث فقط إزاء الأشياء التي تستفزُّ حاسَّة الأخلاق عندهم.

وهكذا في سنوات حياته اللاحقة لم تعترِ تورلس ذرة ندم على التجربة التي مرَّ بها آنذاك.

انصبَّت احتياجاته حصرًا على الأمور الجمالية، فلو حدث وأخبره شخص بحكاية مشابهة حول انحراف أخلاقي لأحد الأشخاص، فلن تهتزَّ شعرة من رأسه غضبًا لما سمع.

صحيح أنه كان سيحتقر هذا الشخص، ولكن ليس لأن مرتكب الفجور متحرِّر أخلاقيًّا، بل لأنه فشل في إصلاح نفسه وتهذيبها، ولا لانغماسه في الفسوق الأخلاقي، بل لتدنِّي حالته الروحية التي سوَّلت له فعل ذلك، كان سيحتقره لِحماقته ولافتقاره إلى رجاحة العقل الذي يعيد

إليه التوازن الروحي، وكان سيزدريه لما تطفح به عيناه من نظرة واجمة مُسْتَلَبة تنضح بالانكسار.

كان سيحتقره بالقدر نفسه، ولا فرق سواء انغمس في ارتكاب الفواحش أو في تدخين السجائر بشراهة أو في معاقرة الخمور بهوس.

وشأنه شأن جميع من يحشدون تركيزهم على شحذ قواهم الروحانية، لم تمثَّل له المشاعر الحسّية المضطربة المسرفة في عاطفيتها إلا شيئًا هامشيًّا. كان يميل إلى الإيمان بأنَّ القدرة على الاستمتاع بمباهج الحياة، والتحلِّي بالمواهب الفنية والانغماس في حياة روحية ثرية، ليست إلا زخارف يمكنها أن تؤذي المرء بسهولة.

رأى تورلس حتمية احتفاظ الرجل المتمتع بحياة داخلية ثرية حيَّة، بلحظات حميمية خاصة لا يعرف عنها أحد سواه، وبذكريات يصونها في درج سري بعيدٍ عن متناول الجميع. لكن مربط الفرس أن يتعلَّم المرء كيف يستفيد من تجاربه لاحقًا على الوجه الأمثل.

بعدما تقدمت به السنَّ حكى تورلس في يوم من الأيام لأحد أصدقائه عن تجربة صباه، فسأله صديقُه:

«ألم تكن هذه الذكرى تثير في نفسك شيئًا من الخزي؟»

فما كان جواب تورلس إلا أن تبسَّم قائلًا:

«لا أنكر أنها كانت تجربة مشينة. ولكن ما الضير؟ صحيح أنها انقضت وذهبت لحال سبيلها إلى غير رجعة. لكن شيئًا منها سيلازمني ما دمتُ على قيد الحياة. وهذا الشيء مثله كمثل جرعة سم ضئيلة ضرورية لتخليص الروح من الركون إلى الأمان والراحة، ولشحذها وجعلها أشدَّ رهافة وأكثر تفهمًا للأمور. ولكن: لو أردتَ إحصاء عدد ساعات المَهانة

التي تذوقها أرواحنا بسبب الوقوع في هوى أو شغف، فقل لي: ماذا عن أوقات الذل التي نمرُّ بها لحظة وقوعنا في الغرام؟

ماذا عن أوقات النشوة التي ينحني فيها العشاق فوق بئر عميقة أو يتناوبون الاستماع إلى دقّات قلب بعضهم البعض لمعرفة ما إذا كان بإمكانهم سماع صوت مخالب القطط المحمومة وهي تخدش جدران زنزانتهم؟ وهم يفعلون ذلك لا لشيء إلا ليشعروا برعشة الغرام، ليذوقوا شعور الخوف من الوحدة وهم ينظرون إلى أعماق البئر المظلمة الكئيبة، فيفرُّون إلى بعضهم البعض هروبًا من الوحدة.

بحسبكَ أن تلقي نظرة على أعين الأزواج الشباب وتخيَّل ماذا تقول أعينهم. تخيَّل ما شئتَ، لكن لن تقدر أبدًا على تخيُّل الأعماق التي نغوص فيها. سترى أعينهم مسكونة بنظرة استهزاء ممن يرون ظواهر الأشياء دون باطنها، وسترى في أعينهم نظرة إكبار وتقدير لمن خاضوا في ظلمات الجحيم حتى وصلوا إلى اليقين، وشأني شأن هؤلاء العشاق فقد خضتُ كل هذه التجارب المريرة، لكن الاختلاف أنني خضتُها بمفردي».

***

صحيح أن تورلس قد انتهى إلى هذه النتيجة في مرحلة متأخرة من حياته، لكنه وقتها، وفي غمرة انغماسه في مشاعر الشغف والوحدة، لم يظنّ أبدًا أن الأمور ستنتهي على خير.

فمن بين المسائل التي أرَّقت باله آنذاك، بقيت مسألة واحدة ما برحت تواصل تأثيرها الغامض في نفسه، وكأنها نغمة تداعب أذنيه من بعيد، وترقد في أحشاء ذكرياته، إلا أنه آثر ألا يفكِّر في المسألة وقتها.

برغم ذلك كانت تمرُّ عليه لحظات لا يملك فيها إلا معاودة التفكير في هذه المسألة، حينها كان يغرق في هاوية اليأس، وكلما فكَّر فيها استولى عليه شعور بالخزي وخمود الهمَّة وفقدان الأمل في المستقبل. برغم ذلك عجِزَ عن تفسير هذا لنفسه.

كان سبب اضطراب تورلس هو تفكيره في الضوابط واللوائح المعمول بها داخل المدرسة، حيث قُمعت طاقات الشباب المتفجِّرة وراء جدران كئيبة، وتراكمت شتى صنوف الصور الحسّية المثيرة داخل أوراحهم تراكمًا عشوائيًّا، فسَلَبتْ من بعضهم القدرة على الشعور والإدراك السليم. فرأى بعض التلاميذ في الإباحية مظهرًا من مظاهر الرجولة، وعلامة من علامات الجرأة والجسارة لخوض غمار الملذات المحرَّمة وتجريبها، لا سيما عندما يضعون أنفسهم موضع مقارنة مع المظهر المحترم والمشوَّه في آنٍ واحد لأغلب المدرِّسين.

وكان من نتيجة ذلك أن كلمات الحثِّ على الفضيلة اقترنت عند التلاميذ على الدوام بسخافة هيئة المُدرِّسين، ذوي الأكتاف المتهدلة والكروش الكبيرة والسيقان الناحلة والأعين الراقدة خلف نظارات سميكة كأعين الأغنام الرُّتَّع، وكأن الحياة ليست إلا حديقة زهورها التربية والتعليم فقط.

باختصار لم يكن يعلم تلاميذ المدرسة شيئًا عن الحياة الحقيقية ولا عن طبيعة الدنيا، ولم تكن لديهم أدنى فكرة عن اختلاف درجات سلوك البشر بدايةً من الدناءة والوضاعة وصولًا إلى العِلل المرضية والسخافات، وهي السلوكيات التي كان يشمئزُّ منها الكبار بمجرد سماعها.

ومثلما افتقر تورلس إلى هذه الخبرات، التي لا يمكننا بالطبع تقدير أثرها، فتَعامَلَ مع تلك السلوكيات المنحرفة بطبيعته الساذجة، افتقر

كذلك إلى القدرة الأخلاقية على المقاومة والروح الحساسة المرهفة، وهي الخصال التي عرف قيمتها لاحقًا وقدَّرها حق قدرها.

في البداية ضلَّ تورلس طريقه لما اعتبر الأوهام والهواجس الغامضة المنعكسة في أعماق عقله الباطن حقيقة مؤكدة، وكان ذلك مكمن الخطأ؛ فأحسَّ بمهمة ثقيلة ألقيت على كاهله، مهمة روحية بالأحرى، برغم أنه لم يكن يملك من النضج ما يكفي للاضطلاع بهذه المهمة.

اقتفى تورلس أثر غاية يشوبها الغموض، فسار فوق طريق ظنَّ أنه سيقوده إلى اكتشاف أعماق روحه، لكنه عاد من الرحلة خائر القوى. حداه الأمل في العثور على اكتشافات روحية ثمينة، فسار في الطريق ليجدَ نفسه محاصرًا بين جدران غُرَف الرغبات الحسِّية الملتوية الضيقة. ولم يكن هذا بسبب انحراف أخلاقي عن جادة الطريق المستقيم، بل بسبب وصوله إلى طريق روحي مسدود، لا طائل من ورائه. ومن هنا امتلأتْ نفسه بشعور مؤرِّق بالذنب، وتحديدًا لأنه لم يضع نصب عينيه غاية سامية جادة.

تملَّكه شعور قوي بالاشمئزاز وانتابه قلق هائل مثل إنسان يتحسَّس خطواته في جنح الظلام ولا يدري أهو على طريق الهُدى أم الضلال. بذل قصارى جهده لصرف ذهنه عن التفكير في أي شيء، فواصل حياته هكذا بساطة، صامتًا، مخدِّر الحواس، متناسيًا كل الأسئلة السابقة، فبدأت سعادته السابقة في توبيخ نفسه وإهانتها في التلاشي.

لكن هذا الشعور لم يفارقه تمامًا، وبرغم انعقاد عزم الشلَّة على اتخاذ مزيد من الإجراءات ضد بازيني، لم تخرج من تورلس أدنى بادرة للاعتراض.

(16)

اتخذ لاحقًا قرار المجموعة بشأن بازيني، تحديدًا بعد بضعة أيام من اجتماعهم في الغرفة.

فاض وجه باينيبيرج بجدِّية هائلة، بدأ رايتينيج في الكلام:

«في ظننا، أنا وباينيبيرج أن الأمور لا يمكن أن تمضي على هذا النحو مع بازيني، فقد تعوَّد على تقديم فروض الولاء والطاعة إلينا ولم يعد الأمر يشكِل فارقًا معه، صار يشعر بنوع من الألفة مع الإهانة، ومن هنا نعتقد أن الوقت قد حان لنتخذ خطوة في اتجاه آخر، هل أنت موافق؟»

«موافقتي مرهونة بطبيعة الخطوة التي ستتخذانها حياله؟»

«ليس الأمر بالسهولة التي تظنُّ، لكن علينا مواصلة إهانته وكسر أنفِه. أودُّ أن أرى إلى أي حد ستمضي الأمور، أما كيف سأنفِّذ ذلك فهذه نقرة أخرى، في ذهني بعض الأفكار التي لا بأس بها. على سبيل المثال يمكننا أن نجبره على إنشاد مزامير الشكر بينما نلهب جسده بالسياط، ربما سيستمتع بنغمات الأناشيد، فكل نغمة ستبعث في جسمه قشعريرة قوية. كما في مقدورنا أن نأمره بالذهاب وجلبِ أقذر الأشياء، وفي مقدورنا أن نأخذه إلى بيت بوزينا ليتلو أمامها خطاباته المكتوبة إلى أمِّه لتطرب أذني بوزينا بصنوف المرح والسخرية. لسنا في عجلة لاتخاذ قرار. علينا التفكير بتروٍّ وترتيب أوراقنا للعثور على أفكار جديدة. ربما يبدو الأمر مملًّا الآن لأننا لا نملك خطة تفصيلية، وربما نسلِّمه إلى تلاميذ الفصل ليفعلوا به ما يشاؤون، لعل ذلك هو عين الصواب. فلو ضربه كل تلميذ

ضربة واحدة لكان ذلك كفيلًا بتقطيعه إربًا. كم تروق لي حركة الجماهير الحاشدة، الجميع متورط، ولا أحد بعينه يلعب دورًا بطوليًّا، وبرغم ذلك يرتفع مدُّ الأمواج، غامرًا رؤوس الجميع. ستريان ما يجري: لن يحرّك أحد ساكنًا، لكن برغم ذلك ستريان طوفانًا هائلًا، لشدَّ ما ستكون سعادتي لو تمكنتُ من ترتيب مشهد كهذا».

«حسنًا.. وكيف نبدأ؟»

«كما أخبرتُكَ أفضِّل إرجاء الأمر برمته إلى وقت لاحق، أما في الوقت الراهن فيكفيني إعادته إلى مرحلة أن يقول نعم لكل شيء نأمره به، سواء بالتهديد أو بالضرب».

«ولماذا تضربه؟»

هتفَ تورلس، ثم حدَّق الاثنان إلى بعضهما.

«لا تلعب معي هذه اللعبة، أعلم تمامًا أنك تعرف كل شيء».

لاذ تورلس بالصمت، وقال في نفسه: هل اكتشف رايتينج شيئًا؟ أم تراه فقط يتذاكى ويجسُّ نبضي؟

«أعلم تمامًا أن باينيبيرج أخبركَ بما يفعله بازيني».

عندها تنفَّس تورلس الصعداء وسكن روعه.

«آه يا رجل.. لا تتظاهر بالمفاجأة، سبق وأن بوغِتَّ في الماضي، ولم يكن الأمر بهذا السوء، هذا فضلًا عن أن رايتينج اعترف لي أنه يمارس الشيء نفسه مع بازيني».

في هذه اللحظة كشفت عينا رايتينج عن نظرة هازئة رمقَ بها باينيبيرج، وكانت هذه هي طريقته دائمًا حينما يريد أن يقطع الطريق على أحد أمام الجميع دونما خجل. لكن باينيبيرج حافظ على سكونه، ولبث شارد الذهن، غارقًا في أفكاره بعينين شبه مغمضتيْن.

«ما حكايتك؟هل قضمت القطة لسانك؟ لا بد أن صاحبنا مشغول بفكرة جهنمية يريد تنفيذها مع بازيني قبل أن نشرع في تنفيذ خطوة أخرى، على الأرجح أنها فكرة مسلية».

لم تفارق الجدية ملامحه، فرمى بصره ناحية تورلس، وحاصَرَه بنظرة ذات مغزى قائلًا:

«هل تتذكر حديثنا آنذاك لما كنا جالسيْن خلف رفِّ المعاطف؟»

«نعم أذكره».

«لم آتِ على ذِكْر المسألة مرة ثانية، فالأقوال دون أفعال لا قيمة لها، لكن صدقني لو قلتُ لك إني أمعنت التفكير في الموضوع. كما أن ما ذكره رايتينج للتوّ صحيح. لقد فعلتُ الشيء نفسه مع بازيني، بل ربما ذهبت أبعد قليلًا. طالما اعتقدت أن العنف ربما يكون الطريق الأمثل الذي ينبغي انتهاجه. كانت مجرد تجربة، ولم يكن أمامي من سبيل آخر للوصول إلى ما أبحث عنه، لكن كما تعلم فالخطوات العشوائية لا تؤدي إلى غاية، وهكذا واصلتُ التفكير ليالٍ طويلة بحثًا عن طريقة تُمكِّنني من الوصول إلى مرادي على نحو منظَّم منطقي.

أما الآن فأظنني وجدتُ ما أبحث عنه وسنضعه موضع التجربة، لترى بعينيكَ كم كنتَ مخطئًا يا تورلس، ولترى أن كل ما يدَّعيه الآخرون عن العالم يفتقر إلى الوضوح واليقين، وسترى أن الأشياء تحدث على نحو مختلف عما نتخيَّله. بمعنى أننا لم نرَ إلا وجهًا واحدًا من العالم، الوجه

الذي تتعثَّر عليه التفسيرات الطبيعية، ويحدوني أمل قوي في إعادة الأمور إلى نصابها والكشف عن الوجه الإيجابي، الوجه الآخر من الحقيقة».

أما رايتينج الذي كان يصبُّ فناجين الشاي، فقد وكز تورلس وكزة خفيفة قائلًا:

«ركِّز انتباهك جيدًا.. فما اكتشفه صاحبُنا في غاية الذكاء».

سرعان ما أطفأ باينيبيرج المصباحَ من دون تمهيد، فألقَت شعلة الموقد الكحولي بظلالها الزرقاء المرتعشة على رؤوس الأصحاب الثلاثة.

«لقد أطفأتُ المصباح يا تورلس، لأن هذا هو الجو اللائق بطبيعة المسألة التي نتكلَّم عنها الآن، أما أنت يا رايتينج فلا بأس عندي لو غططتَ في النوم إذا ما عجزت دماغك الثخينة عن فهم هذه المسائل العميقة».

ضحك رايتينج.

«حسنًا.. لا بد أنك تتذكَّر نقاشنا تلك الليلة. لقد اكتشفتَ بنفسك آنذاك خللًا طفيفًا يعتري علم الرياضيات، وهذا الخللُ مثال حيّ على أن تفكيرنا لا يستند إلى أسس متينة راسخة، بل هو نسيج تتخلَّله الفجوات والثقوب التي ينبغي رتقها. هنا يغلق العقلُ عينيه، ويتوقَّف هنيهة، ويصيخ السمع لحظات كيما يكون قادرًا على الهبوط بأمان على الضفة الأخرى. ولا بد أن حالة من اليأس قد اعترتنا فترة طويلة لأن معرفتنا بالعالم تتخللها فجوات هائلة، فلا تترك لنا سوى شظايا متناثرة فوق صفحة محيط شاسع لا قرار له. لكنا برغم ذلك لا نيأس، ونشعر كما لو كنا نقف فوق أرض صلبة. ولولا فسحة الأمل والشعور باليقين لأزهقنا أرواحنا يأسًا بسبب فقر عقولنا. يرافقنا هذا الشعور على الدوام، فيسبغ علينا نعمة التماسك ويحمي عقولنا في كل لحظة مثل أمّ تحمل طفلها بين ذراعيها.

وفي اللحظة التي ندرك فيها هذا يستحيل علينا بعدها إنكار عالم الروح. عندما نضع حياتنا الفكرية تحت المجهر، فندرك قصور عقولنا وأفهامنا عن بلوغ الحقيقة، نشعر بلحظة اليقين شعورًا حقيقيًّا. وإن لم يكن لهذا الشعور وجود، فإننا ننهار كما تنهار الأكياس الفارغة.. هل تفهم قصدي؟

الحقيقة أننا نسينا كيف ننتبه إلى هذا الشعور برغم أنه شعور موغل في القِدَم، عرِفَته قبل ألوف السنين الشعوبُ التي تفصلها عن بعضها البعض آلاف الأميال، وبمجرد اقترابنا من هذه المسائل، نعجز تمامًا عن إنكار وجودها. لكني لن أسعى إلى إقناعك بالكلمات المنمقة والخُطب الرنانة، وسأقتصر على التفاصيل الضرورية حتى تتمكن من فهم مغزى كلامي وسأبرهن الحقائق بالدليل الكافي.

إذا ما فرضنا أن الروح موجودة فلن تشتاق أنفسنا إلى شيء أشدَّ من اشتياقها إلى تجديد حبل الوصال معها، والتعرُّف عليها مجددًا، ومعرفة أفضل السبل للانتفاع بالقوى الروحية وتوظيف جزء من القوى الخارقة الكامنة في أعماقها. ولا غرابة في ذلك، فكل هذا ممكن الحدوث، بل حدث أكثر من مرة: ولا أدلَّ على ذلك من المعجزات والقديسين وعرَّافي الهند ونُسَّاكها».

قاطعه تورلس قائلًا:

«مهلًا.. ما أراك إلا أنك تحاول إقناع نفسك بمثل هذه المعتقدات! ولعل هذا هو السبب الذي دفعك لإطفاء ضوء المصباح. ولكن هل كنتَ ستتحدث بهذه الطريقة لو كنا جالسين بين زملائنا في الطابق السفلي، ندرس الجغرافيا والتاريخ، ونكتب الخطابات إلى أهلينا، وسط قاعات الدرس المضيئة بالمصابيح، وربما يطوف الناظر بمقاعدنا ليراقبنا؟ ألم تحسَّ للحظةٍ أن كلامك طافح بالجموح والعجرفة كما لو أننا مصنوعون

من طينة مختلفة عن طينة بقية البشر، وأننا نعيش على سطح كوكب آخر يبعد عن عالمنا بمسافة ثمانمئة عام؟».

«نعم، عزيزي تورلس، لو كنتُ في قاعات الدرس لقلتُ الكلام نفسه بالضبط. أتعلم ما مشكلتك؟ مشكلتك يا تورلس أنك دائمًا تفكِّر وعينك على الآخرين، لأنك لا تتمتع بشخصية مستقلة تمام الاستقلال، هههه.. كتابة خطابات إلى مسقط رأسك! نحن في وادٍ وأنت في وادٍ آخر تفكِّر في والديك! ومن قال لك إن والديك قادران على فهم ما نقول هنا؟ نحن جيل الشباب، جيل أحدث سنًّا، ربما اختُصِصنا بمعرفة أشياء لم يحلموا بالتفكير فيها قط، أو هذا هو شعوري الداخلي على الأقل. ولكن فيمَ هذه الثرثرة؟ سأبرهن لك بالدليل القاطع صدق كلامي».

غشيهما الصمتُ قليلًا، ثم بادر تورلس بالكلام قائلًا: «وكيف تخطط بالضبط لإحكام السيطرة على الروح؟»

«لا أريد الخوض في التفاصيل الآن، لكني سأبرهن كل شيء في حضور بازيني».

«لتُعطِني على الأقل لمحة سريعة».

«لا بأس. يُعلِّمنا التاريخ أن أمامنا سبيلًا واحدًا لبلوغ ذلك، ألا وهو الغوص عميقًا في أعماق النفس، وهنا مكمن الصعوبة. ففي الأزمنة السحيقة على سبيل المثال، عندما كانت تتجلَّى الروح على البشر من خلال المعجزات، لم يستطع القدِّيسون السيطرة على أرواحهم إلا عبر الاستغراق العميق في الصلوات الداخلية. كانت للروح آنذاك طبيعة مختلفة، أما في عصرنا الراهن فهذه الطريقة فاشلة لا محالة، فقد مزَّقتنا الحيرة، وتغيَّرت طبيعة الروح، ومرَّت أوقات طويلة لم نولِ فيها الاهتمام اللائق بالروح فانقطعت أواصر الصلة بينها وبيننا انقطاعًا لا رجعة فيه.

ومن ثم لا مناص من إمعان التفكير بتروٍ للوصول إلى حل، وهو الأمر الذي ما برح يشغل بالي في الآونة الأخيرة بشكل مكثَّف، بدا التنويم المغناطيسي الحل الأقرب إلى عقلي، لكني لم أجرِّبه حتى الآن بعد. طالما لجأ الناس إلى حِيَل الحياة اليومية المألوفة، وهذا هو السبب في أن أحدًا لم يفكِّر في تجريب هذه الطرائق القادرة على نقلنا إلى آفاق أكثر رحابة. آخر كلمة أقولها إني لن أنوِّم بازيني بهذه الأساليب الشائعة، بل بأسلوبي الخاص، الأقرب لأساليب القرون الوسطى لو لم أكن مخطئًا».

ضحك رايتينج متهكمًا وقال:

«أوليس هذا كثيرًا على شخص مَهين مثل بازيني؟ لو عاش في عصر نبوءات يوم القيامة لاعتقد أن روحه المسكونة بالأسرار الغامضة هي التي كفلتْ للعالم البقاء حتى اليوم».

وبينما كان رايتينج يواصل سخريته اللاذعة، رمق تورلس زميله باينيبيرج بنظرة فاحصة، فلاحظ تيبُّس قسمات وجهه، وكأن التركيز الشديد شلَّ عضلات وجهه. ثم ما لبث أن شعر في اللحظة التالية وكأن أصابع باردة كالثلج تلمس جسده، فانتفض مذعورًا، لكن ما لبث التوتر الذي يسكن قبضة يده أن يخفُّ قليلًا، وسمع باينيبيرج يقول: «أوه.. لا عليك.. كانت مجرد فكرة، شعرت بأن إلهامًا هبط على رأسي، إشارة تعرِّفني كيف أتصرَّف».

قال رايتينج مازحًا:

«تبدو لي الآن منهك القوى، طالما عهدتكَ رفيقًا صلبًا صلابة الفولاذ، قادرًا على تأدية هذه المهام مثل من يمارس الرياضة، أما الآن فأراك فجأة أقرب إلى امرأة جالسة في المنزل!».

«مهلًا.. ليست لديك أدنى فكرة عن شعور الاقتراب من هذه الأشياء واحتوائها في قبضة يدك كل يوم».

كان تورلس قد صار أشدَّ صرامة وجرأة في الأسابيع الماضية، فهتف قائلًا:

«لا تفتعلا شجارًا الآن. لكلٍّ أن يفعل ما يحلو له، لأني لا أؤمن بكلمة واحدة مما تقولان؛ لا أؤمن بأساليب التعذيب المعقدة التي تتبعها يا رايتينج، ولا أؤمن بمعتقداتك المتفائلة يا باينيبيرج، إضافة إلى أنني لا أملك ما أقوله، سأنتظر معكما لأسمع وأرى».

«ولكن متى إذن؟»

قرَّرا إتمام التجربة في الليلة التالية.

(17)

ترك تورلس الأمور تمضي إلى حيث وجهتها المحتومة من دون مقاومة.

على خلفية التطورات الجديدة بردت مشاعره إزاء بازيني، وذلك من حسن تدبير القدر، لأنه خلَّصه دفعة واحدة من ألم التأرجُح بين الخجل والرغبة، وهو الألم الذي لم يجد في نفسه القدرة على التحرر منه، فامتلأت نفسه بشعور صريح مباشر ببُغض بازيني، كما لو أن صنوف الإذلال والمهانة التي يخطط لها زميلاه يمكنها أن تنال منه أيضًا.

كان ذهن تورلس غائبًا في مكان آخر، رافضًا التفكير في أي شيء، لا سيما ما أرَّق باله في الماضي. ولم تجترّ ذاكرته الأحداث الماضية إلا وهو يرتقي درجات السلم إلى جوار رايتينج، بينما باينيبيرج قد تقدَّمهما في صحبة بازيني إلى العلِّية.

في أثناء صعود الدَرَج لم تفارق رأس تورلس نبرة الثقة التي تكلَّم بها مؤخرًا مع باينيبيرج، وتاقَ في هذه اللحظة إلى استعادة ثقته بنفسه مجددًا، فأخذ يقدِّم رِجلًا ويؤخِّر الثانية، لكنه لم يُفلح في استعادة ثقته بذاته، تذكَّر الأفكار التي طافت بذهنه وقتها، لكنها غادرته بعيدًا مثل ظلال أفكار شاردة.

في نهاية المطاف لم يعثر تورلس على شيء في نفسه يردّ إليه ثقته بذاته، فركَّزَ فضوله على ما سيحدث بعد قليل، وهو ما شجَّعه على مواصلة ارتقاء درجات السُّلَّم. ثم ما لبث أن وجد نفسه يسرع الخطى

للحاق بِرايتينج. وفي اللحظة التي صرَّ فيها باب العليَّة منغلقًا وراءهم، قال تورلس في نفسه بحسرة إنه حتى لو كانت خطة باينيبيرج مجرد حيلة سخيفة، فإنها لا تخلو من أساس راسخ مدروس، في حين أن نفسه مضطربة ما تزال تموج ببلبلة مبهمة.

جلَسَا فوق عارضة حديدية بأعصاب مشحونة وكأنهما في انتظار لحظة رفع الستار عن عرض مسرحي، وكان بازيني وباينيبيرج قد سبقاهما إلى قلب الحدث.

بدت الظروف كلها مُهيَّئة لإنجاح خطة باينيبيرج: الظلام الدامس، الهواء الراكد، الرائحة العطنة المنبعثة من أحواض المياه؛ كل ذلك بثَّ شعورًا قويًّا بالخدر والنعاس والعجز عن إبقاء الأعين مفتوحة، وأشاعَ جوًّا من البلادة والخمول.

أمَرَ باينيبيرج بازيني بالتجرُّد من ملابسه، فبدا جسد الأخير وسط الظلام الحالك مثل بقعة ضوء زرقاء متوهِّجة، باعثة على الاشمئزاز.

سحب باينيبيرج المسدس من جيبه بغتة، مصوِّبًا إياه إلى رأس بازيني، باغت الأمر الجميع حتى أن رايتينج مال بجسده إلى الأمام، متأهبًا للتدخل في أية لحظة.

افترَّ ثغرُ باينيبيرج عن ابتسامة ملتوية متوحشة، وكأنها خرجت رغمًا عنه في غمرة تدافع الكلمات العنيفة المحتشدة على شفتيه. في هذه اللحظة جثا بازيني فوق ركبتيه، متيبِّس الأطراف، محدقًا إلى المسدس المُصوَّب إليه بعينين مذعورتين.

«انهض».

قالها باينيبيرج وأضاف:

«لو نفَّذتَ ما أقوله حرفيًّا فلن يمسَّك أذى، أما لو بدَرَتْ منك أدنى مقاومة فسأطلق عليك النار في الحال. حذاري. أيًّا ما كان الأمر سأقتلكَ، لكنك ستُبعث إلى الحياة مجددًا، فالموت ليس غريبًا عنا، نموت كل يوم وكل لحظة، نموت في نوم عميق بلا أحلام».

ارتسمتْ من جديد على شفتي باينيبيرج الابتسامة الملتوية المتوحِّشة نفسها، ثم قال مشيرًا إلى عارضة أفقية ممتدة إلى ارتفاع الخصر تقريبًا:

«اذهب إلى هناك واركع، حافظ على استقامة ظهركَ، والآن قوِّس ظهرك كالمصلوب... نعم هكذا..ثم صوِّب نظرك إلى هناك من دون أن ترمِشَ بعينك، بعدها افتح عينيك على قدر ما تستطيع».

ثبَّت باينيبيرج موقدًا كحوليًّا ذا لهب صغير أعلى رأس بازيني، بحيث اضطرَّ الأخير إلى الرجوع برأسه إلى الوراء قليلًا ليرى لهب الموقد. كان الظلام الدامس يلفُّ أرجاء المكان ويحول دون رؤية أي شيء، بعد فترة أخذت رأس بازيني تتأرجح ذهابًا وإيابًا مثل قرص بندول، وتمايَلَ انعكاس ظلال اللهب الأزرق للموقد على جلده، فحسِب تورلس أنه يرى وجه بازيني وقد علتْه أمارات القلق والذعر.

مرَّت برهة قصيرة من الوقت حتى سأله باينيبيرج جريًا على عادة المنوِّمين المغناطيسيين:

«هل تشعر بالتعب؟»

بعدها بدأ يسترسل في كلامه شارحًا بصوت خفيض مكتوم:

«الموت ببساطة هو ثمرة الطريقة التي نعيش بها حياتنا، فنحن نعيش بين فكرة وأخرى، وبين شعور وآخر، والسبب أن أفكارنا ومشاعرنا لا تنساب بهدوء مثل انسياب جدول ماء جارٍ، وإنما «تهبط على رؤوسنا»، وتسقط في هوَّة أعماقنا سقوط حجارة في بئر عميقة.

ولو تأمَّلتَ نفسك عن قرب، لاكتشفت أن الروح ليست شيئًا يتلوَّن بلون جديد كلما طرأ عليها تحول، بل إن الأفكار والانطباعات تقفز من أعماق الروح قفزَ الأرقام من ثقب أسود.

ربما تمر بخاطرك فكرة أو يساورك شعور، ثم سرعان ما تظهر بغتة فكرة جديدة أو شعور مغاير وكأنما قفزَت من العدم. ولو حشدتَ تركيزك لانتبهتَ إلى وجود لحظة عابرة فاصلة بين فكرتين، ملفوفة بالظلام الدامس. هذه اللحظة تحديدًا هي لحظة الموت.

حياتنا لا تعدو أن تكون مشاوير نقطعها لتحديد معالم طريقنا، مُنتقلين من محطة إلى أخرى، وكل يوم نعيشه تمرُّ علينا لحظة الموت ألف مرة. خلاصة القول إن حياتنا محصورة في محطات السكون الواقعة بين لحظات الموت المتكررة كل لحظة، وهو السبب الذي يدفعنا للشعور بالذعر خوفًا من قدوم لحظة موت لا رجوع منها، فبعد هذه اللحظة لا تنتظرنا معالم طريق جديدة، ولا محطات جديدة، فلا يكون في انتظارنا إلا هاوية سحيقة لا قرار لها.

لكن هذه طريقة عيشٍ مناهضة للحياة برمَّتها، ومنظور يستخدمه مَن لم يتعلموا العيش بأية طريقة سوى الانتقال من لحظة إلى أخرى، وهو ما أطلقُ عليه «الداء الدوَّار هنا وهناك»، والسرُّ كله يكمن في أن يبرأ الإنسان من هذا الداء. يتحتم على الإنسان أن يوقظَ في نفسه شعورًا ينبّهه إلى أن الحياة ليست إلا لحظة انزلاق هادئ إلى عالم آخر، ولو أفلح في إيقاظ هذا الشعور لاقترَبَ من الموت قدر اقترابه من الحياة، حينذاك لن نعود نموت أو نحيا وفق تصوُّرنا الدنيوي، لأننا أبطلنا فعل الموت بهذه

الطريقة، هذه هي لحظة الخلود، اللحظة التي تخرج فيها روحنا من ضيق العقول إلى رحاب جنَّات* الحياة الحقيقة.

والآن.. افعلْ ما آمرُكَ به... اجعل كل أفكارك تخلد للنوم وحدِّق بتركيز وثبات في هذا اللهب الصغير، لا تشرد بذهنك... ركِّزْ انتباهك على نفسك... أطِل النظر إلى شعلة اللهب... سيتحوَّل فكرك إلى آلة تتباطأ حركتها.. أبطأ... وأبطأ... وأبطأ... تأمَّل أعماقك حتى تصل إلى النقطة التي تشعر فيها بأنك وصلتَ إلى نفسك، لا أفكارك ولا عواطفك.. سأعتبر صمتكَ ردًّا عليَّ.. لا تَحِدْ عيناك عن النظر إلى الداخل».

مرَّتْ بضع دقائق.

«والآن هل وصلت إلى النقطة؟»

لم ينبس بازيني بكلمة.

«بازيني.. اسمعني.. هل وصلتَ إلى النقطة؟»

رانَ صمت طويل مطبق.

عندها نهض تورلس واقفًا وانعكس ظلُّه الهزيل فوق الأرض إلى جوار العارضة، في مقدمة العليَّة كان جسد بازيني المغمور بالظلام، يتأرجح ذهابًا وإيابًا.

«والآن استدر».

أمَرَه باينيبيرج، ثم غمغم قائلًا:

«إن ما يستجيب لأوامري الآن هو عقله الذي يستمر في عمله بحركة آلية لبرهة من الوقت حتى تختفي منه آخر آثار الروح. أما الروح نفسها فهي

---

* وردت في الأصل Gärten (بمعنى حدائق جمع حديقة)، وآثرت ترجمتها جنَّات، الجامعة بين معنى الحديقة والجنَّة بالمعنى الروحاني (المترجم).

في مكان ما، في وجودها التالي، وهو وجود غير خاضع لقوانين الطبيعة المادية».

بعدها التفتَ بانيبيرج إلى تورلس قائلًا:

«لم يعد محكومًا على الروح بأن تقيم وزنًا أو تعطي قيمة للجسد».

«والآن مِل بجسدك إلى الأمام يا بازيني.. نعم هكذا.. رويدًا رويدًا.. انحنِ فقط بجسدك إلى الأمام قليلًا.. حالما تختفي آخر آثار الروح من الدماغ سترتخي عضلات الجسد شيئًا فشيئًا وينهار الجسد الفارغ، أو ربما يواصل الطفو هكذا، لستُ متأكدًا، لقد فارقَت الروحُ البدن بمحضِ إرادتها، لكن هذا ليس هو الموت في صورته المألوفة لدينا، ربما يبقى الجسد طافيًا في الهواء، إذ لا شيء، لا قوة الحياة ولا قوة الموت قادرتان على تحمُّل مسؤوليته.. والآن انحنِ إلى الأمام.. مِلْ بجسدك أكثر». في غمرة ذعره الهائل سقط جسد بازيني عند قدمي باينيبيرج بعد أن نفَّذ كل الأوامر، مُصدِرًا صوت ارتطام قوي، فخرجت منه صرخة ألم قوية.

أغرق رايتينج في الضحك، بينما تراجع باينيبيرج خطوة إلى الوراء بعد أن أطلق صرخة غضب هائلة حالما اكتشف أن تجربته مُنيت بالفشل الذريع.

وفي لمح البصر خلع حزامه الجلدي، وأمسك بازيني من شعره وراح ينهال على جسده بضربات متلاحقة مجنونة، مُفرِغًا جامَّ غضبه وتوتره عليه من خلال هذه الضربات الطافحة بالحنق. وسط الضربات أخذ بازيني يعوي ويأنُّ من الألم ككلب ألهبتْ جسمه السياط، وتردَّد صوت صرخاته في كل أركان الغرفة.

في أثناء المشهد السابق لم يحرك تورلس ساكنًا، وحافظ على هدوء أعصابه، مؤمِّلًا أن يحدث شيء يعيده إلى دائرة مشاعره المفقودة. أدرك أنه أملٌ أحمق غير قابل للتحقق، وأن هذا الأمل يثقل كاهله. في هذه اللحظة بدا له أن كل شيء قد انتهى.

أثار ما حدث اشمئزازه، وكان شعوره بالاشمئزاز خلوًّا من التفكير ومن الرغبة في الكلام. اشمئزاز ميِّت. نهض تورليس وغادر المكان من دون أن ينبس بكلمة، انصرف بخطوات آلية.

واصل باينيبيرج ضربَ بازيني وكأنه لا يريد تركه إلا وهو خائر القوى.

telegram @
yasmeenbook

(18)

في تلك الليلة وبينما هو مستلقٍ في سريره انتاب تورلس هاجس ما؛ أن النهاية وشيكة، وكلمة الختام ستُكتب قريبًا. في الأيام القليلة التالية انكبَّ على تحصيل دروسه ولم يشغل فكره بأي مما يجري حوله. وبينما واصل رايتينج وباينيبيرج تنفيذ خطتهما خطوة بخطوة، آثر تورلس الابتعاد عن طريقهما.

في اليوم الرابع للأحداث التي وقعت في العليَّة، وبينما تورلس جالس بمفرده جاء إليه بازيني. كانت ملامح البؤس تطلُّ من وجهه الشاحب الهزيل، وعيناه تبرقان من الفزع.

بنظرات خجلى وكلمات لاهثة شرع في الحديث:

«يتحتم عليك مساعدتي! أنت الوحيد القادر على ذلك، فاق العذاب كل احتمال، في الماضي كنت أستطيع تحمُّل كل صنوف الألم، أما الآن فسوف يقتلانني!»

لم يشعر تورلس برغبة في الردّ على كلامه، لكنه نطق في النهاية قائلًا: «لا أستطيع مساعدتك، لا تلومنَّ إلا نفسك في كل ما وقع لك».

«لكنك كنتَ لطيفًا معي منذ وقت ليس ببعيد!»

«أبدًا، لم يحدث قط».

«ولكن..».

«أغلق فمك... لم أكن أنا، بل كان حُلمًا.. نزوة.. لشدَّ ما أنا سعيد أن فضيحتكَ الأخيرة فرَّقتْ بيننا، هذا من حسن حظي».

طأطأ بازيني رأسه. أحسَّ أن بحرًا رماديًّا من خيبة الأمل قد غَمَر المسافة بينهما، حيث بدا تورلس جافَّ المشاعر، وكأنه شخص آخر. سرعان ما جثا بازيني على ركبتيه أمام تورلس، ضاربًا رأسه بالأرض وهو يصرخ:

«ساعدني.. ساعدني.. أستحلفك الله».

تردَّدَ تورلس لوهلة، إذ لم يكن راغبًا في مساعدة بازيني، ولم يكن حانقًا عليه بما يكفي لزجره، فنطق لسانه بأول كلمة وقعت في خاطره:

«لتلقَني في غرفة العلية مساء الليلة، أودُّ الكلام معك مجددًا حول الموضوع».

لكنه ندم على الفور من كلمته، وقال في نفسه: «ولِمَ تريد طَرق الموضوع من جديد؟» ثم استدرك قائلًا:

«ليست فكرة جيدة، سيرونكَ».

«لا، لقد سهِرا معي الليلة الماضية حتى مطلع الفجر، سينامان الليلة مبكرًا».

«لا بأس. لكن لا تنتظر مني مساعدة».

***

برغم عدم اقتناعه بسلامة الفكرة وافق تورلس على لقاء بازيني، كان على اقتناع أن الأمور بلغت وجهتها الأخيرة وألا أحد في مقدوره فعل شيء. ولم يكن دافعه إلى فعل ذلك إلا لونًا من ألوان الحذلقة الفارغة،

ونغزة من نغزات ضميره اليائس منذ البداية، فحرَّكته رغبة في طَرْق الموضوع ثانية. فأراد أن يلبي رغبته بأسرع وجه ممكن.

أما بازيني فلم يكن يعرف كيف سيتصرف بعد أن ضُرب ضربًا مبرحًا لم يكن قادرًا معه على تحريك أطرافه. بدا وكأن شخصيته قد مُحيت تمامًا، ولم يبقَ منها إلا آثار خفيفة في عينيه، تعقد أملًا على تورلس بمشاعر ملؤها القلق والتوسُّل.

انتظَرَ ليرى ما يمكن أن يسديه تورلس إليه. التقيا وطال الصمت، وفي آخر الأمر كسر تورلس حاجز الصمت، فشرع في الكلام بكلمات سريعة متعجِّلة وبنبرة ملولة، كما لو أنه يريد حسم مسألة طال عليها الزمن وتحتَّمت تسويتها من باب إغلاق الموضوع لا أكثر.

«لن أساعدكَ. لا أنكر أنني اهتممتُ لشأنك لفترة من الوقت، لكن ذلك ماضٍ انقضى إلى غير رجعة. حقيقة الأمر أنك شخص فاسد وجبان، ولا شيء سوى ذلك. فلماذا أدافع عنك؟ حتى وقت قريب اعتقدتُ أن في مقدوري العثور على كلمات أخرى أو ربما طريقة أخرى لوصفكَ، لكن الآن لا يسعني القول إلا أنك شخص فاسد وجبان. ربما تبدو المسألة كلها بسيطة وتافهة، لكن هذه هي الحقيقة. ومنذ أن ألححتَ عليَّ برغباتك الشائنة، نسيتُ غرضي الأصلي منك. كنت أبحث عن نقطة أستطيع من خلالها أن أتأملَّ شخصيتك من مسافة بعيدة، نعم كان هذا ما أثار اهتمامي.. أن أحلل شخصيتكَ، لكنك دمَّرتَ المسألة برمتها، والآن كفى.. لستُ مدينًا لك بأي تفسير.. بقي عندي سؤال أخير: ما شعورك الآن؟»

«شعوري؟ وكيف يفترض بي أن أشعُرَ الآن؟ الأمر يفوق طاقتي على الاحتمال».

«أحسبك تذوق الويل على أيديهما وتتألَّم؟»

«نعم أتألم».

«أهذا كل ما في الأمر.. تتألم؟ ألا تشعر بمعاناة داخلية ورغبة في الفرار؟ تتألم ببساطة؟ ألا تشعر بتعقيدات من أي نوع».

حارَ بازيني جوابًا.

«لا بأس، إنه سؤال عارض لم أصغه صياغة واضحة، لكن سيَّان. لا يعنيني أمرك، قلتُ ما عندي، لا أشعر بأية رغبة في الوجود معك في مكان واحد، أنتَ وشأنكَ.. افعل ما يحلو لك..».

همَّ تورلس بالانصراف، لكن بازيني سرعان ما مزَّق ملابسه واقترب من تورلس، فرأى جسده وقد كثرت به الكدمات والقروح على نحو مثير للتقزز. وبدت حركاته بائسة مثل حركات فتاة ليل خرقاء، فأدار تورلس وجهَه عنه مشمئزًّا.

لكنه ما إن خطا خطوتين إلى الأمام حتى لقي رايتينج في وجهه.

«آها؟ هل تعقد لقاءات سرية مع بازيني؟»

تابع تورلس بصرَ رايتينج حتى وقع نظره على بازيني. عبر كوَّة محفورة في الجدار تسلل شعاع من نور القمر ليسقط على جسد الأخير. على نور القمر الضارب إلى الزرقة بدا جلد بازيني المليء بالكدمات والندوب، مثل جلد الأبرص.

بشكل عفوي حاول تورلس تبرير الموقف قائلًا:

«جاء يتوسَّل إليَّ».

«وماذا أراد؟»

«أن أحميه».

«جميل، لقد جاء إذن إلى الشخص المناسب».

«كان بودِّي مساعدته، لكن رأيت القصة برمتها مملة».

أثار المشهد استياء رايتينج، الذي صوَّب بصره على بازيني وصاح فيه غاضبًا:

«صبرًا! سنلقِّنك درسًا معتبرًا كيف تدبر الخطط من وراء ظهورنا، سيرى ملاكك الحارس تورلس كل شيء وأنا واثق أنه سيستمتع».

كان تورلس قد ابتعد بالفعل، لكن الكلمة الأخيرة الموجَّهة ضده استوقفته واستفزَّته كي يلتفتَ إلى الوراء قبل التفكير بروية.

«اسمعني يا رايتينج، لن أشاهد شيئًا، لا أريد أن يربطني شيء بالأمر كله، المسألة كلها مثيرة للقرف.».

«هكذا فجأة؟»

«نعم هكذا فجأة. في الماضي ظننتُ أني سأكتشف شيئًا مخبوءًا خلف كل هذا».

استغرب تورلس في قرارة نفسه لماذا بقيت هذه الفكرة تطارده!

«آه..تقصد رؤية الوجه الثاني للعملة؟»

«نعم بالضبط، أما الآن فلا أراك أنتَ وباينيبيرج إلا شخصين مُزريين، طافحين بالهمجية والقسوة».

قال رايتينج متهكمًا: «لتنتظر ريثما ترى بازيني وهو يأكل الفضلات».

«لا يهمني».

«ولكنك كنتَ مهتمًا في السابق..».

«كما أخبرتك، كنت مهتمًا لأن بازيني مثَّل سرًّا غامضًا بالنسبة إليَّ».

«والآن؟»

«لم أعد أرى أسرارًا في أي شيء، فأحداث الحياة تقع لنا وحسب. هذه هي خلاصة الحكمة».

فوجئ تورلس بأنَّ المفردات التي تنتمي إلى عالم مشاعره المفقودة بدأت تعاوده مجددًا على هذا النحو. فما كان جواب رايتينج إلا أن قال مستهزئًا:

«لكن المرء لا يحتاج إلى التحليق بعيدًا للحصول على الحكمة».

عندها غلى الدم في عروق تورلس، وأحسَّ بأنَّ التفوُّقَ الأخلاقي عليهما هو الذي أجرى على لسانه الكلمات السابقة القاسية. عندها استولى عليه شعور بالازدراء العميق ناحية رايتينج لدرجة أنه أراد ركله بقدميه.

«اسخر كما يحلو لك، لكني ما أرى قسوتك إلا فعلًا أخرق مملًّا مثيرًا للغثيان!»

ألقى رايتينج نظرة على بازيني الذي كان يصغي إلى كل كلمة.

«انتبه إلى ألفاظك يا تورلس».

«أكررها على مسامعك..أنت إنسان مقرف وقذر».

عندها فقد رايتينج أعصابه وقال:

«أمنعكَ من إهانتي أمام بازيني».

«هه.. تمنعني؟ لستَ في موقف يسمح لك بمنعي من أي شيء، تلك أيام قد ذهبت إلى غير رجعة، في الماضي كنتُ أكنُّ لكَ أنت وباينيبيرج احترامًا كبيرًا، أما الآن فلا أراكما إلا غبييْن، مقرفيْن.. في همجية البهائم».

«اخرس وإلا..».

بدا رايتينج على وشك الإجهاز على تورلس، لكن الأخير تراجع خطوة إلى الوراء وصاح قائلًا:

«وهل تظن أني سأتعارك معك؟ لا يستحق بازيني كل هذا العناء. افعل ما يحلو لك، ولكن دعني أذهب إلى حال سبيلي».

رجع رايتينج عن فكرة اللجوء للعنف فتنحَّى جانبًا، بل إنه حتى لم يلمس بازيني بسوء. أما تورلس الذي حفظ طبع رايتينج عن ظهر قلب، فقد أدرك ضرورة أن يأخذ حذره من خطر وشيك يلوح في الأفق.

(19)

بعد مرور يومين جاء رايتينج وباينيبيرج لزيارة تورلس وقت العصر.

كانت نظرات الشرِّ تقفز من أعينهما. بدا من الواضح أن باينيبيرج يضع اللوم على تورلس لفشل تجاربه الخوارقية المثيرة للسخرية، ولا يُستبعد أن يكون رايتينج قد سكب مزيدًا من الزيت على النار لتأجيج الخلاف.

«سمعتُ أنك أهنتَنا أمام بازيني! ما الدافع إلى ذلك؟»

لزم تورلس الصمت.

«تعلم بالقطع أننا لا نسكت على مثل هذه الأفعال، ولأننا نعرفك، واعتدنا على أحوالك المزاجية المتقلبة ولم نعد نكترث لها، فسنغمض أعيننا عما قُلتَه، بشرط أن تفعل شيئًا واحدًا». برغم هذه الكلمات الودِّية كانت عينا باينيبيرج تطلقان شررًا.

«سيأتي بازيني إلى الغرفة هذه الليلة، سنؤدِّبه عقابًا على تحريضكَ علينا.. عندما ترانا نغادر عنبر النوم، اتبعنا».

رفض تورلس قائلًا:

«افعلا به ما يحلو لكما.. ولكن لا تشركانني في هذه اللعبة».

«سنقضي الليلة وقتًا ممتعًا ونحن نعذِّبه، وسنسلّمه غدًا إلى الفصل، لأنه بدأ في التمرد علينا».

«ليس من شأني، افعلا ما تريدان».

«لكن لا بد من حضورك».

«لن آتي».

«لن يتم الأمر من دونك، يتحتم أن يرى بازيني بعينيه ألا شيء يقف في وجهينا. بالأمس رفض تنفيذ الأوامر، أشبعناه ضربًا حتى كاد يقضي لكنه لم يتزحزح عن موقفه، علينا العودة إلى وسائل الإذلال المعنوي، أمامك أولًا، ثم على مسمع ومرأى من الفصل كله».

«لكني لن أشارك».

«ولِم لا؟»

«لن أشارك».

التقط باينيبيرج نفسًا عميقًا، وبدا وكأنه يحاول جمع السُمِّ على شفتيه ونفثِه في وجه تورلس.

«هل تظن أننا لا نعرف سبب رفضك المشاركة؟ وهل تظننا لا نعرف إلى أيّ حد وصلت حكايتك مع بازيني؟»

«على أي حال ليست أسوأ من حكايتك».

«آه حقًّا؟ الآن فهمتَ لم اختاركَ أنت تحديدًا لتكون قدّيسه الشفيع، ولماذا كنتَ الشخص الوحيد الذي وضع ثقته فيه! أتظننا مغفلين؟»

ثارت ثائرة تورلس وقال:

«فكِّر بما شئتَ، ولكن إليكَ عني بهذه الحكايات القذرة».

«هل ستعاود وقاحتكَ مجددًا؟»

«أنتما الاثنان تثيران اشمئزازي! خِسَّة طباعكما لا حدود لها، وخِسَّة الطباع هذه تثير قرفي!»

«اسمع! أنت مدين إلينا بالكثير، ولو ظننتَ أن في مقدورك التعالي علينا، نحن معلميك، فإنك ترتكب غلطة عمرك.. هل ستأتي الليلة أم لا؟»

«لا».

«تورلس العزيز.. لو فكّرتَ في عصيان أوامرنا وأصررتَ على عدم القدوم الليلة، ستلاقي نفس مصير بازيني، ولا يخفى عليك ما الذي لقيه على أيدينا. ويكفيك هذا، ولن يفيدك لو فعلنا الكثير أو القليل. سنقلب عليك المائدة، بحيث تشير أصابع الاتهام إليك، طالما كنتَ أجبن وأضعف من حماية نفسك عندما تتفاقم الأمور. لذلك أقول لك: لو لم تسمع الكلام وتعدِل عن رأيك في اللحظة المناسبة سنضعك أمام المدرسة كشريك لبازيني في كل أفعاله، عسى أن ينفعكَ بازيني وقتها. مفهوم؟»

انهمر هذا السيل الهادر من التهديدات على رأس تورلس مثل عاصفة رعدية، استهلَّها باينيبيرج وأكملها رايتينج. وعندما غادر الاثنان فرك تورلس عينيه بشدَّة وكأنه يحلُم.

رايتينج معرفة قديمة؛ وهو من النوع الذي حين يستبد به الغضب يتحول إلى شيطان لا يتورَّع عن اقتراف أبشع الجرائم، ويبدو أن إهانات تورلس وتمرُّده عليه قد حزَّ في نفسه.

وماذا عن باينيبيرج؟ كان يثرثر تحت وطأة البغضاء والكراهية المحبوسة في صدره طوال سنوات، لا لسببٍ إلا لأنه بدا فتى مغفَّلًا أمام تورلس.

لكن ما حدث أنه كلما توالت الخطوب على رأس تورلس تواليًا مأساويًّا، بدت له أحداثًا تافهة غير فارقة. كان يخشى التهديد والوعيد، ما من شك في ذلك، لكن هذا الخطر زجَّ به إلى معترك الحقيقة كي يواجهها. أوى إلى فراشه، فوقع بصره على باينيبيرج ورايتينج وهما يغادران عنبر النوم في رفقة بازيني، الذي كان يجرجر قدميه متثاقلًا ضجِرًا كالعادة، لكن تورلس لم يتبعهم.

أرَّقت الأفكار البشعة باله.

ها هو للمرة الأولى يفكِّر في أبيه وأمه بمشاعر حميمة دافئة، أحسَّ بأنه في أمس الحاجة إلى أرض آمنة صلبة لكي يحوِّل أفكار حياته المضطربة إلى أفكار أشدّ نضجًا وأكثر استقرارًا. ولكن ما نوع هذه الأرض الآمنة بالضبط؟

لم يكن أمامه وقت ليُمعن التفكير ويدقق النظر فيما جرى. كانت غاية أمانيه في هذه اللحظة الإفلات من هذه الحياة المضطربة المشوَّشة، والارتماء في أحضان الهدوء والكتب، أحسَّ كأن روحه تربة خصبة دُفنت فيها بذور خضراء، ولا يعلم أي نبات سُينبت غدًا.

ألحَّت على ذهنه صورة بستاني يسقي زهور بستانه صباح كل يوم بودٍّ وترقب. ولم يستطع طرد هذه الصورة من عقله قط، كان على يقين منها، وتحوَّل هذا اليقين إلى قِبلة أشواقِه وأمانيه. فكّر في نفسه: نعم هذه هي الطريقة الوحيدة، ولا طريقة سواها! أزاح هذا اليقين مخاوف تورلس وشكوكه جانبًا، وأحسَّ بضرورة بذل أقصى ما في وسعه لبلوغ هذه الحالة الروحية المنشودة. لكنه لم يكن يعرف أية خطوة عليه اتخاذها قبل غيرها.

ازداد نفوره من لعبة الدسائس التي تتربص به الدوائر، واشتدَّ توقُه إلى تعميق سلامه النفسي، واستولى عليه قلق هائل من انتقام رايتينيج وباينيبيرج الوشيك، فلو حاول الأخيران تلطيخ سمعته أمام تلاميذ الفصل فستكلِّفه محاولة الدفاع عن نفسه طاقة هائلة فوق طاقته، إن مجرد التفكير في هذا التشوُّش والاصطدام بخُطط وقوى إرادة غريبة كفيلان بإثارة الغثيان في نفسه. لكنه سرعان ما تذكَّر رسالة تلقاها من والديه قبل فترة طويلة ردًّا على خطاب حكى فيه عن أحوال ومشاعر روحية عجيبة انتابته، وذلك الانغماس في طور المشاعر الحسيَّة والجسدية. أما ردُّ والديه فكان

مصطنعًا باهتًا، حافلًا بالنصائح الأخلاقية المضجرة، حيث شجَّعاه على إقناع بازيني بضرورة تسليم نفسه إلى إدارة المدرسة والاعتراف بجريمته لتخليص نفسه من حالة العبودية المُهينة المحفوفة بالخطر.

عاود قراءة خطاب أبويه، بينما كان بازيني راقدًا في السرير المجاور في عنبر النوم، استعذَبَ ذوبان كلماتهما الطافحة بالرتابة والسذاجة ورزانة الكِبار على شفتيه، وقال في نفسه إن حياتهما المشرقة قد حجبتهما عن رؤية الحقيقة، أما هو فيجلس القرفصاء مملوءًا بالفضول مثل سنّور متأهب.

كان هذا انطباعه للوهلة الأولى، لكنه لما أعاد قراءة هذه الفقرة من خطابهما مجددًا، انتابه شعور مختلف عما أحسَّ به في السابق، حيث نزلت على قلبه السكينة وشملته الطمأنينة كما لو أنَّ يدًا راسخة حانية ربتت على كتفه. استقرَّت نيته على قرارٍ كان وليد اللحظة، طافت برأسه فكرة مفاجئة فقبضَ عليها وتشبَّث بها، وكأنه كان يفعل ذلك بإيعازٍ من والديه.

بقي ساهرًا حتى رجوع الثلاثة، ثم انتظر حتى سمع انتظام صوت أنفاسهم، وتأكّد من غرقهم في النوم. انتزع على عجل ورقة من دفتر ملاحظاته وعلى ضوء المصباح الليلي المهتز كتب رسالة بأحرف كبيرة:

«سيُبلغان عنك إدارة الفصل صباح غد، ضَع في حسبانك الأهوال التي ستلاقيها. لا مخرج أمامك إلا أنْ تُبلغ مدير المدرسة بنفسك وأن تعترف أمامه بكل شيء، سيصله الموضوع إن عاجلًا أم آجلًا، لكنك ستكون حينها قد ضُربت حتى تلفظ أنفاسك الأخيرة. أشِرْ بأصابع الاتهام إلى (ب) و(ر)، ولا تشِر إليَّ من قريب أو بعيد. مؤكد أنك فهمت الآن كيف أريد مساعدتكَ».

دسَّ الورقة في كف بازيني الذي كان نائمًا، ثم غفا هو أيضًا بعد أن مزَّق التوتر أعصابه.

(20)

بدا أنَّ باينيبيرج ورايتينج يريدان منح تورلس مهلة ليوم آخر للرجوع عن رأيه، أما بازيني فكان موقفه يتفاقم سوءًا، بعدما لاحظ تورلس أنهما ينتقلان بالوسوسة من تلميذ إلى آخر، وأنَّ مجموعات من التلاميذ بدأت تتحلَّق حولهما، والهمسات تتصاعد بوتيرة محمومة.

لم يكن يعرف هل قرأ بازيني قصاصة الورق التي دسَّها في يده أم لا، فلم تسنح له فرصة الحديث معه مرة واحدة لشعوره بأن رايتينج وباينيبيرج يعدّان عليه أنفاسه. في أول الأمر خشي أن يكون الهمس الدائر بين التلاميذ قد طالَ اسمه، لكن فزعه من مواجهة الخطر وجهًا لوجه شلَّ تفكيره لدرجة أن أسلم قياده لتيار الأحداث تفعل به ما تشاء.

بعد قليل انخرط على استحياء في حديث مع إحدى المجموعات، معتقدًا أنهم سينقلبون عليه في أية لحظة، لكن أحدًا منهم لم يلحظ وجوده من الأساس. كان بازيني بؤرة اهتمام الجميع في تلك اللحظة. تعالَتْ الهمهمات بين التلاميذ، وكان تورلس يرى ذلك بعينيه، أغلب الظن أن باينيبيرج ورايتينج قد افتريا مزيدًا من الأكاذيب.

في أول الأمر ابتسم الجميع، ثم ما لبثت أن علتْ وجوههم ملامح الانزعاج، وأخذوا يحدجون بازيني بنظرات طافحة بالغضب، وفي النهاية غشي الفصلَ صمت غامض ملتهب، مشحون بنوايا خبيثة. وصادف أن تكون هذه اللحظة هي فترة راحة ما

بعد الظهيرة. اجتمع التلاميذ كلهم في آخر زاوية من الفصل أمام الخزانات، ونُودِي على بازيني للمثول بين أيديهم. وقف باينيبيرج ورايتينج إلى جواره مثل اثنين من مروِّضي الحيوانات.

بمجرد إحكام أغلاق أبواب الفصل ونَشْر نقاط المراقبة من التلاميذ عند الباب والنوافذ طُلب منه التجرُّد من ملابسه كما تعوَّد، فأثار ذلك شعور التسلية بين الجميع.

أمسك رايتينج بحزمة من الخطابات التي كان يبعثها بازيني إلى أمِّه وشرع يقرؤها أمام الجميع:

«طفلي الحبيب..».

ساد الهرج والمرج بين التلاميذ.

«بصفتي أرملة وحيدة فأنتَ تعلم قلة الأموال التي في حوزتي و..».

انطلق وابل من الضحكات الرقيعة والنكات البذيئة من أفواه التلاميذ. وبينما كان رايتينج يتأهَّب لاستئناف قراءة الخطاب، دفعَ أحدهم بازيني دفعة قوية. ثم انقضَّ عليه ثانٍ، دافعًا إياه بحركة جامعة بين التهريج والحنق، ثم عاجَلَه ثالث بلكمة أخرى دفعته إلى الوراء.

مجرَّدًا من ملابسه وبفم مفغور عن آخره من فرط الذعر راح بازيني يتنقَّل بين أركان حجرة الدرَّاسة ككرة قدم تقفز هنا وهناك، ووسط هدير ضحكات التلاميذ وصيحاتهم ارتطم بالحواف الحادَّة لمقاعد الدراسة فجُرح جسده وسقط وجُلطتْ ركبتاه، ثم تكوَّم في النهاية فوق الأرض، وقد تضرَّج بدمه وغَمَره التراب، بعينين فقدتا كل شعور مثل عيني حيوان مذعور، فتدافع الجميع للفرجة عليه وهو ملقى على الأرض.

ارتعد تورلس لِمَا رآه بعينيه من قوة الترهيب المروِّعة. لم يكن يعرف ما الذي يستطيع بازيني فعله في تلك اللحظة. عَلِمَ أنهم سيُقيِّدون بازيني إلى السرير في الليلة التالية وسيجلدونه بحوافِّ سلاح المبازرة.

***

لشدَّ ما كانت دهشة الجميع عندما جاء مدير المدرسة في الحصة الأولى من صباح اليوم التالي في رفقة رئيس الفصل واثنين من المدرِّسين. استُبعد بازيني من الفصل وعُزل انفراديًّا في غرفة خاصة. ألقى المدير كلمة حادة غاضبة بسبب السلوك الوحشي المفرط الذي نمَا إلى علمه، وأمَرَ بإجراء تحقيق شامل فيما جرى.

كان بازيني قد سلَّم نفسه إلى إدارة المدرسة واعترف بأفعاله.

لا بد أنَّ أحدًا قد نبَّهه إلى ما سيحدث.

لم يكن تورلس مثار شبهة، فجلس لا يحرك ساكنًا، منغمسًا في أفكاره وكأن المسألة لا تعنيه في شيء. لم يخطر بذهن باينيبيرج أو رايتينج أنه قد يكون من أفشا السر، إذ لم يأخذا تهديداته الأخيرة على محمل الجد قط.

كل ما في الأمر أنهما فَعَلا فعلتهما لتخويفه وتقليم أظافره، وربما بدافع من السخط عليه. وبعد أن سكتَ عنهما الغضب، نسيا شأن تورلس تمامًا. كانت الكلمة التي قطعاها أمام والديه بتعهُّده بالحفظ والرعاية عائقًا لأن يمسَّاه بسوء، علاوة على أنهما كانا يريان تورلس أضعف وأجبن من أن يفعل شيئًا.

لم يشعر تورلس بذرة ندم على ما فعل، صحيح أن سلوكه كان جبانًا، مدبرًا بليلٍ، لكن ذاك لم يكن يمثل له شيئًا قياسًا بشعور الراحة والتحرُّر التام. وبعدما ذاق من صنوف البلبلة والاضطراب بدا كل شيء الآن أمامه

واضحًا رحْب المعالم. لم يشارك في أي من المحادثات الدائرة بين التلاميذ عن إجراءات المدرسة المتوقعة، وأمضى بقية يومه خالي البال.

عندما حلَّ المساء جلس إلى مقعده وأمامه الدفتر الذي اعتاد أن يدوِّن فيه ملاحظاته العابرة، لكنه لم يعكف عليه طويلًا.

مرَّر أنامله فوق أوراق الدفتر وأحسَّ وكأنها تفوح برائحة عطرة، أشبه برائحة نبتة الخزامى (اللافندر) التي تفوح من الخطابات القديمة. أحسَّ بشعور الشجن الرقيق الذي يداهمنا عندما نقف وجهًا لوجه أمام ماضٍ مدفون طواه الزمن، فنكتشف أوجه شَبَه منسيّة بين ذواتنا وبين الظلال الرقيقة المملوءة بالشجن التي تصنعها الزهور الميتة الراقدة بين أكفِّنا.

وكأن هذه الظلال الرقيقة الشجيَّة، وهذا العطر الباهت المتلاشي وسط جدول واسع دافئ، هي صنو الحياة التي فُتِحت أبوابها للتوِّ في وجه تورلس.

ها قد انقضت مرحلة من مراحل تطوُّره، وها قد اكتستْ روحه بطبقة جديدة مثل شجرة نامية اكتسى جذعها بحلقة جديدة، وصار شعور الصمت الطاغي الذي يلفُّ كيانه بمثابة تبرير لكل ما جرى. عندها بدأ تورلس يتصفَّح ذكرياته.

دبَّت الحياة مرة أخرى في العبارات الركيكة المهلهلة التي حاول أن يحكي فيها ما جرى - تلك الأحداث الثرية المدهشة التي انغمست فيها حياته، وسرَتْ فيها الحيوية، واتخذت قوامًا متماسكًا.

فبدت تلك العبارات أمامه مثل طريق مُشرق حُفِرت عليه آثار روحه إذ تتلمس خطاها. لكنه تنبَّه إلى أن عباراته يعوزها شيء؛ نعم.. تعوزها الأفكار الجديدة، فلم تكن تحمل من العنفوان والحيوية ما يجعلها تستحوذ على روح تورلس تمامًا.

اضطرب وأحسَّ بالقلق خشية المثول بين يدي معلِّميه صباح غد لتبرير ما فعل.

ولكن كيف؟ كيف يمكنه الوقوف وشرح كل ذلك؟ كيف يمكنه شرح ملامح الطريق المظلم الغامض الذي سار فيه؟

ولئن سألوه يومًا: «ولِمَ كنت تسيء معاملة بازيني؟»

فهل كان في مقدوره أن يجيبهم: «لأني كنت مهتمًّا بمعرفة شيء ما يدور في ذهني، شيء لا أعرف عنه حتى هذه اللحظة إلا أقل القليل، وهو شيء غير ذي قيمة مقارنة بأفكاري كلها؟» هل في مقدوره أن يردَّ عليهم هكذا؟

أرعبته تلك الخطوة الصغيرة الأخيرة التي يتحتم عليه أن يخطوها لبلوغ نهاية مشوار تطوّره الفكري، أرعبته كما لو كان يقف على شفا حفرة لا قرار لها.

وقبل أن يعمَّ الظلام وجد تورلس نفسه في حالة من القلق المحموم.

(21)

في صباح اليوم التالي استُدعي التلاميذ لاستجوابهم واحدًا تلو الآخر، لكن تورلس اختفى من دون أثر، وكان قد شوهد آخر مرة الليلة الفائتة، جالسًا أمام دفتر ملاحظاته، يقرأ في الأغلب الأعم.

جرى تفتيش كل ركن من أركان المدرسة، حتى أن باينيبيرج ذهب خلسة للبحث عنه في الغرفة السرية ولم يجده. تبيَّن أن تورلس هرب، فجرى إبلاغ السلطات المختصَّة لإحضاره على نحو لائق وكريم. في تلك الأثناء كان التحقيق قد بدأ بالفعل.

ظنَّ رايتينج وباينيبيرج أنه هرب خوفًا من تهديداتهما، فرأيا لزامًا عليهما أن يصدَّا عنه أية شبهة، فاستبسلا في الدفاع عنه، ووضعا اللوم كله على رأس بازيني، وأكَّد على كلامهما تلاميذ الفصل كافة، فشهدوا أن بازيني لم يكن إلا سارقًا حقيرًا أخفقت كل محاولات إصلاحه وردِّه إلى جادة الصواب.

من جانبه أكَّد رايتينج أنه يدرك تمامًا حقيقة خطأ سلوكهما، مؤكدًا أنهما لم يفعلا ذلك إلا بدافع الشفقة، إذ أحسَّا ألا ينبغي الوشاية بزميل دراسة قبل استنفاد الوسائل الودِّية كافة، بينما أقسم تلاميذ الفصل كلهم أن سوء معاملتهم لِبازيني لم تكن إلا فورة غضب غير مقصودة بعد أن أنكر إحسانهم، وقابل معروفهم بأحقر قدرٍ من الخسَّة ودناءة السلوك.

خلاصة الأمر كانت مسرحية هزلية مُتقنة بَرَع رايتينج في إعداها وإخراجها، ولعبَ فيها على كل الأوتار الأخلاقية التي يعرف أنها ستلاقي صدى عند مُعلِّمي المدرسة وتحمل قيمة عندهم.

أما بازيني فقد التزم الصمت التام بعدما زلزلت كيانه صدمة الأمس المروِّعة، ولم تخلِّصه إلا وحدته داخل حجرة العزل الانفرادي، فضلًا عن التحقيق الذي أخذ مسارًا هادئًا منضبطًا. كان منتهى أمله هو وضع نهاية سريعة للمسألة برمتها، ناهيك بأنه لم ينسَ تهديد رايتينج باينيبيرج بأبشع أنواع الانتقام إذا ما شهد ضدَّهما.

في تلك الأثناء عُثر على تورلس وأحضِرَ إلى المدرسة. عثروا عليه في بلدة مجاورة، يتضوَّر جوعًا، وعلى شفا الموت من فرط الإنهاك.

اعُتبر أن هروبه هو اللغز الوحيد في القضية كلها.

لكن الظروف لعبت لصالحه. أعدَّ رايتينج وباينيبيرج للأمر عدَّته، وجهَّزا حجَّة مقنعة، فقالا إن تورلس كان مشدود الأعصاب في الآونة الأخيرة، وأشارا إلى حساسيته الأخلاقية المفرطة واعتقاده أن عدم إبلاغه عن شيء يعرفه منذ البداية، إنما هو سلوك يرقى إلى درجة الجريمة، فعدَّ نفسه متورطًا في هذه الكارثة.

قابله زملاء الفصل مقابلة فيها بعض الحفاوة التي استعدوا لها مسبقًا. برغم ذلك مزَّق الاضطراب العنيف أعماقه، وهدَّ من طاقته إحساسُه بالعجز عن شرح ما حدث للآخرين.

لاعتبارت متصلة بسرِّية التحقيق وخوفًا من تفجُّر مزيد من الفضائح عُقدت جلسة الاستجواب في غرفة سكن المدير الخاصة، وحضر التحقيق رئيس الفصل ومدرِّس التربية الدينية ومدرِّس الرياضيات الذي كُلِّف بتحرير محضر التحقيق باعتباره أصغر أعضاء هيئة التدريس سنًّا.

ولما سُئل تورلس عن سبب هروبه لزم الصمت، فأومأ الحضور برؤوسهم إشارةً إلى تفهمهم لموقفه، وقال مدير المدرسة:

«لا تقلق، عرفنا كل شيء. ولكن أخبرنا ما الذي دفعكَ للتستُّر على جريمة بازيني؟»

كان في مقدور تورلس الكذب، لكنه طرد عن نفسه الخجل، واستولت عليه رغبة عارمة في الحديث عن نفسه وعن أفكاره على رؤوس الأشهاد.

«لا أعرف بالضبط، سيدي المدير، لكني عندما سمعتُ بالأمر للمرة الأولى، بدا لي أمرًا شائنًا للغاية، أمرًا لا يقوى عقلي على استيعابه..».

أومأ مدرس التربية الدينية إيماءةً تنمُّ عن الرضا والتشجيع.

«في الحقيقة فكّرتُ حينذاك في روح بازيني..».

عندها تهللت أسارير مدرِّس التربية الدينية، بينما نظَّف مدرس الرياضيات نظارته ووضعها ثانية فوق أنفه ثم ضيَّق عينيه.

«لم أستطع تصوُّر للحظة مقدار الإهانة والإذلال التي ستلحق بِبازيني، وهو ما أبقاني قريبًا منه..».

«لا بأس، ربما تقصد أنك شعرتَ بنفور فطري من سلوكه المنحرف، وأن مشهد الإثم الذي ارتكَبَه أمسكَ بأنفاسكَ مثلما يكتم المرء أنفاسه وهو يرى نظرة الحيَّة وهي تقترب من فريستها».

لم يتردَّد رئيس الفصل ومدرِّس الرياضيات في إبداء موافقتهما على التشبيه الذي استخدمه مدرس التربية الدينية بهزَّة من رأسيهما.

لكن تورلس قال:

«لا، لم يكن نفورًا، ما حدث أنني قلت في نفسي إنه ارتكب جُرمًا وينبغي تسليمه إلى المسؤولين لعقابه».

«وهذا ما كان ينبغي لك فعله!».

«لكن بعد ذلك بدأت أراه من منظور عجيب مختلف بعيد تمامًا عن فكرة العقوبة، ورأيتني أنظر إليه من زاوية مختلفة تمامًا، وكلما فكرتُ بهذه الطريقة شعرتُ بأن صدعًا ما ينفتح داخل نفسي».

«عليك التعبير عن نفسك بأسلوب أوضح، عزيزي تورلس».

«لكني عاجز عن شرح الأمر بطريقة أخرى، سيدي المدير».

«مفهوم.. مفهوم.. أنتَ مضطرب ومشوَّش الذهن، يمكننا أن نرى هذا بوضوح، فما قلتَه للتو شديد الغموض».

«لا أنكر أنني مضطرب الذهن، ربما كان في مقدوري صوغ كلامي صياغة أنصع وأوضح، لكني ألفُّ وأدور لأعود دومًا إلى نفس النقطة، أنَّ بداخلي شيئًا غريبًا عصيًّا على الوصف».

فكّر تورلس هنيهة.

«يمكننا صوغ المسألة على النحو التالي: ثمة أشياء بعينها مقُدَّر لها أن تؤثِّر في حياتنا بطريقتين مختلفتيْن، أما في حالتي فهذه الأشياء هي أشخاص وأحداث وزوايا معتمة مغمورة بالتراب، جدار عالٍ بارد صامت دبَّت فيه الروح بغتة..».

«بربِّك يا تورلس! لا أفهم كلمة؟ ما الذي تتحدث عنه؟»

لكن تورلس كان مستمتعًا بقول ما يطوف بذهنه ويعنُّ له.

«الأعداد التخيلية مثلًا..».

حملق الجميع إلى بعضهم البعض، ثم صوَّبوا أنظارهم ناحية تورلس.

سَعَل مدرس الرياضيات وجلى حنجرته وقال:

«لفهم مغزى هذه العبارات الغامضة فهمًا أفضل اسمحوا لي أن أوضِّح أن التلميذ تورلس جاءني ذات مرة يلتمس شرحًا لبعض المسائل الرياضية - بما في ذلك الأعداد التخيلية- التي قد يتعذَّر فهمها على غير الملمِّين بمبادئ الرياضيات. وهنا يتحتم القول إن التلميذ تورلس قد أظهر حدَّة ذكاء لا يمكن إنكارها، لكنه كان مسكونًا بشغف من نوع خاص، إذ حدَتْه رغبة في إيجاد الثغرة التي تشوب مبدأ السببية* في الفكر البشري - على الأقل من وجهة نظره... هل تذكر يا تورلس ما قلتَه لي آنذاك؟»

«نعم، قلتُ إنه في مثل هذه الحالات لا نستطيع المضي قدمًا بتفكيرنا المنطقي وحده، لأننا في حاجة إلى يقين داخلي من نوع آخر من شأنه أن يصل بنا إلى حيث نريد، وهذا ما شعرتُ به في حالة بازيني، شعرتُ أن التفكير المنطقي وحده لن يساعدنا على فهم موقفه».

بسبب هذه الانعطافة الفلسفية في مسار التحقيق أوشك صبرُ مدير المدرسة على النفاد، لكن بدا أنَّ مدرس التربية الدينية كان راضيًا عن إجابة تورلس أشدَّ الرضا، فسأله:

«أمعنى هذا أنك منجذب إلى وجهة نظر الدين أكثر من وجهة نظر العلم؟ يبدو لي أنك تعاملت مع مشكلة بازيني بالمنظور نفسه؟»

قالها مدرس التربية الدينية ثم التفتَ إلى بقية الحضور، مردفًا:

«يبدو أنه أكثر تسليمًا بالجانب الأسمى، دعوني أقول تسليمًا بالحكمة الإلهية الأخلاقية المتعالية».

---

* السببية أو العِليّة: موضوع فلسفي وبشكل أخص في فرع فلسفة العلوم يُعنى بالعلاقة بين حدث يسمى السبب وحدث آخر يسمى الأثر، على نحو يكون فيه الحدث الثاني نتيجة الأول (المترجم).

عندها أحسَّ مدير المدرسة بضرورة التدخل في مسار الحديث فقال:

«اسمع يا تورلس.. هل صحيح ما يقول الأب الكاهن؟ هل لديك نزوع للبحث -كما عبَّرت بشكل عام- عن خلفية دينية قابعة وراء مظهر الأحداث أو الأشياء؟»

ربما كان مدير المدرسة سيفرح لو أجابه تورلس إجابة نهائية مباشرة وحازمة، تسمح له بتأسيس قراره على أرض راسخة، لكن تورلس أجاب قائلًا:

«لا، ليس الأمر على هذا النحو أيضًا».

وهنا انفجر مدير المدرسة في وجهه قائلًا:

«حسنًا، أخبرنا الآن بقصدكَ بشكل واضح لا لبس فيه، لسنا الآن في معرض الدخول في نقاشات فلسفية!»

ركبَ تورلس رأسه وشعر أنه لم يُحسن التعبير عما يجول بخاطره، بعد أن منحَته اعتراضات المحققين والموافقة على رأيه دون فهم صحيح، شعورًا بالتفوق والزهو تجاه الكِبار الذين وجدهم لا يعلمون شيئًا عن الحياة الروحية للإنسان.

«للأسف ليس ذنبي أنَّ ما قلتُه خالف ظنَّك، لكني أعجز عن وصف مشاعري وصفًا دقيقًا في كل مرة، ربما إن أخبرتكَ بما أفكِّر فيه هذه اللحظة لفهمتَ لِمَ حاصرتني هذه الأفكار فترة طويلة».

نهض تورلس، ووقف ثابتًا، مشدود الظَّهر وكأنه هو مَن يُحقِّق معهم، وبصره معلَّق على رؤوسهم، كان عاجزًا عن مواصلة النظر إلى هذه الشخصيات المثيرة للرثاء.

خارج نافذة الغرفة لمح غرابًا واقفًا فوق فروع أحد الأشجار، فيما عدا ذلك لم يكن هناك سوى مساحة شاسعة غارقة في اللون الأبيض.

شعر بأن الوقت قد حان ليقول كلامًا واضحًا واثقًا لا لبس فيه عن الأشياء التي رآها في أول الأمر مبهمة ومؤلمة، ثم صارت لاحقًا جثة هامدة بلا روح، عاجزة عن الخروج.

لم ينبعث هذا الوضوح واليقين من بزوغ أفكار جديدة في عقله، لا، بل أحسَّ وهو واقف هكذا شامخًا منتصب الظهر كما لو أنَّه واقف وسط ساحة واسعة خالية من البشر، أحسَّ بهذا الشعور بكل ذرة في كيانه، وهو الشعور الذي كان يراوده عندما يقفُ في الفصل الدراسي وبصره الذاهل يجول بين رؤوس التلاميذ العاكفين على الدرس أو الكتابة.

أما الأفكار الجديدة فلها شأن آخر متفرد.

ليست الأفكار إلا وقائع طارئة تجيء وتروح من دون أن تترك وراءها أثرًا، للفكرة وقت تُولد فيه، ووقت تموت فيه. قد يحدث أن يعثر الإنسان على فكرة عبقرية، لكنها برغم ذلك ما تلبث أن تذبل شيئًا فشيئًا مثل زهرة تذبل في راحة اليد، فتبهت ألوانها، وتزول رائحتها، ولا يبقى منها إلا شكلها. بعبارة أخرى: قد نتذكَّر فكرة ما حرفًا بحرف، فتعيَ عقولنا قيمتَها، لكنها لا تترك أثرًا في أرواحنا ولا تُثري نفوسنا.

ويستمر الأمر هكذا حتى تأتي اللحظة -ربما تأتي تلك اللحظة بعد سنوات- التي نكتشف فيها أننا لم نفهم الفكرة حق فهمها، برغم أن عقولنا استوعبتها منطقيًّا.

نعم في الحياة أفكار حية وأخرى ميتة. ومن ثم فليس بالضرورة أن يكون نمط التفكير المستقيم الواضح ظاهريًّا، القابل للقياس وفق مبدأ السببية (علاقة السبب والمسبب)، هو نمط التفكير الأشد امتلاءً بالحياة.

والفكرة التي نعثر عليها على هذا النحو تظلُّ في أنظارنا تافهة لا فارقة مثلها كمثل جندي من بين آلاف الجنود المصطفِّين في طابور عرض عسكري.

لا تدبُّ الروح في أفكارنا القديمة إلا عندما تصادف حدثًا خلوًّا من أي فكر ومنطق، عندها فقط ندرك حقيقتها ونفطن إلى جوهرها.

السبب أن بصيرة الإنسان مكوَّنة من نصفين؛ ينمو نصفها الأول تحت أنوار شمس العقل، وينمو نصفها الثاني في الدرك الأسفل من ظلمات النفس؛ البصيرة حالة عقلية لا تنشط إلا عند أقصى أطراف أفكارنا، مثل الزهرة.

كان تورلس في أمسِّ الحاجة إلى تجربة روحانية عنيفة تعصف بكيانه وتُطلق العنان لقواه الغريزية. وهكذا لم يُعرْ انتباهًا إلى نظرات الكِبار المحملقة فيه، وكأنه يتحدث إلى نفسه، فاستجمع شتات أفكاره وانبرى في حديثه دونما توقُّف، ونظرته مصوَّبة بثبات نحو الأفق:

«ربما لم أتعلم حتى الآن ما يكفي للتعبير عن نفسي تعبيرًا فصيحًا، لكني مع ذلك أودُّ وصف ما جال بخاطري قبل ثانية. لا يسعني إلا القول إني طالما رأيتُ الأشياء كلها من زاويتين مختلفتيْن، لا الأشياء وحدها، بل الأفكار كذلك. أحاول التمييز بين الأشياء فلا أرى فارقًا بين ما رأيته اليوم وما رأيته بالأمس، لكني حين أغمض عيني أرى الأشياء بأعين مختلفة.

ربما أخطأ ظنِّي بشأن مسألة الأعداد التخيلية؛ فعندما أفكِّر فيها من منظور علم الرياضيات أجدها طبيعة منطقية، لكني حين أدقق النظر في غرابتها أراها بعيدة كل البعد عن المنطق، وربما أكون مخطئًا هنا أيضًا، فلستُ ذا باع طويل في الرياضيات، لكني لم أخطئ قط بشأن بازيني. لم

يجانبني الصواب عندما اعتقدتُ أن في استطاعتي سماع همهمة خافتة على الحائط العالي، وعندما عجزت عن التوقف عن التحديق في ذرات الغبار الصامتة التي يضيئها شعاع المصباح فجأة، لا، لست مخطئًا عندما أقول إن للأشياء حياة سرية أخرى تمر أمامنا مرور الكرام من دون أن يلاحظها أحد. لكن لا تأخذوا كلامي حرفيًّا، فأنا لا أقصد أن الأشياء الجامدة حيَّة تُرزق، ولا أن لِبازيني وجهين، بل أقصد أنَّ في داخلي بصيرة داخلية لا تقدر على رؤية الأشياء بعين العقل وحده. ومثلما أشعرُ بميلاد فكرة جديدة بداخلي، أشعر أيضًا بشعلة غامضة تشتعل في أعماق نفسي حينما أنظر إلى الأشياء بعين قلبي، وحينما أخمدُ صوت الأفكار.

ثمة شيء غامض رابض بين جوانحي، راقد تحت جلدي، لا أستطيع إدراكه بالأفكار ولا التعبير عنه بالكلمات، لكنه برغم ذلك هو قوام حياتي، لقد أورثتني حياةُ الصمت التي عشتها هنا هَـمًّا وحزنًا ووحشة، بقيت أحملق في هذه الحياة على الدوام، غير قادر على إبعاد نظري عنها، وخشيت أن تمضي حياتي كلها على هذا النحو، ولا أخبُـر من تجارب الدنيا إلا ندفًا هنا وهناك، امتلأ قلبي خوفًا وكدت أفقد صوابي..».

في غمرة الفورة العاطفية والحماسة الشديدة انثالت هذه الكلمات والاستعارات على لسان تورلس انثيالًا سلسًا طبيعيًّا، حتى وإن بدتْ وكأنها تفوق عقل فتى في مثل سِنِّه، وكأن ربَّة الشعر قد هبطت عليه. بعدها أخفض تورلس من صوته واستأنف كلامه، كما لو أنَّ معاناته السابقة ملكتْ أمره، فقال:

«أما الآن فقد انتهى الأمر. أعلم أني كنت مخطئًا، لكني لم أعد أخاف شيئًا الآن. صرت أعلم أن الأشياء هي مجرد أشياء وستبقى هكذا دائمًا، وسأظلُّ أراها تارة بطريقة، وتارة أخرى بطريقة مختلفة. أراها تارة

بعين عقلي، وأراها تارة أخرى ببصيرة ثانية، ولن أحاول عقد مقارنة بين هذا وذاك..».

بعدها لزم تورلس الصمت، وأحسَّ أن وقت الرحيل قد حان، ولم يحاول أحد إيقافه.

***

عندما غادر تورلس راح الباقون في الغرفة يرمقون بعضهم البعض بنظرات ذاهلة.

هزَّ مدير المدرس رأسه مدهوشًا. بادر رئيس الفصل بالكلام قائلًا: «حسنًا، ربما أراد هذا النبي اليافع أن يُلقننا درسًا، لكنه يلقي كلامًا جزافًا ويخلط الحابل بالنابل. كان في حالة انفعال شديد. اضطراب! فَخَلَط الأوراق كلها ببعض!»

صدَّق مدرس الرياضيات على كلامه قائلًا: «نعم، طريقة تفكيره عفوية مندفعة، يبدو أنه يولي اهتمامًا بالغًا للجانب الذاتي من تجاربنا هنا في المدرسة وأن هذا ما أثار الاضطراب والبلبلة في نفسه ودفعه إلى استخدام هذه التشبيهات».

أما مدرس التربية الدينية فقد لزم الصمت. من بين كلام تورلس استوقفته كثيرًا كلمة «روح»، وكان يودُّ لو شَدَّ على يد الفتى، لكنه لم يكن متأكدًا أي معنى يقصده تورلس بالضبط.

حسم المدير الأمر قائلًا:

«الحقيقة أني لا أعرف ما الذي يدور بذهن تورلس حقًّا، لكن عقله أفرط في الانفعال والحماسة، على نحو يتعذَّر معه استمرار بقائه داخل المدرسة، فنموُّه العقلي يستلزم منا قدرًا أكبر من الرعاية والمراقبة، وهو ما يتجاوز قدرتنا الراهنة. لا أظن أننا سنتحمل مسؤوليته أكثر من ذلك،

التعليم المنزلي أنسب الوسائل لحالته. سأكتبُ مذكرة إلى والده في هذا الشأن».

وافق الحاضرون جميعًا على اقتراح المدير الذي اتسم بالنزاهة والصدق.

قبل الانصراف قال مدرِّس الرياضيات لزميله: «إنه فتى غريب الأطوار، لا أستبعد أن له ميولًا هيستيرية».

تزامن خطاب المدير مع رسالة بعثها تورلس نفسه إلى والديه يطلب فيها نقله من المدرسة لأنه لم يعد يشعر بالراحة لوجوده فيها.

telegram @
yasmeenbook

(22)

في تلك الأثناء صدر قرار بطرد بازيني كنوع من العقوبة، وعادت الأمور إلى سابق عهدها في المدرسة.

اتُّفِق على قدوم والدة تورلس لاصطحابه، فودَّع زملاءه بكلمات فاترة، بعد أن كاد ينسى أسماءهم. لم تخطُ قدماه عتبة الغرفة الحمراء مرة ثانية، صار كل هذا إرثًا بعيدًا.. بعيدًا من مخلفات الماضي. ويبدو أن ذكرى الغرفة قد ماتت مع رحيل بازيني، كما لو أنه أخذ معه ما يربطه بها. هدأ روع تورلس وإن خالط مشاعره بعض التوجُّس، لكن مشاعر اليأس زالت عن قلبه تمامًا، فقال في نفسه: «ربما تكون تلك الأشياء السرِّية التي حدَّثتُ بها بازيني هي السبب في تفاقم الأمور».

لم يكن يتخيَّل وجود سبب آخر.

برغم ذلك أحسَّ بالخزي. هو شعور الخزي نفسه الذي ينتابنا إذ نستيقظ في الصباح بعد ليلة قضيناها في براثن الحمى ورأينا في أحلامنا تهديدات مفزعة لائحة في الأفق من كل ركن من أركان الغرفة المظلمة، فنكتشف أن كل ما رأيناه لم يكن إلا أضغاث أحلام.

خَجِل تورلس من نفسه إذ رأى في سلوكه أمام لجنة التحقيق سلوكًا تافهًا مثيرًا للسخرية إلى أبعد الحدود.

جعجعة! أكانوا على حق؟ لكن شيئًا ما في داخله خفَّف من وطأة شعوره بالخزي.

قال في نفسه: «من المؤكد أني تصرفتُ تصرفًا أخرق يجافي العقل، برغم أن المسألة برمتها لا علاقة بالعقل أو المنطق من قريب أو بعيد».

كان هذا هو الإحساس الجديد الذي انتابه، ثم ما لبث أن تذكَّر الإعصار العاتي الذي عصف بروحه في أثناء التحقيق، ولم يجد في نفسه سببًا كافيًا لتفسير وقوعه، ثم ختم مناجاته الذاتية قائلًا: «لا بد أنه كان سببًا أخطر وأعمق من أن نُقيِّمه ونحكم عليه بأسباب المنطق والعقل».

أما ما حدث قبل هذه الفورة الانفعالية في أثناء التحقيق ومَلَك عليه مشاعره، لنقُلْ معضلة حياته الحقيقية، فلبث على حاله ولم يتغيَّر. إنه ذلك المنظور الروحي المتبدِّل وفقًا لدرجة القُرب أو البُعد عن التجربة المعاشة، والارتباط الغامض الذي يسبغ على الأحداث والأشياء قيمًا غريبة ومتفاوتة وفقًا لزاوية رؤيتنا لها.

كل هذه الأشياء وغيرها رآها تورلس رؤية واضحة نقية لا تشوبها شائبة، رآها صغيرة؛ رآها كما نرى الأشياء عندما يطلع علينا النهار، فتجفِّفُ أشعة الشمس عَرَقَ خوفنا وتُعيد كل شيء: المائدة والخزانة، والعدو الذي نخشاه، والقَدَر الذي نهابه؛ إلى أحجامها الحقيقية، فلا نعود نخشاها بعد ذلك أبدًا. لكن تورلس لم يسلم أيضًا مما يصحب تلك التحولات من تعب ومشقَّة مشوبة بتأمُّل ما جرى. لكنه الآن صار قادرًا على تمييز الليل من النهار. صحيح أنه كان قادرًا على التمييز بينهما في السابق، لكن حُلمًا مزعجًا اجتاحه وطمسَ الحدود الفاصلة بينهما فأشاع هذا الاضطراب والخزي في نفسه.

تذكَّر تورلس أن الحياة لا تبقى على حال واحد، وأن الحدود الفاصلة بين البشر إنما هي حدود هشَّة سهلة الهَدم، وأن الأحلام تحوم بخفَّة حول أرواحنا لدكِّ الحصون المنيعة وفتح الشوارع المغلقة؛ ترسَّخت هذه الذكرى في وجدانه وألقت بظلالها الشاحبة على روحه.

لم يقدر على تفسير المزيد من الأمر، لكنه وجد حلاوة في طعم العجز عن إيجاد الكلمات المناسبة، في الوقت ذاته تملَّكه يقين يشبه يقين خليَّة مخصَّبة تحسُّ بشيء من آثار المستقبل تجري في دمائها، فاختلطت مشاعر الثقة بمشاعر التعب، ولبث ينتظر آخر يوم له في المدرسة وقد شملته حالة من السكينة والتأمُّل. أما عن أمه فقد ظنَّت أنها سترى أمامها فتى يافعًا مضطرب الوجدان، طغَتْ عليه انفعالاته، لكنها دهشت لما لاحظت رباطة جأشه.

في أثناء الطريق إلى محطة القطارات، وعلى الجانب الأيمن مرَّا إلى جوار غابة صغيرة تضمُّ بيت بوزينا. كان بيتًا متواضعًا لا يلفت الأنظار، مجرد كرمة من أشجار الصفاف وأشجار جار الماء المغمورة بالتراب. تذكَّر تورلس حينها استحالة وجود والديه إلى جواره في ذلك الوقت، اختلس نظرة إلى أمِّه، فسألته:

«ما الأمر عزيزي؟»

«لا شيء يا ماما، مجرد خاطر طاف للتوِّ برأسي».

ثم راح يستروح العطر الخافت المنبعث من وسط ثوبها.

-تمَّت-

telegram @yasmeenbook